دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١
رواية
مفستوفيلس
عوني صادق

مفستوفيلس

مفستوفيلس

رواية

عوني صادق

دار
قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: مفستوفيلس

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: عوني صادق (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: pdf 2021 _ نشرت ورقيًا من قبل.

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

توطئة

تقذفني رغبة حارقة نحو تلك الأصقاع البعيدة ,الليل والصحراء ووجوه تتربص بي , وخلف اللوحة قباب عالية تنطلق منها تلك الأهازيج القابعة في زوايا منسية من ذاكرة الأحلام البعيدة، وأمتلك الشجاعة في فك تلك الألغاز ,وينطلق سؤالي:

- لماذا أنا؟ !

تنفك حروفه بعصبية صبيانية على لساني، تبتعد أجواءُ الحلم ,وتقترب لينقشع الغبار والضباب والظلمة الحالكة عن ذات الملامح التي رأيتها مرارًا على شاشات الميديا . وجهٌ أوروبي واضحُ التفاصيل ,يتشبث بانسجام ووسامة عصيّة أمام استسلام حتمي لشراسة تنضح بها استدارة العينين، يتحدث لي وتابعاه يقيداني، وفي محاولة مستميتة لأتطلع إلى وجهيهما، لكنهما بدا كائنين من ضباب ودخان .يستحضر قلبي آيات القرآن أرتلها لأقاوم بها الكابوس البغيض، وتنساب على لساني آيات لم أحفظها بعد .والرجل يشملني بنظرة نارية تفصله عشيرة ترتدي مسوحًا سوداء عن شواهد قبور لديانات وملل شتى، تمتد عبر اتساع الأفق، والضباب والدخان.

أشار لهما:

- اتركاه؛ لا فائدة منه.

ينقشع الرجلان .ويولّي الوفدُ الشيطاني الأدبار.

** **

الفصل الأول

...كنت أشكّل بهذه اللوحة استهلالًا لمسرحية أوهام فاوست ,التي عشت أطوارًا منها منذ بواكير صباي الأولى،كان يأتي "مفستوفيلس "من مروج جبال الألب العاصفة،مجلّلًا بوحشية أسطورية .وفي يده مفاتيح معرفة بلا حدود ,وقوة مطلقة , وكنوزضخمة .كان يغريني لأدِينَ له بولاء العبودية؛ ليمنحني بعض المغاليقمن جُبّ أسرارالمعرفة،والشهرة ,والمجد ,والسيادة.

ها هو الشيطان –عينه – " *مفستوفيلس"* يتهادى كرجل نبيل، متدثّرًا بثوب أحمر مطرّزًا بالذهب، وعباءة من الحرير المشدود، وعلى رأسه قلنسوة مزودة بريش الدِّيَكة،يقترب بنصل مديةٍ لامعة من إبهام البطل الفاوستي الذي يصيح فيه" :*ماذا تريد مني أيها الروح الشريرة؟!"*

يقول له :

- إني أدع لك حرية الاختيار .

ومن دمه يُمْهر عقد عبوديته .

- أي وريقة تكفي وقّع عليها بقطرة من دمك.

قبل شهرين ,وتحديدًا ليلة 30أبريل، حضر اجتماع الشياطين والسحرة والعفاريت عبر الإيحاء حفلًا خرافيًّا على جبال فالبورج (بلوكسبرج) ، وفي أجواء خيالية أُهرقت الخمور في بحيرة من العسل المصفّى .بدأ أباطرة السحر عبر رواق المحفل يقبضون على زمام أمور العالم،يتيهون في أرجاء عالمهم الافتراضي،وهو يسير وسط

طابور من الأعضاء الجدد يقاوم رهبة وخوفًا يكاد يقتلعه من جذوره،دنت منه فتاةٌ غارقة في حالة متعة دائمة .اصطحبته وهى في حالة من الاستلاب ,قالت له بلهجة مضمَّخة بنشوة تصقلها أنوثة عتيدة " :سليمان " سيتولى رعايتك طوال الحفل.لم يختلف سليمان هذا عن مافستوفيلس كثيرًا،ناصع البياض مثل الثلج،يُبدي بشاشة كاذبة،واستعدادًا لإشعال حريق .وقف صامتًا وكأنه يؤدّي دورًا حفظه عن ظهر قلب . والرجل يشمله بعينين غائرتين ..سيرتك لا بأس بها،قال له وهو يصُبّ كأسًا من نبيذ معتّق،ويشير لمارجريت "حبيبةفاوست " : " *ستقضي ليلتها معك لو أثبَتَّ جدارة . ستقبل بعبوديتها لك*"

** **

(٢)

عنان حفني ندا

تواصلت معي عبر الفيس بوك عندما قبلتْ صداقتي، وأوجزتْ لي قدرًا من قصتها، قالت إنها من كليوباطرا، تستقل الميكروباص يوميًّا إلى مستشفي ناريمان؛ حيث تعمل ممرضة، طموحها بأن تكون مطربة مثل نجاة وميادة الحناوي هيْمنَ على عقلها طوال الوقت تضع سماعةَ الموبايل في أذنيها لتستمع للأغنيات، وتردد معها بصوتٍ غايةً في الرقة، ساكن قصادي وبحبه، والطيرالمهاجر . وصديقاتها يستعذِبْن صوتها وهي تردد تلك الأغنيات.

حاول أمين الشرطة مصطفي عبد الناصر التوددَ لها وهو يعالَج من نوبةِ بردٍ حادة أصيب بها .عندما رآها جذبه لونُها الخمريُّ المصقول بنعومة رائعة، وهو بملامحه الأوروبية وكأنه من أصول إسكندنافية، تلك الوسامة الأوروبية التي كانت باعثًا ليختال بها بين رفاقه من العساكر والأمناء حتى الضباط، ولكنه على العكس كان خجلُه وارتباكُه واحمرارُ وجهه مدعاةً للتندر.

ترددت عنان على عنبره، ظنّ أنها توليهِ اهتمامًا خاصًّا،بعد شفائه – وهو يتأهب للخروج –أعطاها رقمَ هاتفه؛ فقالت له:

- لا أحتفظ بأرقام الغرباء.

طحنه الارتباك، وفرَّ مسرعًا دون كلمة،ولأن خبرته محدودة في التصرف في مثل هذه المواقف؛ شعر بالكون كلِّه ينهار فوق رأسه، وخرَّ صريعًا لحالة غريبة من مرضٍ نادر، فقَدَ على أثره النطقَ وتجمدت ملامحه.

أخته الكبرى "سمية عبد الناصر "المتزوجة من موظف في الأرصاد الجوية ويعمل في محطة مطار برج العرب ,والتي انتقل إليها حديثًا بعد إغلاق مركز تنبؤات مطار النزهة للتحسينات ، هُرعت سمية إلى المستشفي رغم بُعْد مسكنها في العامرية ورعايتها لثلاثة أطفال،حملت أخاها إلى المستشفي .انْتابَ عنانُ الشكَّ في مسئوليتها بما حلَّ بمصطفى،وحاصرتها عقدةُ ذنبٍ جعلتها غيرَ قادرة على التركيز في بروفات العرض.

ذهبت إليه في عنبره،وواجه ابتسامتها بنظرة خارقة ثاقبة،وكأنه نفض غبار خجله الدائم ,هو يمضغها بنظرته تلك .كان رأيُها أنه شاب دلله الجميع، خالٍ من أيَّة تجربة،ونظرته ليست تعبيرًا عن جرأة بقدر ما هي قلة حيلة تصل حدَّ البلاهة.

قالت له بلهجة حيادية مبطنة بالجفاء:

-لم أكن أدري أنك بهذا الضعف.

انكسرت نظرته الخارقة،فوجدت فرصتها في استكمال الحديث:

- الضعف أسوأ صفة تكرهها المرأة في الرجل.

وشملته بنظرة متسائلة ,وانتظرت خروجه عن صمته المريض،ولكنه ظل يرسل نظرته في كل الاتجاهات.

قالت وهي تودعه وكأنها تنذره:

– سأمر عليك بعد ساعة.

لم تتوقع عنان حفني أن تمتد هذه الساعة لسبع سنوات قبل أن ترى وجه مصطفى عبد الناصر مرة أخرى في ظروف لم تخطر لها ببال.

....

بعد انصرافها من عملها، وفي طريق العودة إلى بيتها، عبرت شارع صفية زغلول بالقرب من سينما الهمبرا .شهدت أتوبيسًا سياحيًّا فاخرًا يتوقف ,ويهبط منه عدد من الفتيات،استوقفتها مجموعة من الكورال والمودلز الذين يُجْرون بروفاتٍ لإحدى الأغنيات التي سيصورها مطرب مشهور على البحر .عندئذٍ ,عاودها الحلم في أن تكون مطربة مشهورة.

** **

بدأتُ عقد بروفات مسرحية أوهام فاوست في الإسكندرية بعيدًا عن صيف القاهرة، وكان لقائي الأول مع عنان حفني في قصر ثقافة الأنفوشي .كان أداؤها لمشهد من فيلم تايتنك يوحي بموهبة ما، وقد حاولتْ تقمُّص أداء كيت وينسلت ,وهي تغني:

My Heart Will Go On:

Every night in my dreams

I feel you ،I see you

كان أداؤها يكسر كل قواعد الدراما . رغم ذلك أيقنت بأنها تمتلك شيئًا تريد أن تعبّر عنه .توقفت عن الغناء، وأطلّت من عيني نظرةٌ قرأتْهَا .

–نعم ,أعرف أنني لا أصلح للتمثيل ..أرى ذلك في عينيك،أنا لست غبيّة أيها المخرج .أنا يا أستاذ أحبُّ الغناء.

قلتلها:

- أنت موهبة، سيكون لكِ دور مارجريت.

اتسعت عيناها , ولمعت ببريق أخَّاذ، وهتفت:

- بجَدّ ؟!
- ......

واصلت أداء دور فاوست على المسرح :

- مفستوفيلس، كان بودّي أن نبقى هنا وقتًا أطول؛ لكن المكان هنا شرير، كما لو لم يكن عند الناس من شاغلٍ ومن عملٍ غيرَ التجسس على خطوات الجار وحركاته، ويصبح المرء مضغةً في الأفواه، مهما يكن سلوكه..

"........

** **

(٣)

دكتورة نورا الطبري

" فور عودتي من أمريكا إلى مصر شعرت بأعراض مرض، نعم ,توجد مساحة بداخلي حدثَ بها ارتباكٌ ما، ربما عدم توازن في تركيز الموَصّلات العصبية في الدماغ .وربما التغيرات الكيميائية والبيولوجية،كان هاجس ما يؤكد لي بأن كلَّ ما أحصيته من أسباب مباشرة تخفي وراءها الأسبابَ الحقيقية لهذا الاكتئاب اللعين،ما يرعبني أن زوجي (عبد الرحمن) يحتل بؤرة هذه الأسباب، أسباب اكتئابي،وحيرتي ,وخوفي , وقلقي،زوجي ..الرجل الوحيد في العالم الذي أعاد لي توازني،واعتبرته وطنًا أسكن فيه،أحتمي في صدرهلأستريح .منذ ليلتنا الأولى معًا ,لاحظت تغيّرًا ملحوظًا،كان إحساسًافي بدايته غائمًا،وكعادتي لم أتجاهلهرغم التغير الطفيف بأن زوجي لم يعُدْ هو الذي تركته وسافرت للحصول على الدكتوراه..نظرته مطفأة ,هاربة ,يكتنفُها شكٌّ رغم ضآلته يقتلني،تضاربت الأفكار ,وارتعد كياني، وهو بين ذراعي .لم يقدر في ليلتنا معًا وبعد غياب أن يروي ظمئي لرجولته .في الصباح ,أخذت "Shower"وأنا أجذب الروب على جسدي ..استقر قراري .

خرجت مسرعة من الحمام، والتقط الهاتف ,وقلتله:

- عبد الرحمن ,سأذهب إلى الجامعة، دكتور عاطف قدَّم عرضًا للعمل في أمريكا.

قال باقتضاب:

- هذا قرارك.

وأغلق الهاتف وكأن صوته قد كسر عظامي ,وهشَّم جزءًا عزيزًا من وجودي .كان ردُّه يؤكد معنًى وحيدًاامرَّ كالعلقم .نصل حاد قاسٍ،رصاصة خارقة .نعم ,قالها زوجي –وهو في عجلة من أمره :أمرك لا يعنيني.

كيف حدث هذا ولماذا حدثّ؟!

عقدت الروب حول جسدي المبلل ,جلست على فوتيل ,تركت كل شيء يتداعى .. جسدي ,أفكاري ,كياني الذي يضغط عليه ضعف لانهائي ,وكأنني أنزلق إلى سابع أرض .أغمضت عيني ,وعبر الظلام ..بزغت المسافة التي اصطنعتها بين وطنين، والمجهول الذي يستقر على جانبِ مسار روايتي يتأهب ليفصل بينهما ..بين أرضي،وحبيبي.

وها هو يخرج من طيات وتلافيف العقل النائم حضرت اللحظة الكئيبة التي تستهل فصلًا جديدًا، انفصلتْ فيه روحانا وباعدت بيننا المسافات،وها هو الحدث الذي كان ينتظرني ويقبض على قلبي، والخواء الذي انزلق عبره، والفراغ الذي يمتد والسيارة تنطلق، لكنّ فارقًا حادًّا قاتلًا بين اللحظتين .في الأولى ,الحضورُ كان على أرضي ,ووطني يملؤني بالغياب .والآن ,أشعر بحضور يقتلني، نعم هذا ما تم .ما كان ينتظرني، قذف بي إلى سجن آخر، أقام زوجي حصونَه ,وأغلق قضبانه ,وذهب.

نشبت الهواجس في عقلي، وفي اللحظة التي توارت فيها هند المصري؛ كانت شمس

ابنتها (روان) تحتل مسافة في كبد السماء، وتسقط بنورها وحرارتها على قلب زوجي،فها هو يضع صورتها على حاسوبه الخاص، تشتعل عينه بألقٍ كلما نظر إليها،كان في البداية يتوارى عندما أقبض عليه متلبسًا بنظرته المتألقة ,ومع الوقت .. لم يُعِرْ مشاعري أدنى التفات.

ساعة ثقيلة قضيتها على الفوتيل، حتى أيقظني رنينُ الموبايل..

- دكتور عاطف.

- ....

- أهلًا بك.

- دكتور جامعة ريتجرز في انتظارك.

** **

(٤)

عبد الرحمن

حتمًا يوجد رابط سري خفي بين شيئين، في لحظة استثنائية يتكشف هذا الخفاء عن حقيقة كامنة، كانت –تلك اللحظة –في غرفتي في المسرح،وأنا أتناول قهوتي . طرقت الباب ودخلت عنانُ بابتسامتها المحببة، قبل دقيقة واحدة 60–ثانية بالتمام –كنت أمعن النظر في صورة روان قيصر التي تحتل شاشة الحاسوب .كان جمالُ الملامحِ قد استقر على هدوء يوحي لي بالكثير،ابتسامة يكتنفها الشجن كأن تجربتها تركت ندوبًا في نظرة العين وملامح الروحِ .بعد ستة أشهر من إغلاق ملف فريق البحث عن ثروة البارون قيصر؛ حاولتُ الاتصال بها عبر **sky pe** أو الـ **face** **Book**"دون جدوى .تشاغلت بإعداد خطة إخراج نص أوهام فاوست .وأعدت الكتابة وتجهيز طريقة الإخراج أكثر من مرة .ولم أستقر على شكل نهائي .فكرت في النجمة الممثلة هند المصري التي توارت عن الأنظار والأضواء، وافتتحتْ دارًا لرعاية الأيتام ومساعدة الأرامل .ورأيت ذلك ختامًا منطقيًّا لمسار روايتها، حتى خبر زواجها من الحاج فرحات أبو العز الملياردير وصاحب شركة **FAZ** للمقاولات؛ كان متسقًا –تمامًا –مع ما آلت إليه الأحداث.

جلست عنان أمامي ,وللحظة سريعة ..انقشع الرابط الخفي عن حقيقة العلاقة بين المرأتين رغم عدم التشابه؛ فوجْهُ روان الذي اكتسب سحنة أمريكية :العيون الخضراء ,والشعر الأشقر ,والوجه المكتسي بحمرة قانية .على العكس ,كانت عنان خمرية اللون ,وعينان سوداوان تشبهان كثيرًا عيون سعاد حسني وخصلات شعرها

الأسود التي تظهر من حجابها،حتى الابتسامتيْن لا علاقة بينهما، والصوت كان بالتأكيد مختلف.

ردّت عني ابتسامة، ومسحت جبيني عندما تذكرت شغفي بالفيمتو ثانية، هذا الزمن الموغل في التفاصيل، وهتفت كلمة "الحضور "في عقلي، نعم.. المرأتان لهما نفس الحضور المحبب إلى نفسي.

عنان، حملني حضورها إلى زمن الأساطير وألف ليلة وليلة، قلت لها مداعبًا ذات مرة: ما الفرق بينك وبين شهر زاد؟

قالت لي :

- الزمن.
- نعم ,أنت شهر زاد هذا الزمن.
- لا أعرف من الحكايات إلا حكاية واحدة، حكايتي..
- لك معي حكايات كثيرة.
- لا تدفعني نحو علاقةٍ محكومٌ عليها بالفشل.

بعد زيارتين لمكتبي استراحت على الأريكة، مددت أصابعي، عبثت بوجهها؛ فقامت منتفضة:

- لم يمسسني رجل .أرجوك .وإلّا..
- وإلّا ماذا؟

– لن تراني مرة أخرى.

قلت مستنكرًا:

- أنت عبيطة؟!

- بالتأكيد ,لا .

أفضى ردُّ فعل ملامحها بأنها ليست كذلك، كانت تؤكد أنها ليست عبيطة، وكان استنكاري لتهديدها لا يعنيها في شيء، فهي امرأة تفهم ماذا تعني نظرة رجل يشتهيها .نعم ,نظرتي لم تكن بريئة، رأيتها مارجريت عشيقة فاوست، ومهدت لأصابعي أن تعبث بوجهها، وهي مهدت لنظرتي بكل ما باحت به من رغبة دفينة . وأدركت بغريزتهاأنني أرغبها، وأوحت بكل تفاصيلها بلغة صامتة –لغة كل اللغات – عن سعادتها وانتشائها .كانت توحي رائحة كل أفعالها بأنها أشرعت كل نوافذها لأقتحم عالمها، وغمرَها اهتمامي في سعادة،وأنا المولع بتفاصيل الأشياء، كان عليَّ أن أمهد لعلاقة على غير ما توقعت، علاقة من نوع جديد .لم أحدد أبعاد لعبتي الجديدة مع هذه البارونة السمراء، كانتطعمًا جديدًا من النساء، عليّ أن أغزل حولها عقدَ شِباك مختلف ,وأمارس حيلًا أخرى .تخيّرت أن أبتعدَ عنها، أمهّد لها أرضًا لتستريح من المناكفة التي أحاصرها بها، تطمئن لصيَّادها الذي يغريها بالوقوع في شباكه باختيارها ورضاها التام .كان الإغراء الذي أمارسه لن ينال رضاها، ولكنه سيرضي غرورها، سيوحي لها بأنها قادرة على الاختيار .بمحض إرادتها، جاءت واستسلمت بأنوثتها لتتحدى رجولتي، ما إن استراحت أمامي بحضورها الأثير حتى قلت لها:

- **يعجبك دور مفستوفليس؟**

قالت بكل أنوثة:

- **يعجبني عندما تتقمصه أنت.**

ابتسمت.

- **أنا شيطان إلى هذا الحد؟!**

حركت هُدْبيْها ردًّا على ابتسامتي ,وقالت:

- **إنه تمثيل.**

نعم،كفانا تمثيلًا .رغبتك واضحة ,نداؤك بأن أجتاز المسافة التي وضعتها بيننا , وأعبث بأصابعي تفاصيلَ وجهك ,بل وأعبث بكل تضاريس الأنثى التي أعادتني إلى مراهقتي الأولى، دعوة صريحة، والتي عشت مثلها تمامًا قبل أكثر من اثنتين وعشرين سنة مع هند المصري،ولم ألب خوفًا على عذريتها ,ويقيني الذي لا يزال بأنها علاقة آثمة .اليوم، في هذه اللحظة ,أدركت بأن بعض الفرص التي تمرُّ لا تعود أبدًا، قُتلت وانْدَثرتوتلاشَت مع زمنها الذي ولّى.

بحكمة رجل قارب الخمسين ,قلت لها:

- **ما هي حكايتك الوحيدة؟**

- **الخوف.**

-....... ؟!

- عنوان حكايتي "الخوف."

في هذا اليوم ,أخرجتْ مكنون صدرها ,ووجعَ قلبِ أنثى صدمتها الحياة بجهامة ووحشية قاسية.

** **

الفصل الثاني

(١)

دكتور جاك أورويل

" أول لقاء بيننا في مكتب أستاذ دكتور عاطف عويس رئيس قسم الإعلام، استقبلني الرجل بحفاوة ,وابتسامة منضبطة ,وتركت لرئيس القسم مهمة الحديث.

قالدكتور عاطف :

– أنتِ مطلوبة على وجه السرعة؛ لجامعة ريتجرز.

– ....

– ستعدّين كورسًا دراسيًّا عن الميديا.

– أمريكا بلد الميديا.

كنت أوجّه كلامي إلى دكتور جاك،الذي قال بلغة عربية وبلهجة مصرية لا تخطئها أذن:

– رسالتك للدكتوراه هي التي رشحتك،نريد أن نرى أنفسنا في عيون الآخرين، وهل نحن كما صورنا مايكل مور في فيلم 9 \ 11، أو في فيلم القناص الأمريكي؟ , وقبلهما فيلم عصابات نيويورك، مجرد مجموعة من القتلة مهما قدمت الدراما من

مبررات؟

قلت له بلهجة آسفة:

– سياستكم أسوأ بكثير.

زمَّ دكتور عاطف شفتيه متحرجًا .

واصل جاك حديثه:

– معك حق .لقد انتصر اليمين المتشدد على أنصار العقلانية والحداثة .وهذا أمر طبيعي أن يرَوْا أمريكا مبعوثة العناية الإلهية لنشر الديموقراطية.

استرسلت مؤيدة وبلهجة ساخرة:

– وتحمل تفويضًا من الله لنشر الديمقراطية في العالم.

أمْعَنَ الرجل بعينيه الفارغتين ,وقال:

– وهنا أيضًا من يحتكر هذا التفويض.

– ردٌّ فعلٍ طبيعي، تفويضٌ مقابلَ تفويض.

ابتسم الرجل ,وقال في ثقة وكأنه وصل إلى مبتغاه:

– بدايةٌ لا بأس بها.

وقفتُ ,وقلت؛ لأنهى اللقاء :

– ممكن أعيد التفكير في الاتفاق؟

قال د/ جاك في ثقة:

– خذي فرصتك..ولنا جلسة أخرى.

قلت باقتضاب:

– فرصة سعيدة.

قال وهو يصافحني ويعيد طلبه بتهديد مُبطّن:

– لا نريد أن نمنح فرصة شرح رسالتك للآخرين.

كنت أرى أن محاضرة واحدة تكفي لأشرح رسالتي،ولكنَّ كورسًا دراسيًّا كاملًا يؤكد أن الموضوع أكبر من رسالة دكتوراه،وأبعد من اهتمامهم بصورتهم في عيون الآخرين.

خرجت من الجامعة إلى شارع بين السرايات، كان الزحام الخانق قد ضغط على أعصابي فور خروجي من الجامعة؛ فحاولت تهدئة نفسي .كانت حياتي مع زوجي في طريقها لفشلٍ محقَّق إن لم أعالج البرود الذي أصابها ,وأنا أصمّ أذني لأخفف التوتر . كانت أصوات السيارات المتراسة، وإطلاق الكلاكسات قد بلغت الذروة .

وضعت سماعة الموبايل في أذني ,وانسابت موسيقى الرحباني مع صوت فيروز .

غالي الدهب غالي وعالي الورد عالــي ياحبيبي يادهب الغالي

كانت مساحة فارغة في وجداني تنتظر هذا الصوت الساحر، كأن عطبًا أصاب قدرتي على التواصل، كانت حالة الجدب العاطفيالتي تدفع بي في النهاية إلى الاهتمام بما لا يستحق،وانتابنيإحساسحثيثبأنني أقترب من مكمن الداء، نعم ..لقد حاصرت

علاقتي بزوجي بتفاصيل صغيرة .فور عودتي من أمريكا، انتابني شعور بالخوف والقلق الشديد على حياتي، ودون أن أدري، شددت قبضتي وحاصرته،أخذت أحصى التفاصيل..أفتشجيوبه ,أشمرائحته،ودونما دليل نمَتْ بذرةُ شكٍّ ضامرة،خوفًا عليه من امرأة أخرى،نمَتْ مثل شجرة شوك سامَّةٍ في رأسي .

عبر دقائق انتظار الانفراج المروري، ومع صوت فيروز غمرني بعض الهدوء، واستعدت بعض المنطق في تحليل ظاهرة البرود والجدب العاطفي التي اكتنفت حياتنا .وعلى الفور،بعد جزء من مليون جزء من الثانية تمددت حالة التداعي الحر "association"واخترق وميض أخّاذ دفعني لتأجيل التفكير في زوجي عبد الرحمن، مع كل شكوكي من اختراق امرأة أخرى حياتي، أعادت الحياة لبذرة الشك اللعينة .نعم ,برود علاقتنا هو إحساس خاص بي، وعليَّ أن أمنح منطق التحليل فرصة، وعبر واقع افتراضي برَّأت زوجي من الشك، وكأن الأمر كله يتعلق بي أنا .كان عنوانًا واضحًا محدّدًا اختصرت به حالة "اضطراب القلق"، شعور يندرج تحت اضطراب ما بعد الصدمة، والذي احتل فصلًا جديدًا في روايتي،لن تبتعد بدايته كثيرًا عن اللقاء مع دكتور جاك في الجامعة .

فور دخولي الشقة، استدعيت زوجي على الهاتف :

- حبيبي ,متى ستعود لي؟

** **

(٢)

روان قيصر

" مع مرور الوقت ,شعرت بأنني مجرد آلة تعمل لحساب الآلة الكبيرة التي تقود العالم، وبكل ما أملك من منصب ورصيد ضخم وعلاقات نافذة، وعمل لا يترك لي لحظة للانفراد بنفسي، كنتأشعر بفراغ..ربما لأنّ كلَّ من يتواجد في دائرتي الخاصة لا يعنيني؛ فأنا أدير جزءًا من إمبراطورية ضخمة تمتد أذرعها في قارات العالم .كلمتي مسموعة ,كلُّ ما أقوله يعتبره هؤلاء أوامرَ واجبة النفاذ، تحولوا مع الوقت إلى آلات، مجرد الضغط على زر يحركهم في الوقت والاتجاه الذي أريد.الفرقة المكلفة بحراستي،ينتابني يقين بأنهم مسوخ بشرية، تم مسخهم ببرامج إلكترونية زوّدت بها عقولهم بعد غسلها تمامًا؛ فأصبحوا مجرد حيوانات أليفة .

هذا الفراغ الذي أعيش بسببه الوحدة لا صديق ولا حبيب ولا زوج ولا ... بشر،و"ماسدجات "أمي "هند المصري "التي تصلني بين الحين والآخر؛ مع الوقت صارت كلمات روتينية فارغة من أي احساس حقيقي،وكأن العلاقات القديمة التي كانت؛ علاقات عابرة، وعبر لحظات قصيرة .وأنا أتأهب للنوم تهاجمني تفاصيل العمل اليومي المرهق، حاولت كثيرًا التخلصَ منها بالعودة إلى الماضي البعيد دون جدوى ,وكأنني أصِبْت بفقدان ذاكرة يحول دون استحضار الماضي.

مع الوقت ,أدركت أن هذا الشعور قد حصَّن محاولات كثيرة لاختراقي، منها ما كان

واضحًا ..مباشرًا ,عن طريق رشوة مالية أو تولي منصب كبير وصل إلى عرضٍ مغرٍي بتولي عمدة إحدى ولايات الغرب الأمريكي عن طريق انتخابات سيتم إدارتها بحنكة لضمان فوزي، وآخر بمنصب في البيت الأبيض ضمن الفريق الاقتصادي للرئيس،ورفضت كلَّ هذه العروض.

قلت لديفيد بيك صديقي القديم الذي أنتظر دوره لزيارتي لأسبوعين:

– معي من المال ما يكفي ,ومنصبي الحالي يرضي غروري تمامًا.

– فكّري في العرض.

– لا وقت عندي لتفكير في أمور خارج نطاق عملي.

– هذا المنصب يحميكِ من تهديدات قد تُشَن عليكِ.

– أعتقد أني محصَّنة ضد أي تهديد.

مددت يدي لأنهى اللقاء،وقلت وهو يصافحني:

– خذ ثمنَ رسالتك التي وصلت لي حالًا مِمّن أرسلك.

قال الرجلوقد احتقنت ملامحه على غير المتوقع :

– لم أتوقع أن تهينيني إلى هذا الحد.

– تفضل.

– احترسي؛ فهم يتربصون بكِ .

خرج ديفيد بيك، كنت قد عزمت على قطع علاقتي بالماضي، وساعدني عملي المتواصل، رغم لحظات الحنين إلى ذكريات عزيزة على نفسي، كان ما حدث لأبي الملياردير "أحمد قيصر ,"وموته بطريقة وحشية على يد المافيا وعصابات الجريمة المنظمة، اعتبرت ذلك خطًّا فاصلًا،لم أشأ أن أتذكر طريقة اغتياله البشعة، اعتبرتها وهمًا،فيلمًا تم تصويره بحرفية عالية،ومن مات بطلقة رصاص مباشرة من المسافة صفرليس أبي،إنه مسخ ..دوبلير قام بالمشهد الخطر في فيلم , وتمبيعهلقنواتمثلناشيونالجغرافيك.

فور انصراف ديفيد ,انفردت بنفسي، وفكّرت في أسباب الزيارة ,ومن يكون وراء العرض المغري؟!

دخلت الآنسة جينفر مديرة مكتبي ,وقالت:

- موعد الطائرة بعد نصف ساعة.

** **

(٣)

عنان حفني ندا

" أمي عفاف همام الأسواني تعتز بمهنتها كرئيسة حكيمات في المستشفي الجامعي، ونالت احترام رؤسائها وحبَّ زميلاتها، حتى المرضى كانوا يرَوْنها حالةً نادرة؛ فهي ترى كلَّ مريض يخصها ,وتعتبره قريبًا أو صديقًا أو جارًا.

قالت عنان لي:

- أمي ملاك.
- ملاك رحمة.
- حقيقي .لو عرفتها ستحبها.
- أكيد، والدليل أني أحببت ابنتها.

ردّت ابتسامتها المختصرة والسريعة، وغمغمت لتقطع المعنى الذي قد يتداعى:

- مرسي.

...،

" أمي ..لا أستطيع ولا أريد أن أعصى لها أمرًا؛ فهي ليست أمًّا عادية؛ هي أخت وصديقة ولا أخفي عنها شيئًا .تحدثت لها عنك كثيرًا، قلت إنك صورة أخرى منها : حَنون وفنّان ,وإنسان،ورجل نادر."

ما لم تقله،أنها تخشى من الوقوع في حبي،شيء ما يمنعها،يحول بينها وبين المغامرة.نعم ,قالت..لا تدفعني نحو علاقة محكوم عليها بالفشل، جملتها تفتح الأجواء على تفسيرات كثيرة، ربما تريد أن تكون صورة من أمهاعفاف همام ,والتي بالتأكيد تمنعها أخلاقها من سرقة رجل من زوجته،وتكون سببًا في تحطيم امرأة أخرى .نعم ,

كما قال فاوست" *..لا يمكن للحياة أن تستقيم في بحر من الأخطاء.وقد تعلمت حكمة أن تبرير أي خطأ لن يكون إلا بارتكاب المزيد من الأخطاء، أهونها الكذب"*

اصطحبتها ,وسرنا على كوبري ستانلي، والبحر يمتد بزرقة لا نهائية، وهي تواصل فصول حكايتها الأولى:

-" أبي حفني ندا ..مات بعد معاناة مع مرض الكُلى، وتجلت مأساته وقت جلسات الغسيل ثلاث مرات أسبوعيًّا، كان يعود للبيت جثة هامدة،أمي التي أحبته واعتبرت صبرها على ما حلّ به اختبارًا من الله لإيمانها،والصبر على مصيبتها مع رجل أحبته ودلّلها وتعلق بها، وقبل شهرين من وفاته قام بوضع البوتاجاز في غرفة النوم حتى لا تغيب عنه لحظة،عندما شعرت بمدى ألمه وهو ينتظرها كلَّ يوم عائدة من عملها،والفرح الذي يغمره بمجرد دخولها ,طلبت أجازة مفتوحة، وضمت وجهه بين كفيها ,وقالت" *..صبر جميل، مرضك لا تحسبه شرًّا ..هو خير،أرجوك وأنت في الجنة ..لا تتركني ,تشفع لي ,ولا ترضى بحور العين زوجة.*

برقت عيناه بالدموع ,وضمها إليه,وقال :

- روحي ستظل معلقة بك.

ومست ملامح عنان سحابةٌ من الشجن ,وقالت:

- حبهما نادر؛ لأنهما كانا من عمله نادرة.

- أكيد .وأنتِ بالفعل عملة نادرة.

وقفت أمامي ,كانت تشعر بأنني أزيل كل المسافات بيننا، وهذه الليلة لم تهرب أو تتراجع وتعلن اعترافها.

قالت:

- حكايتي قبل أن أولَدَغريبةٌ جدًّا،ولدت في بغداد ,وصواريخ كروز وتوما هوك تدُكُّ العاصمة العراقية ,وأمي مستلقية على سريرها لا تتحرك كما أمرها الطبيب، والقاذفات تراها تسقط كل لحظة حول المبنى الذي تقيم فيه.

انتَظَرت الموت، والخطر المحدق بها يقترب كل لحظة .ومع ذلك ,لم يكن يعنيها كأنها ألفَتْه .كانت ترتل آيات القرآن التي حفظته على يد أبيها الشيخ "همام الأسواني "المؤذن ومقيم الشعائر في مسجد سيدي المرسى أبو العباس .عندما حانت لحظة ولادتي،

قال أبي :

- لم يكن معنا أحد ,كنتُ أنا وأمك فقط .يومها ,هدأ القصف قليلًا، كان صوت الانفجارات يصل من أحياء بعيدة، وعلى فترات متباعدة،وحملت

الماء الساخن والقطن والمطهّر، وبين الصرخات ..كانت أمك تشير لي بما أفعله.

لحظة ولادتك ومع أول صرخة لك ,مرَّ صاروخ مشتعل سقط على بعد أمتار،كان الانفجار مروّعًا ,وتطايرت حجارة وزجاج على بلكونة الغرفة،وأمك تضمك .انشغلت بمسح عرقها بقطعة شاش –وهي تغالب ضعفها ..قالت :

- أذن في أذنها.

بعد الولادة ,خرج أبي من الغرفة ليفاجأ بانهيار كلّ مباني المنطقة، سُوِّيت بالأرض تمامًا ,وظلت النيران مشتعلة لأيام،إلا العمارة التي ولدت فيها،في الدور العاشر . وأعتقد لظروف ولادتي أشعر بالخوف من السقوط،أنا يا أستاذ مصابة بفوبيا، خوف مرضي من الأماكن العالية ,وكأنني وأنا طفلة كنت أدرك وأعي،بل وأرى ..دمارَ كلِّ العمارات إلا العمارة الشاهقة التي ولدت فيها، بماذا تسمِّي هذاّ؟!نعم لي نصيب أن أعيش وأكبر وأعود مع أسرتي إلى مصر ,وألتقي بك،وهذا ليس صدفة، بالتأكيد ليس صدفة، لم يُكتَب لي ولأسرتي البقاء لمجرد اللقاء بك؛ لكِي تفتح أمامي طريق الفن والشهرة،أحيانًا أرى أني خُلقت من الأساس لرسالة، ما هي؟ !لا أعرف.

احتويتها بنظرة دافئة، وامتلأتُ في هذه اللحظة بانجذاب تام إليها .لم يكن انجذابَ رجل لامرأة؛بلكان انجذاب أب لابنة وجدها صدفةً ,جاءت إليه عبر تيار الحياة والأحداث، مشاعري في هذه اللحظة تختلف تمامًا عن مشاعري نحو روان قيصر، التي بدت لعين خيالي امرأة شهية، تحمل إغراءً يفوق إغراء أمها هند المصري،رفعت يدي نحو وجهها ..لكنها توقفت، استقرت أصابعي محملة بالكثير من الحيرة ..لا ..

لا تخافي .لن أعبث بوجهكِ أو أفكر مجرد تفكير في لمس جسدك الذي –يقينًا – يغمرني الآن بأنه محرم عليَّ الاقتراب منه،هذا الحضور واليقين الذي ظهر جليًّا عبر نظرتي ,وقرأتْه عنان،وفهمت الرسالة،وبدأ الاطمئنان والرضا على ملامحها يوقظان الحضور العميق لروان قيصر،حضور الأنثى الطاغية ,القادرة على الإطاحة بقدرتي على إلغائها من الأحداث ,فهي حاضرة وبقوة ,وبشروطها.

قلت لعنان وأنا أستعيد كلمات مفستوفيلبس " *..في أنبل الأمور التي نتلقاها إذا وصلنا إلى الخير في هذا العالم؛ندرك أنه لا يزيد عن وهم"*

فتحت أصابعي العالقة أمام وجهها، وقالت في يقين:

- الخير موجود،ليس وهمًا ,صدقني؛ والدليل ما أقرأه في عينيك.
- ماذا قرأت؟
- ما عجزت عن قراءته ..وأنا طفلة في عين أبي.
- كنت تحبينه؟
- كما أحبك الآن.

للمرة الثانية ,تفصح الحقيقة الكامنة عن بعض وجوهها،فلم يكن دفء حضور عنان الأسرإلا تمهيدًا للحواس؛ لتفتح نوافذها وأبوابها لاستقبال البارونة روان قيصر.

وصل رنين الموبايل ,وما إن فتحته حتى كان صوت زوجتي يهتف : حبيبي .

** **

(٤)

نورا الطبري

قالت نورا:

- **حبيبي ,متي ستعود لي؟أنا أشتاق إليك كثيرًا ,غيابك يقتلني.**
- **بعد أسبوعين سأجد فرصة لنلتقي.**

" أردت أن أهرب من التفكير فيما آلت إليه علاقتي مع زوجي..وحياتي المهددة من تلك الأخطار الظاهرة أو الغير مباشرة .كنت أرجئالتفكير في الخطر المحدق؛ لأمنح نفسي فرصة للهروب من سيطرة القلق على أعصابي ،استرجعت كلمات دكتور جاك ولهجته وكأنه خرج من إحدى الحارات المصرية القديمة ممازاد من مساحة الشك حتى احتلَّ بقعة سحرية في الوجود الافتراضي، وما عليّ إلا أن أملك مسارًا آخرَ ..حتمًا يصل بى إلى شاطئ أمان .وللمفارقة ,لم يكن هذا عبر السفر إلى أمريكا .

"..........

عبد الرحمن الذي سافر إلى الإسكندرية لتجهيز عرضه المسرحي للموسم الصيفي وتركها نهبًا للهواجس والقلق .لم تشعر في هذه اللحظة بأنها ليست في حاجة إليه،ليس لوجوده في حياتها، ولكنها حتمًا في حاجة ليساعدها على الاختيار .

استقلت سيارتها وانطلقت إلى الإسكندرية؛لتفاجئه بحضورها وتعلنه بقرارها ..نعم ,أنا قبلت عرض دكتور جاك ,وبعد أيام قليلة سأكون في أمريكا.

** **

(٥)

روان قيصر

"لحظة بلا أفق وكأنها العدم ما إن وصلت إلى مطار (McCarran International Airport)، في ضاحية برادايس، قادتني جنيفر مع حارسي الخاص نحو سيارة " VIB "لتحملني إلى سلم الطائرة،كانت لحظة الخواء تحيطني كبالون مهدد بالانفجار،لم يستطع حشد الإعلاميين والمصورين الذين طاردوني فور وصولي المطار أن يعبروا بي تلك اللحظة،لم أعِرِ الصخب الذي أشاعوه التفاتًا،كنت أمارس السياسة التي اتَّبعتها منذ بدايتي في إدارة أعمال مؤسسة البارون، سياسةٌ أكثر تحفظًا وانضباطًا .تركت مهمة الرد على بعض المقالات التي تتهمني بالغرور، وتشير بطرف خفي إلى عدم مشروعية الثروة التي أديرهاإلى الجهاز الإعلامي الخاص بالمؤسسة .كانت تظهر هذه المقالات وتختفي،وتشير جنيفر إليها في سطرين أو أقل في تقريرها الصباحي الذي تضعه على مكتبي لمجرد أن أكون على علم بها.

وأنا أقترب من البوابة الإلكترونية ,تأهب أمن المطار لمنع الإعلاميين من اجتياز الخط الأمني ,وانتبهت إلى وجود مذيعة لإحدى القنوات الفضائيةتنقل على الهواء مباشرة تفاصيلَ رحلتي منذ دخولي المطار وحتى وصولي إلى مدرج الطائرة، وأنا أعبر

البوابة الإلكترونية، بعد خطوتين زلَّت قدمي ,وخلال ثوانٍ معدودة ,انهالت خلالها فلاشات التصوير بشكل جنوني.

قالت جنيفر في تقريرها الذي وضعته على مكتبي، وقرأته بعد عودتي ..بأنه تم التقاط أربعة آلاف صورة ليوأنا أستعيد توازني .كانت المذيعة تصرخ وهي تشير بأصابع اتهام لا أعرف فحواه، هذا الاتهام استحضر وجودي بكثافة،جعلني أتأهب لصفع صحفي كانت علامات الجنون والخبل باديةً عليه .تخطى حائط الأمن ووقف أمامي مباشرة , وراح يصرخ :منذ متى تتعاطين المارجوانا؟

أبعده الأمن،وتوجهت نحو المذيعة، تناولت الميكروفون وقلت :

- أنا لست مدمنة، ولا أتناول مسكرات، ولا أدخن.

انقشعت اللحظة ,وأدركني إحساس عارم بخطر يتأهب لمحاصرتي ,والطائرة تتأهب للإقلاع .كان اشتعال حريق بدأ يستعر، والبالون المهدد بالانفجار ..انفجر مع أزيزها،كنت أبدأ بأسوأ السيناريوهات التي خشيت أن تحدث لي، وقد أعدت في الخفاء للإطاحة بالبارون .وعلى الفور ,استحضرت ما قاله ديفيد بيك..احترسي؛ إنهم يتربصون بك .هاجمتني الشكوك بضراوة .نعم ,أنا أعيش في بلد لا مكان فيها للصدفة،زلة قدمي كانت مُدَبرة، التواجد الإعلامي الكثيف يؤكد ذلك .ونصيحة ديفيد تفسر الكثيرَ مما حدث وما يُدبَّر في الخفاء .ورغم ذلك ,ظلت أفكاري مشوشة إلى حد بعيد،المؤامرة التي تديرها المافيا، والتي تتوغل مثل الأوردة ..مثل ألياف مظلمة في أنفاق سرية تحيط بالعالم،وها هم يسعون لتشويهي وابتزازي قبل الإجهاز عليَّ . وأنا أتابع السحب التي تحيط بالطائرة ,تذكرت المحاولاتِ الخفية لتوريطي في بعض

الأعمال القذرة "business Dirty" والتي قدمت تحت غطاء ماكر .فقد طلب مني التبرع لأحد المراكز الإسلامية ,ولأنني أدرك أنه عند أي حادث عارض؛سيكون مدَبرًا بنسبة كبيرة؛ لتبدأ اللوبيّات الصهيونية في توجيه تهم الإرهاب إلى من يموّل هذه العمليات .كنت أدرك أنني أعيش في مجتمع يجبر الناس على أن يكون الدين شأنًا خاصًّا جدًّا،وحافظت على ذلك بشكل متطرف.

فكرت في الاتصال بديفيد بيك عن طريق جنيفر ,ولكن الشكوك الضخمة التي حاصرتني ,ومحاولاتي المستميتة في ترتيب أفكاري المشوشة؛ دفعتني إلى التريث . فلا بد أن أستعيد توازني قبل جلسات المؤتمر .

فتحت الحاسوب ,وشرعت في مراجعة كلمتي التي سألقيها أمام حشد من أباطرة المال والتجارة في العالم .

** **

كانت أول بروفة على المسرح ,صعدت وحولي حشد من الملائكة متقمصًا دور مفستوفيلس ,قلت لهم:

" – أمور البشر سيئة حقًّا ,هل تعرفون يا ملائكتي أن بني الإنسان يثيرون إشفاقي على أيامهم الحافلة بالشكوى،حتى أني لا أود أنا الآخر أن أعذبهم ,هؤلاءمساكين "

** **

(٦)

عفاف همام

أصرت عنان على اصطحابي لزيارتها،قالت إن أمها في شوق إلى رؤيتك لحديثي الدائم والمستمر عنك .كانت دوافع لا أعرفها تدفعني إلى خوض تجربة إنسانية جديدة .وقد أثارت عنان بحكايتها لي اهتمامي ..علاقة الحب النادرة التي ربطت بين الأم عفاف همام والأب حفني ندا وظروف ولادتها وسط القصف الأمريكي لبغداد، حتى سوَّى حي الأعظمية بالأرض ,ولم يبق إلا العمارة التي ولدت بها في الدور العاشر،وكأن الصواريخ والطائرات وهي تلقي حممَها المدمِّرة؛ كانت تراهن على بقاء هذا البناء ربما ليكون شاخصًا للتنشين عن بُعد .وها هي قطع الأسطول الأمريكي "السادس والخامس "تتراصّ ,وتتأهب لبدء السباق من المياه الدولية، ومن سيصيب الهدف له جائزة كبرى.

** **

رددت كلمتي على لسان مفستوفيلس:

" إني لا أود أنا الآخر أن أعذبهم ,هؤلاءالمساكين،لقد دفع التطلع الإنسان إلى ما هو أبعد،وفي سعيه ارْتكب بحماقته كلَّ الجرائم .مجرد قبوله بيعَ روحه التي لا يمتلكها إلى الشيطان .وخاض حروبه عندما امتلك مقدرة أرادت الخير ,ولكنه فعل الشر عن سبق وإصرار .وفي التوّ ,يتبرأ منه الشيطان ويصرخ بصوت عال :أنا جزء

من تلك القوة التي تريد الشر دائمًا وتفعل الخير دائمًا،أنا جزء من الظلمة التي ولدت النور"

** **

وأنا في الطريق إلى كليوباطرة،كنت أتخلص من أجواء بروفا "أوهام فاوست "كنت أكوّن إدراكًا جديدًا، لم أشأ أن أضع افتراضًا قبل التجربة .وطوال إعدادي للنص , كانت تترسخ مقولة أثبتتها الأحداث ..نعم ,منذ البداية تحاصر قوى الشر الإنسان، وتقطع أمامه الطريق إلى الخير، ولكنه دومًا سيظل في محاولة الانتصار للخير.

قالت عنان وهي تقودني عبر شارع هيبيتا.

- رغم أن أمي صعيدية ,فقد وافقت على زيارة رجل إلى بيتنا؛لأنها تثق فيَّ ,وتثق في كل إنسان أحترمه.

- رجل غريب.

- صعب أن نثق في الغرباء،أنت لس تغريبًا.

اصطحبتني إلى داخل البيت، وصعدنا السلم إلى الشقة في الدور الثالث .واصلت حديثها" ..هذا البيت أخذ تحويشة العمر،وثمن غربة أبي وأمي بعد رفد أبى من شركة النحاس بمحرم بك لاستنفاذ رصيد أجازاته، افتتح أستديو تصوير في الدور الأرضي، ولم يدم عمله طويلًا؛ فبعد عامين ثقل عليه المرض، وتحملت أمي كل شيء.

فُتح الباب ,وأطلت عفاف بوجهها المشرق وابتسامتها الواسعة، قادتني عبر الصالة للجلوس وهي تواصل ترحيبها بي:

- عنان فتحَتْ قلبي لكَ قبل أن أراك.
- هي إنسانة جميلة ,ربنا يبارك لك فيها.

أشارت عنان لتقطع حوار المجاملات، وقالت:

- دماغي طالبة شايقبلالغدا .عندك اعتراض يا أستاذ تشرب معي شاي مظبوط.
- لا اعتراض.

انصرفت عنان نحو المطبخ ,وجلست عفاف قبالتي ,وقالت في امتنان :

- أشكرك كثيرًا على تلبية الدعوة.
- أشكرك أنتِ .وأشكر الصدفة الجميلة التي عرّفتني بعنان وبحضرتك.
- لقد طلبت زيارتك لأطلب منك ,بل أرجو منك رجاءً.

استرحت بذراعي على جانبي المقعد ,وتأهبت لثوان معدودة فقد كانت احتمالات رجاء محدودة،لا تخرج عن كلمات مثل..ابنتي الوحيدة حافظ عليها ,هي أمانة عندك.

واستدركت حديثها:

- نحن في زمن لم يعد فيه أمان.

- عندك حق.

- قلقي على ابنتي دائم ومستمر ,حتى وهي أمام عيني.

- اطمئني تمامًا؛عنان بنت عاقلة.

- لن يجعلني أطمئن إلا شيء واحد.

- ....

- أقنعها بالابتعاد عن طريق الفن.

- ولكنها موهوبة بالفعل ,صوتها مع بعض التمرينات سيكون له مستقبل.

دخلت عنان بالشاي ,وقالت لي:

- قل لها يا أستاذ،ممكن أكون مطربة تكسر الدنيا.

تعلقت عفاف بوجهي بنظرة رجاء ,وكأنها مقدمة على كارثة لو تركت ابنتها لهذا الوسط الذي يبتلع بوهجه كلَّ من يقترب منه.

وجدتني أقدّر قلق الأم وخوفها على ابنتها ,واحتواني نفس القلق والخوف على فتاة يغمرني يقين ..لو قُدّر لي أن أنجب فتاة؛ فلن تكون غير هذه الفتاة التي تجلس أمامي بحضورها ونظرات الرضا والاطمئنان المشوبة ببعض الرجاء للوقوف إلى جوارها .ولكن ,انتبهت لجانب خفي لحقيقة هذه النظرات .يعطي الرضا معنى , وللاطْمئنان سببًا،وهيأت وسيلة للاقتراب من تلك الحقيقة.

قلت لعنان:

- هل تثقين فيَّ؟
- بالتأكيد ,أثق فيك أكثر مما تتصور.
- أمك عندها حقّ.

اتسعت عيناها، وإن عجزت عن إخفاء ابتسامتها الدائمة وقالت:

- طبعًا ,ولكن حبي للغناء والفن والموسيقي.!
- سيظل حبك لهم كما هو.
- أمي تريد مني دفنَ ما أراه في نفسي موهبة حقيقية.

هنا تدخلت عفاف ,وقالت لابنتها:

- الوسط الفني حقل ألغام يا حبيبتي .وأنتِ كلُّ ما طلعت به من الدنيا.

أشرت لها:

- لحظة لو سمحت.

التزمت عفاف الصمت وهي تستمع إلى سؤالي:

- لماذا لا تتركيها تخوض التجربة؟
- آسفة ,رغم احترامي وتقديري لك؛ هذا الوسط بكل الأضواء والشهرة لا يناسب ابنتي ,وإذا سارت فيه سأفقدها؛ لأنه سيبتلعها.
- هل يُطَمئِنُك لو قلت لك ..سأكون إلى جوارها ,سأبذل كل جهدي في حمايتها ,ولن أتركها؟.

- إلى متى؟!

كانت الهواجس التي تحاصر قلب عفاف همام محقّة فيها، نعم ..إلى متى ستكون ابنتها في حمايتي؟ وما الذي يضمن الوفاء بهذا الوعد؟ كانت دوافع خوفي تجربة اعتبار عنان ابنة لي، تجربةً محكوم عليها بالفشل؛ فلن تصمد أمام إغراءات ستنحرف عن هذا الاعتبار نحو علاقة طبيعية بين رجل وامرأة حتمًا سيحين أوانها.

كم أنت فنان مثالي يا عبد الرحمن .!ما الذي تملكه لتخاطر به وتخوض تجربة جديدة مع فتاة ..الحياةُ أمامها .أمّا أنت أيها الرجل الخمسيني والذي استنفذتك العديدُ من التجارب الفاشلة ,ومناطحة الصخر؛ ماذا تريد أيها الرجل المسكين؟

تعلقت نظرة المرأة بوجهي .كانت تنتظر إجابة على سؤالها ..إلى متى؟!

قلت لها:

- مادامت عنان معي ستكون في حمايتي.

مسّت ملامحها ,وسألتني:

- بأي صفة؟

غمغمت عنان بارتباك:

- ماما!

استرسلت عفاف حديثَها:

- آسفة يا أستاذ .لكن الصراحة واجبة.

- معك حق.
- أنا موافقة تعمل معك في المسرحية ,لكن بشرطين.
- تحت أمرك.
- رجلي على رجلها.
- والشرط الثاني؟
- لن تسافر إلى القاهرة تحت أي ظرف.

التفتُّ نحو عنان ,وقلت:

- أمك عندها حق.

** **

الفصل الثالث

(١)

نورا الطبري

.كان الشعور الذي اكتنفها بأنها في حاجة إلى الاستقلال بقرارها بقدر حاجتها إلى وجود عبد الرحمن في حياتها، زوجها وحبيبها ,ورجلها القادر على إشباع أنوثتها , لن يكون لها إلا بفك الحصار عنه؛ فهو فنان تقتله القيود حتى ممن يحبونه .

** **

"   أردتُ ليلة استثنائية أستريح فيها من الأخطار المحدقة، ولم يكن تجاهلها حلًّا يريح أعصابي، ولكنه حلٌّ مؤقتٌ، يهيئ فرصة لالتقاط الأنفاس عبر ساحة الوجود الافتراضي الذي اصطنعته، والخريطة التي شكلت تضاريسها على عيني .كنت في هذه الليلة أتمسك بفرصتي الأخيرة في البقاء ,رافضة الإذعان لهزيمة تلوح في الأفق .في الإسكندرية مررت على بقايا قصر سباهي على كورنيش ستانلي، شعرت برجفة؛ فقد كانت أطلال حياتي ماثلة أمامي، ولكن عقدت العزم على ترميمها . قصدت شقتي في أبو هيف .ملأت صدري بالهواء النقي .وأنا أسير على الكورنيش، كنت أسعى ليشاركني عبد الرحمن وجودي الافتراضي ..الاستثنائي، ليلةً نتخلص

فيها من شوائب وعثرات اعترضت مسيرتنا، نقهر هذا اليقين اللعين .نعم ,لم تستنفذ علاقتنا رصيدَها ,كنت أتحداه وهو القابع أمامي يغلق مساراتي الحقيقية ,ويرغمني على السير نحو نهايتي.

وفور دخولي الشقة ,هالني كم الفوضى المنتشرة في كل مكان، اتصلت بأمن العمارة وطلبت على الفور استدعاء خادمة"

ساعدت الأجواء التي هيأتها للحضور .وأنا أرى لحظة الغروب والبحر الممتد لوحة ساحرة، وكأن الطبيعة أرادت أن تشاركني لحظتي الاستثنائية .استرحت على فوتيل في الشرفة المفتوحة نحو الأفق ,واستكمالًا للوحة ضغطت على زرّ الموبايل؛ فانساب صوت أم كلثوم هادئًا، شجيًّا، ورائعًا...

هـذه لـيلتي وحـلم حـياتي

بين ماض من الــزمان وآت

أغمضت عيني لثوان معدودة ,وربما لدقائق قبل أن أراه أمامي يشملني بنظرته القديمة ,نظرتنا الأولى ,كم كانت معبرة ..حانية .كان يبحث في وجهي عن معنًى تائهٍ ,فكرة تراوده .وعلى الفور ,عانقته ..ضممته بين ذراعي؛ لأقول له كل شيء . أقول له كم أنا في حاجة إليك، أنوثتي في شوق هائل ..عارم إلى الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يرضيها، يعشقها ..ويروي ظمأها .عندما ربَتَ على ظهري لأفك ذراعي التي تقبض عليه ,همست له ضاحكة ..لا ,أنت تطلب المستحيل، ضمني إليك ..أكثر".....

أرادت أن تعالج الضغط الراسخ على أعصابها، وبات وجودها.. حضورها الافتراضي واقعًا ممتعًا، ورجلها الثري في العطاء يهبها ما حُرمت منه .عالج العطب الذي أصاب قدرتها على التواصل العاطفي .وأمسكت بكل كيانها لحظة العشق ,وهزَّت زخات التواصل حقلَ الجدب العاطفي؛ فأينعت زهورُ الحب وصدحت بأريجها ..أكثر .. أكثر.

نادر إلى حد بعيد العطاءُ السخي للحياة، عندما تأتيك في لحظة الاحتياج ..لحظة الظمأ الحقيقي.

ضمتنا المائدة العامرة بالسمك والجمبري بكل أنواعه وأحجامه.

قلت لعبد الرحمن:

- لن تترك على السفرة ذيل سمكة.
- أمرك.

ربت على يده في رفق، وأنا أعد له قطع السمك في طبق ,وقلت :

- وصلت للبروفة الجِنرَال؟
- ما زلت في البداية، لم يجهدني نص مثل هذا النص.
- ....
- ....

في ليلة واحدة ضممته إليَّ مرات عدة، وفي إحداها قلت له:

- سأسافر إلى أمريكا.

تأمل عيني في دفء ,ثم قال:

- عرض الجامعة يروق لكِ؟

وأنا أمسد تفاصيل وجهه بأصابعي:

- نعم .. سيستغرق الكورس أربعة أشهر، انتَهِ من عرضك ,والْحَق بي ستجدني أنتظرك على نار .

قبّل أصابعي ,التي استقرت على شفتيه:

- موافق ,لكن فكّري جيدًا.
- عقلي شاطَ من كثرة التفكير قبل أن أحضر إلى الإسكندرية.

وكأنني أردت قطع طريق التراجع إلى ذات البؤرة الساخنة التي أرهقت أعصابي، وأغلقت كل الأفق ,ودفعتني إلى التحايل للوصول عبر مسارات سرية إلى رغبتي، وها هو زوجي بين أحضاني أنهل من رحيقه بكل حب ولذة، وكأنني أفك طلاسم الأسرار التي تقبع في قرار نفسه ..ونفسي، جوهر معنى العطاء بلا حدود.

أشرقت الشمس دون أن ندري بعد ليلتنا الاستثنائية .كان عليّ أن أحجز تذكرة السفر إلى أمريكا التي ستقلع من مطار برج العرب في الساعة العاشرة من مساء اليوم، ووافق زوجي على تحديدي لإقامته حتى يحين موعد السفر، جاءتني الموافقة

على موقع شركة مصر للطيران، طبعتُ التذكرة، وشرعت مع عبد الرحمن في تجهيز حقائبي، وبكل إشارة ..وكلمة ..ولمسة؛ كان يؤكد لي بأنه سيفتقدني، وأرد له معتذرة ..حبيبي ,كما قلت لك عبر رسائلي القديمة ,إن المسافات الكبيرة بيني وبينك تزيدني قربًا منك .نعم ,ستكون معي لن تفارقني للحظة واحدة.

انطلقت بنا السيارة، يكتنفني خوف، تزداد وطأته باقتراب لحظة الوداع .في صالة السفر ,تركت العنان لدموعي .لم أمنعها ,كنت أريد أن تسيل معها أوجاعي وهواجسي ,وتوتري .وتخرج معها الرواسب الرديئة التي تناسيت إزالتها .كنت أرى ابتسامته من خلال دموعي وكأنه يدرك الراحة والرضا الذي يغمرني، أخرج منديله ومسح خدودي وهو يقول:

- موعد إقلاع الطائرة بعد عشر دقائق.

حمل الحقائب على العربة ,ودفعها معي نحو ضابط الجوازات الذي اطّلع على التأشيرة والتذكرة ,وأشار لي بالدخول .وضع عبد الرحمن الحقائبَ على السير المتحرك .وأنا أقبّله القبلةَ الخيرة ,قلت له:

- لماذا طلبت مني التفكير جيدًا قبل السفر؟

** **

(٢)

هند المصري

" .... حاولت كثيرًا تقليمَ فروعها لتظل إلى جوارك، ولكنها تمردت على محاولاتك للسيطرة، وصارت شجرة هائلة، أخذت من الدنيا ما أردت ..المال والشهرة، ولكنني لم أرتو أبدًا، لم أشعر بالشبع، وسوس شيطاني في أذني بأنك الوحيد القادر على إشباعي، وحتى الآن يوسوس لي بأنني سأظل على حرماني منك . نعم ,عندي كل شيء ولكن لم أشبع .عندي كل الكنوز وأنتظر اللحظة التي أستمتع فيها بما حُرمت منه في أمان وهدوء .ويبدو أنني سأظل أنتظر" ..

هند المصري، البلورة السحرية حسبت مع الوقت أنها فقدت سحرها، تمثلت لي مثل ساحرات الغابة اللائي قطعن الطريق على ماكبث في رائعة وليم شكسبير , وأوعزت له بقتل الملك دانكان ليصير ملكًا، عندما رأيت صورتها في إحدى المجلات هالني كمٌّ التغير الذي آلت إليه، بدت بحالة بائسة، انتشرت التجاعيد على الوجه ,وحوَّلته إلى لحاء شجرة عجوز، فقد أنهكته عمليات التجميل المتكررة . كان ذلك سببًا مقنعًا لقطع التواصل معها، أردت أن أحتفظ بصورتها القديمة ..صورة

الحبيبة التي شغلت مساحة من إبداعي، وكانت ركنًا أساسيًّا، وعزيزًا، لم أشأ أن أفسده بالحقيقة التي صارت إليها، ولم يكن ذلك السبب الوحيد؛ كنت أخشى أن أرى نفسي عبر صورتها وأعترف بالحقيقة .لقد تجاوزنا الزمن، وصار جزءًا كبيرًا من الحياة وراءنا، ماض بعيد.

في طريق العودة من مطار برج العرب ,تداعت الأفكار، تداخلت بشكل كبير . والعرض المسرحي الذي أعدّه تقافزت شخصياته أمام عيني، واتضحت أفكارها في رأسي، كانت فكرة العرض المسرحي تنطلق بشكل سرطاني آلاف الأفكار تبدو بلا رابط، وزوجتي تردد كلمات مفستوفيلس، على يقين من أن حقيقة الحب راسخة رابضة في قلبي ووجودي، كانت بليلتنا التي وضعت عنوانًا جديرًا بها في يومياتها "التي قرأتها فيما بعد ,وأعددتها للنشر "بالليلة الاستثنائية، لم تتحسب لدرجات وعرة، وميدان بالغ الغرابة .وفي النهاية، كانت نورا هي الرابط بين كلِّ هذه الأفكار، وتأكد لي أنه لم يوجد إنسان على هذا الكوكب يفهمني مثلها .وفي اللحظات الحرجة التي أبحث فيها عمّن تروي ظمئي، وتريحني ..فجأة ,انتابني خوف عليها عندما أوشكت لحظة الفراق، وعيناها الملهوفتان على إجابة تريحها، وهي تتأهب لعبور الحاجز الإليكتروني في المطار، .. " لماذا طلبت مني التفكير جيدًا؟"، لم أعرف مغزى ما تقصده بسؤالها، ولم أنتبه إلا أن أمر سفرها إلى أمريكا يكتنفه غموض وقلق، وخوف مما سيجابهنا من أحداث غير متوقعة لم نحسب لها حسابًا . نعم ,عليَّ أن أكتب هنا بأن زوجتي نورا الطبري كانت جائزة السماء لي ,وجاءت في

موعدها بصدفة نادرة الحدوث .صدفة أن تعطيك الحياة بسخاء في لحظة احتياج حقيقي.

فور صعودي إلى الشقة ,استسلمت لنوم عميق لخمس ساعات متواصلة، استيقظت على رنين الهاتف، وما إن فتحته حتى وصل صوت عنان:

- صح النوم يا غالي.
- ....
- ....

** **

(٣)

روان قيصر

"   ذات اللحظة التي تقذف بك إلى العدم واللا معنى؛ كانت تصرّ على حصاري والقبض على أعصابي، وأنا وسط القاعة وهذا الحضور الطاغي .كان يضغط على أعصابي الهاجس الذي ينتابني بأن ثمة خطر قادم لا محالة .وزَلَّة قدمي في مطار (McCarran International *Airport*)تفسر جزءًا مهمًّا في الحكاية التي تعد في الخفاء، وهروبًا من هذا الضغط .بعد تردد ,طالبت من جنيفر استدعاء ديفيد بيك على الهاتف، وعندما لم تجده تركت له رسالة.

طرقت جنيفر باب غرفتي في الفندق ,وما إن فتحت حتى قالت :

- السيد ديفيد على التليفون.

أومأت برأسي ,وأغلقت الباب ,وأسرعت إلى الموبايل:

حاولت أن أتماسك ولا يتسرب توتري إلى صوتي أثناء المحادثة ,ولكنّ الجملةَ الأولى التي ألقاها ديفيد في أذني كانت كفيلة بانفجاري:

- تأخرتِ في الاتصال يا أميرتي .
- هات ما عندك.
- أردت أن أنبهك.
- استمر؛ أنا أسمعك.
- طالما قالوها فقد فعلوها.

- ماذا فعلوا؟
- أعلنوا الحرب عليكِ.
- وماذا تقترح؟
- فور عودتك ,لابد من الجلوس معًا.

......

في الحفل الختامي للمؤتمر الاقتصادي، كان عليّ أن أتخلص من آثار التوتر المريع الذي هيمن عليَّ تمامًا، وكجزء من التأهب لمعركة آتية لا محالة؛ كان يجب أن أكون في قمة الهدوء .نصحتني جنيفر بتناول بعض المهدئات ,ولكن رفضت، لا أعرف سبب رفضي، ولكن لحظتها انتابني إحساس غريزي عبر لمعة سريعة من عينين بدَتَا متربصتين .وعلى الفور، وكأنني فورًا ..وعلى التوّ اتخذت قرار الحرب.

قلت لها –وأنا أتشبث بقدر من التوتر:

- سريعًا.

انطلقت جنيفر وأنا أتابع خطواتها ,وللمرة الأولى انتبهت –كأنثى –إلى فستانها العاري، وبدا جسدها مغموسًا في إغراء وإثارة ذات خبرة تمرَّست عليها.

......

جنيفر جيبل قبل ثلاثة أعوام، كانت حديثة العهد في عملها في مكتبي .حاولت بطريقة ماكرة بث فكرة أنها من أصول عريقة ولا يحق لي مهما كان ثرائي أن أنسى أنني أنحدر من أصول جاءت من بلاد متخلفة، لا تزال ترسف في الظلام والجهل .

تجاهلت هذه الفكرة تمامًا، وبتُّ على يقين من أنها ستدفع ثمن هذا الغرور المريض، ويبدو أنها قد تلقت نصيحة، أو أدركت من تلقاء نفسها بعد ما وقفت على حجم أعمالي، والآلاف الذين يعملون تحت إمرتي، وعلاقاتي الممتدة مع أباطرة المال والتجارة في العالم، فانزوى غرورها .واجتهدت في عملها إلى حد بعيد حتى لا تحين لحظة الاستغناء عنها، بل وطَوَّرت من أدائها؛ لتغلق الطريق أمام من يطمع في شغل مكانها، كنت على علم بإرسال سيرتها الذاتية وشهادات الخبرة إلى مؤسسات اقتصادية تؤكد فيها على وظيفتها الحالية في مؤسسة البارون، كانت تجيدُ تسويق نفسها بمهارة، وعلى استعداد للعمل مع أي أحد من أجل المال، وبزغت فكرة سريعة أزاحت ما يمكن أن أعتبره تحاملًا عليها .ففي رحلة عملي التي استغرقتني؛ لم يعد للغيرة النسائية وجود في حياتي .تجاوزتها باعتبارها شيء تافه لا يستحق عناء التفكير.

كنت أستحضر نفسي، وأفكُّ حصار اللحظة القميئة الفارغة من المعنى، عندما وجدتها أمامي تقدم لي كأسًا، سألتها عن المهدئ .وكأنها تستنكر شكي، قالت بلهجةجادة:

- اشربي الكأس؛ ستهدأ أعصابك.

هذا الصراع الخفيّ بدا أن وراءه الكثير، والحرب على وشك أن تبدأ، بل بدأت بالفعل كما قال ديفيد بيك، فلا بد أن لهذه المرأة "جنيفر " التي تقف أمامي متأهبة دورًا فيها ..حتمًا ستكشفه الأحداث .منذ ثلاث ساعات ,كان ديفيد بيك يراهن على ذكائي ومنحني وقتًا ليؤكد لي أنني حتمًا سأحتاج إليه، ولم يكن تأجيل عرض

اقتراحه تأكيدًا لفوزه في رهانه، ولكنه كان يحمي خطته التي وضعها للمعركة .نعم , يوجد من يتجسس علينا، ويتربص للنيل مني .ومديرة مكتبي تتأهب مستعرضة صلاحيتها في وقاحة خفيّة، وقد باتت فرص المناورة على وشك النفاذ .أمعنت بنظرة سريعة مباغتة إلى السائل، وطرقت على الكأس بأظافري الحادة ,وقلت وأنا أناوله للمترودتيل الذي يمر إلى جواري:

- لست في حاجة إليه.

أخفقت جنيفر بهُدبيْها الاصطناعيتين، ولم تستطع أن تخفي سخريتها التي غلفت ابتسامتها المقتضبة .ومنذ اللحظة ,باتت الحرب مفتوحة ومباشرة بعد ما أظهرت عداءها .وعلى الفور ,استدعيت حارسي الخاص ,وقلت له وأنا أشير إلى جنيفر:

- اتصل بمدير أمن البارون حالًا في لاس فيغاس ,وأبلغه بتشديد الحراسة ,وإغلاق مكتبيوعدم المساس بأية ورقة فيه لحين عودتي.

اكتسى وجه جنيفر بإهانة لم تمنع الذعر الذي قبض عليه من إطلاق صرخة غيظ استدارت لها الرؤوس .كنت بقراري المباغت أرسل لمن استخدمها للتصنت على مكالماتي، والعبث بأوراقي وأسراري وصفقاتي بأنني متأهبة للحرب، وكانت صرختها دليلًا على أن شكوكي كانت في محلها .وأنا أتأهب للوصول إلى المصعد ,قلت لحارسي:

- أبلغ المدير المالي بإنهاء أية متعلقات مالية لهذه الخائنة .

تواصلت الصرخات الجنونية، وباب المصعد يتأهب للإغلاق، وصلني سبابها الوقح

وألفاظها الساقطة، ولم أنتبه إلا لجملة واحدة" ..ستركعين أمامي."

فور عودتي ,كانت الصحف ووسائل الميديا قد بدأت حملتها .وكما توقعت ,فقد ادّعت بأن إدماني وصل حدَّ الخطر، ولا بد من وضعي تحت المراقبة .وقدَّمَت الدعاوى تطالب برفع يدي عن إدارة مؤسسة البارون لحين علاجي؛ خوفًا على أسهم المودعين .كنت أعرف أنهم سيطالبون بالتحليل الطبي لإثبات تناولي العقاقير المخدرة .

في الروف جاردن الذي يحتل الطابق العشرين في برج البارون، سألني ديفيد بيك بعد ساعة من عودتي:

- هل اضطررتِ تحت ضغط العمل من تناول هذه العقاقير؟

شملته بنظرة ساخرة ,وقلت:

- دع هذا السؤال لمن لا يعرف حجم المؤامرة التي دُبّرت ضدي.

أومأ بلهجة هادئة ,وقال:

- **ok**

قلتوقد كشرت عن أنيابي:

- هذه العاهرة كانت خنجرهم الذي طعنوني به .نعم ,لم أنتبه إلا مؤخرًا بأنها كانت تدسُّ مقاديرَ من هذه العقاقير المخدرة في كل شراب تقدمه لي، وبتُّ على يقين من أن التحاليل التي سأجبر على

إجرائها ستثبت أنني أتناولها .

اضطجعت على مقعدي مسترخية ,وقلت:

- أنتظر اقتراحاتك.
- طريقان لا ثالث لهما.
- أرفع الراية البيضاء !مستحيل .أنا مستعدة لمواصلة التحدي حتى آخر الشوط.
- نتيجة التحدي مع هؤلاء معروفة ,واغتيال أبيك البارون خيرُ شاهد على ذلك .
- مخاطر الطريقين واحدة.

احتويته بنظرة عميقة ,وقلت:

- قلبي يحدثني بأنك تعرف الكثير .ديفيد ,قل ما عندك .
- ....

** **

الفصل الرابع

(١)

فرحات أبو العز

حتمًا شكَّل جزءًا من تاريخ الفساد الذي تأسس على عين الكبراء منذ سنين، بدأ التدريب عليه قبل حركة الضباط على يد أبيه الحاج خميس أبو العز .صهر أحد الوزراء الوفديّين ,والذي أُسند إليه منصبُ رئيس قسم الإنشاءات بإحدى محافظات الوجه البحري مكافأة له بعد فصله من شركة صباغي البيضا لتلاعبه في أقمشة معدة للتصدير ,واختلاسه آلاف الجنيهات .وبعد اتصال من الوزير ,قام رئيس مجلس الإدارة بتسوية العجز، وأثبتت تقارير الرقابة على هذه المجمعات أنه لا يوجد بها نظام أو مواصفات أو مناقصات أو مزايدات، والبيانات الحسابية بآلاف الجنيهات تُحرّر على قصاصات من الورق بما يسهل الاختلاس.

وكعادتي وأنا أبحث في تاريخ النهب والسرقة عبر التاريخ؛ كان ضجيجُ صوتٍ غريب شاذ يصرخ في وجهي ..ابتعد .ولكنني كنت أتأهب لتغيير قوانين اللعبة، رغم يقيني بأن الفساد يجعل من كل شريفٍ رجلًا جاء في المكان والزمان الخطأ .ولا أدرى لماذا وأنا أتأهب لكتابة سيرة فرحات أبو العز صنعت جوًّا شاعريًّا حولي .أحصيت عددًا لا يحصى من طقاطيق سلامة حجازي وأغنيات سيد درويش وموسيقى أبو بكر خيرت، وأنا أبحث عن سيرة أخر ازواج هند المصري وأدَوِّن ملاحظاتي، سبحت إلى

الضفة الأخرى عابرًا بحر الفساد واللزوجة القذر .كنت أضع نفسي في حالة من التوازن النفسي تقيني الانحراف والتحيز .نعم ,أردت بسرد قصة حياة فرحات خميس أبو العز أن أكشف تاريخ الفساد الذي بات مع الوقت وحشًا خرافيًّا يلتهم كلَّ من يواجهه، وكأنني بهذا السرد قررت أن أقضي على هند المصري .كنت أشحَذُ أسلحتي للرد على ما سوف تدَّعيه من أن رجلها في نسخته الأخيرة البائسة قد صنع ملياراته بذكائه، وبارك له ربُّ العالمين بسبب استقامته، وتحرّي الحلال في كل صفقة ,وكأن حيتان وأسماك قرش الصفقات وقفا عاجزين أمام ذكائه وإيمانه وطهارته . كانت مع خسارتها الأخيرة في رحلة البحث عن نصيبها في ثروة البارون بين أنياب المافيا؛ لم تعد تجد أية محاولة في الجري والسباق مع هؤلاء .ولخوفها من الوقوع صريعةَ حالةٍ نفسية تلتهم ما تبقى من حياتها لجأت إلى الصلاة والدعاء على الظالمين .لم أعرف –تحديدًا –متى التقت بفرحات أبو العز إلا فيما بعد ,ولكن رسالة صغيرة أرسلتها إلى ابنتها روان على الموبايل بعد زواجها بيوم الساعة ..**45,4** "مساءالخيرياجميل ,كاننفسيتحضريفرحيامبارح .تزوجتالحاجفرحاتأبوالعز .عقبالك . كلصلاةبدعيربنايعدّلهالك.. ..أمكهند."

كان كلُّ ما يهددها العودة إلى الفقر مرة أخرى . تطاردها صور الفنانين الذين انتهوا نهاية بائسة، من يتسول أصدقاءه الأكثر تعاسة ..أعضاء النقابة ,حق الدواء أو أجرة السكن .وتردد بعد صلاة العشاء وركعات الشفع والوتر وقيام الليل ..اللهم أمتنا ميتةً سويّة.

حاولت أن تحصّن حياتها ضد الحاجَةِ وشرِّ السؤال .

في هذه الأثناء ,داهمتها رغبة في الانتقام من البارون أحمد قيصر، ولم ترهق ذهنها رغبة في التفكير عن الرجل الوحيد القادر على مساعدتها في الانتقام وسينهض بهذا الدور على خير وجه ..الرجل البعيد ,القريب ,المنسي دائمًا رغم حضوره الذي يحاصرني ويضغط على وحدتي بقسوة وبرودة إلى حدٍّ لا يطاق .

بعد يومين ,وأنا أتأهب لدخول المسرح ,رنَّ الهاتف، وما إن فتحته حتى جاء صوت هند المصري ببصمته التي عجز الزمن وكمُّ المعاناة التي لاقتها في رحلتها وعبر مساراتها الملغمة؛ من تغيير نبرته.

قالت:

- إزيك يا وِحش.

صرخت:

- هند !!
- تعرف إنك وحشتني !
- ....

انقشعت تفاصيل كثيرة مثل ذرات الهواء، ولم تبقَ إلا صورتُها التي انتشرت على صفحات الـ **face book** وقد تبدل رواء الوجه إلى لحاءِ شجرة عجوز، ولكن الصوت الذي أيقظ الماضي والذكريات، وبدّد كل التفاصيل المزعجة .وتبدَّت لي بصورتها القديمة :العيون الخضراء ,والشفاه المثيرة، والبسمة الحانية .

قلت محذرًا:

- الحاج أبو العز يسمعك.

انفجرت ضاحكة ,وقالت:

- بعد يومين ,سأكون في الإسكندرية .وضروري أشوفك.

** **

(٢)

عبد الرحمن

- صح النوم يا غالي .
- كم الساعة؟
- 6 بعد الظهر.
- ومن أخبرك أنني كنت نائمًا؟ .!
- خمَّنْت .اتصلت أكثر من عشر مرات .سألت عليك في المسرح , قالوا ..بقى لك يومين لم تحضر المسرح.

في المساء ,أجريت أوّل بروفة عملية لعنان، ولا أدري لماذا أردت أن أرهقها؛ قلت لها متقمصًا دور مفستوفيلس :

- *على المرء أن يستمتع بالأوهام في بعض الأحيان ,لكن لا يستطيع أن يتمادى في هذا طويلًا"* ..

وكأنني كنت أقسو على نفسي ,وكأن الهواجس التي نشبت في قلب عفاف همام قد قطعت النمو الطبيعي لعلاقتي مع ابنتها .علاقة توهَّمت أن فارقَ ربعِ قرنٍ من الزمن سيحميها من الإغراق !وأرى عنان كامرأة مثيرة، تدعوني شفتاها للانقضاض عليها ولو حدث ذلك لن تقاوِم، ولن تصفعك على وجهك .بل ما سوف يحدث هو العكس تمامًا .كل التفاتة تدعوك للقيام بما هو أكبر وأخطر من مجرد قبلة ساخنة، وها هي تشرع نوافذها لأقتحم عالمها .

لكن بعد زيارتي وقفت أمّها حائلًا بتحذيرها المبطن .نعم ,قالت بأنها لا تأتمن أي إنسان على ابنتها حتى أنت يا عبد الرحمن .لكن مفستوفيلس هذا الشيطان الذي يرافقني يغريني بألا أفوّت الفرصة التي إن مرت لن تعود أبدًا؛ ستُقتَل وتندثر .وتولّي مع زمنها .وكأن الليلة الاستثنائية التي قضيتها مع زوجتي قد أيقظت في جسدي كل غرائز الرجولة .احتويت عنان بعينٍ شرهة كانت واضحة جليّة في دعوتها ,وكأنني أسرع نحو إقامة علاقة مع امرأة جديدة اشتهيتها بحق.

وكان عليّ أن أتوقف عن خيانة مشاعري قبل أن أتورط في خيانة زوجتي ,وخيانة هذه الفتاة التي خرجت من كهف الأساطير ..كهف شهر زاد واسعة الحيلة، الكهف القابع في رأسك منذ سنين .خرجت عنان وسعت للإيقاع بك منذ اللحظة الأولى، ولكنك احتويت سعيَها بمرآة كنت ترى نفسك فيها ,كم كنت نبيلًا ,ورائعًا، وجميلًا، وحافظًا للأمانة.!

في هذا اللقاء ,وضعت هذه المرآة حائلًا بيني وبينها لأطفئ نارَ الشهوة التي أوقدتها زوجتي قبل الرحيل.

سألتها:

- أين تريدين الذهاب هذا المساء؟

قالت:

- وعدت أمي ألا أتأخر.
- اطلبيها على التليفون ,وسأتحدث إليها.

- ....

- ....

أردت في هذه الأمسية أن أضع حدًّا واضحًا مع علاقتي بعنان حفني.

قبل العاشرة بدقائق ,ضمَّتْنا مائدة صغيرة وموسيقى وأنوار شموع، كان المطعم الذي اصطحبتها إليه قد حافظ على طرازه المعماري الذي يعود للحقبة الخديوية .حتى صور بعض السلاطين ,والتي رُفِعت بعد حركة الضباط عادت إلى مكانها، لا أعرف لماذا اخترت هذا المكان؟ ليست مصادفة بالتأكيد .جلسنا إلى مائدة بالقرب من عمود روماني أثري .كان وراء الاختيار دافعًا ماكرًا لم يكشف عن نفسه إلا وأنا أتقمص دور رجل أرستقراطي نبيل، ليس أمامه إلا أن يتصرف مع فتاة جلست مبهورة به كجنتل مان .عندما وقف المتردوتيل أمام المائدة ببدلة ريدنجوت وطربوش أحمر، كادت تنفجر ضاحكة ,ولكنها تماسكت بصعوبة ,وفَوْر انصرافه؛ قالت هامسة لي:

- الناس بهذا الشكل موجودة بجد؟!
- طبعًا.
- أول مرة أشوفهم.
- الحياة فيها الكثير.

بجوار العامود الروماني ,كانت المرآة التي أرى فيها وجهي ,قلت:

- تعرفين ..أنا أحسدك .
- خير؟

- عندك هدف .زمان كان عندي قضية، وكنت على استعداد للتضحية بنفسي من أجلها .ولكن الآن ,توصلت إلى قناعة أكيدة بأنه لا شيء يستحق.
- لِمَ اليأس؟!
- ليست مسألةَ يأس .ولكن طموحي وأنا في سنّك كان كبيرًا جدًّا .
- تمام .
- الشيء الوحيد الذي تحقق ولم أسع إليه ..زوجتي .
- واضح أنك تحبها جدًّا.
- أكبر من الحب.
- يااااه، يابختها.

وضع المتردوتيل الأطباق ,وبعد انصرافه قلت لها:

- ممكن تقولي مواصفات فتى أحلامك؟
- سؤال جد؟
- أكيد.
- عبد الحليم حافظ.

ردت بابتسامة بدت متحفظة؛ فاستدركت:

- قول إني قديمة .لكن ,بتكلم بجد.

وكان بذرة شك نائمة تململت، وبدت بادرة رغم محاولاتي الاستمرار بصورتي في

المرآة كأرستقراطي نبيل، استقرت نظرة سريعة على العمود الروماني، والذي كان ضمن بقايا سور قصر البارون عمر طوسون، وعدت أحتويها بنظرتي للحظات، وبدا واضحًا أن هذه الفتاة تقتحم عالمي ,وزمني .تريد أن تقول إنها امرأة ناضجة، وخبرتها في الحياة تتعدى سنها بكثير .كانت تريد أن تعْبُر ربعَ قرن مُتْخمة بالأحداث الضخمة، والأحلام التي تكشفت حقيقتها عن وهمٍ كبير .

قلت لها :

- مُصِرة تعيشين في الوهم؟
- ربما يوجد في الوهم علاج.

كنت أتأهب لمواصلة الحديث، لكنني التزمت الصمت، اكتفيت فقط بالنظر إلى عينيها السوداويَّيْن الساحرتين ,وتأهبت لتغيير الموضوع، وقد استقرت صورة سعاد حسني إلى جوار وجهي في المرآة .أردت أن أقول لها..*عيونك تذكرني بعيون أحبِّ ممثلة إلى قلبي .رغم ما فيها من شقاوة تحاول دومًا أن تقاوم حزن العالم كله، تعرفي الصحافة أخطأت عندما أطلقت عليها اسم سندريللا، الاسم الأقرب إليها شهر زاد..*" ولكن أصابني صمت مفاجئ، وعدم القدرة على استخدام اللغة .بتُّ عاجزًا عن الكلام .وأيضًا ,عن مقاومة حيلها الأنثوية، وهي تجذبني نحو عالمها ..نحو زمانها .

حاولت استحضار النبيل الأرستقراطي، قلت لها بعد صمت طويل:

- هل تعرفين أن كل قضايا حياتي خسرتها.
- إلا قضية الحب.

واستدركت للتوضيح:

- أقصد زوجتك طبعًا.

شملتُها بنظرة حانية ,وقلت:

- عنان .

وضعت الشوكة على الطبق؛ فأحدثت صوتًا ..

- أأمرني يا غالي.
- أمك عندها حق في كل كلمة قالتها.
- ....
- انْسَيِ الفن والموسيقى .
- هل تقصد أني لا أصلح؟
- نعم.
- قلت لحضرتك ..أنا أحب الغناء، والتمثيل لا يعني لي شيئًا.
- الحكاية ليست بالسهولة التي تتوقعينها.
- أعرف.
- طريق الوصول ملئ بالألغام .أنت جميلة وستكونين مطمعًا للكثيرين . وستقدمين التنازلات .وربما لا تحققين إلا أقل القليل .وعندئذ لن يكون الوهم علاجًا ,بل سيكون خسارة فادحة.

تعلقت نظرتها بوجهي وكأنها ترى وجهًا غريبًا تراه للمرة الأولى .لم تكن نظرة استنكار

بقدر ما كانت نظرة من توقع حدثًا أجّلته، وها هو يحدث ربما قبل أوانه .رددت بنظرة دافئة، دفعني الانجذاب إليها، وهذه المرة أفصح عن حقيقة رجل يرى امرأة أمامه تعود به إلى زمن الحلم الجميل، زمن الشعارات والقضايا التي ندافع عنها بأرواحنا ..الحرية والكرامة، رفعت أصابعي نحوها دون تردد أو حيرة .كانت تعرف هدفها .أردت أن تعبث بوجهها، و..

كنت أريد بهذه اللمسة أن أعود بها إلى أبعد من زمن الحلم والشعارات والقضايا الخاسرة .كنت أحملها إلى زمن الأساطير ,وهي كانت متأهبة، مستسلمة .لقد قرأت في عيني حقيقة الرغبة التي أجاهد في إخفائها وراء مظهر أرستقراطي ..رجلٌ شعر فجأة بأنه في عنفوان طاقته، ضغطتُ على أصابعها المستقرة ,وقلت:

- أمك في انتظارك.

كنت أعرف أن نزع جرثومة الشهرة والمال من قلبها سيصيبها بالكثير من الألم، ولم أشأ أن أكرر تجربة هند المصري مرة أخرى .

** **

(٣)

روان قيصر

.. حاولت أن أشعر بكياني ووجودي، وأنا أرشف آخر ما تبقى من فنجان القهوة . كان ديفيد قد عرضَ اقتراحه بالانضمام إلى الحزب الجمهوري .

قلت له:

- ديفيد ,الأحزاب الكبيرة لا تحمي أعضاءها هنا في أمريكا، ربما يحدث ذلك في البلاد المتخلفة .
- ولو عُرض عليك منصبٌ رفيع في البنك الدولي أو ممثلة للأمم المتحدة؟

ضحكت رغمًا عني ,وقلت:

- يناسبني تمامًا منصب سفيرة للنوايا الحسنة .

وقفت وأنا أقول مودعة :

- نلتقي الليلة.
- OK

وأنا أعبُر الرُّواق الزجاجي نحو مكتبي توقفت أمام مكتب جنيفر جيبل المفتوح، ووجدت عددًا من العاملين يتحدثون وقد بدت عليهم الحيرة .خطوت نحوهم .. تبادلوا نظرات سريعة قبل أن يخطو مستر ديكسلر فورد المدير التنفيذي للمؤسسة

ويواجهني بلهجة أسف:

- ملفات الشركة تم تدميرها تمامًا عن طريق هاكرز.
- والنسخ البديلة؟
- موجودة ,ولكن توجد ملفات مهمة مشفرة بخوارزمية .

كانت الملامح المقتضبة تبدي أسفًا عابرًا .ولم أسألهم؛ فقد كانت حقيقة ما حدث حاضرة في ذهني .فعلتها جنيفر، أغلقت الفايلات بـ "باص ورد "تحتفظ به لتساومني . وتردد صدى كلمتها" ..*ستركعين أمامي* ." كنت أدرك أنني لو خسرت كل ثروتي لن أركع أمامها أمام امرأة على استعداد لبيع كل شيء .أوشكت أن أقول لـ ديكسلر فورد ..ساومها لتحصل على الشفرة، ولكنني التزمت الصمت للحظة .كنت على يقين من أنها لا تملك القرار .يوجد من يحركها ويملي عليها أوامره، خرجت من الغرفة، سألته وحارسي الخاص يفتح باب مكتبي:

- كم تساوي؟
- الباص ورد يساوي ملايين.
- أنا أقصد جنيفر جيبل .
- تحديدًا لا أعرف.
- أمامك ساعة؛ تفاوض معها ,وأنا في مكتبي أنتظرك.

أغلق الحارس الباب، وجلست إلى مكتبي، تداعيت وتركت كل شيء يتداعى .ورغم رغبتي في تفجير اللحظة الفارقة التي تقبض على أعصابي؛ ليقيني من أن كل محاولاتي ستبوء بالفشل؛ فقد استسلمت لها .حاولت أن أطمئِنَ نفسي بأن الأخطر

لم يحِنْ وقتُه بعد، وأمامي فرصة لأستعيد توازني وأقفَ على قدمين ثابتَتَيْن ,وأتمكن من المناورة .استعدت ما حدث في الحفل الختامي في الرد الصاعق فوْرَ تأكدي من خيانة جنيفر جيبل، هدَّأت أعصابي بعض الشيء ,وأدركت أن الرسالة وصلت إلى خصومي، إلى المافيا وعرابها ألكسندر روديجو الذي رسم خطة التخلص من أبي، وأجبره على اتفاق بموجبه نلت جزءًا من الثروة، كنت أعرف أنه منذ اللحظة الأولى لدخول مكتبي، وفرض سياستي المالية، وهو يتحين الفرصة للقضاء عليَّ، وهو يكيد في الخفاء، يدبر المؤامرات ويرسم الخطط، وأدرك أنني لن أهزم بسهولة ,فبدأ الحرب، ولا أنكر أنني كنت أعرف، وسعيت في كل خطوة إلى تأمين موقعي .من طرف خفي ,كنت أشعر بمن يراقبني ,يصوّر كلَّ حركاتي وسكناتي ,عقود صفقاتي , ويكتب تقارير متواصلة؛ لأكون تحت حصار محكم حتى تحين لحظة الضربة القاضية التي ستزيحني تمامًا من الساحة، وعند وصول تفكيري إلى هذه الحد ارتعشت أطرافي، فإزاحتي لا تعني سوى القتل، وربما تدبر عملية القتل بـ " business Dirty", ، بيزنس قذر ، كنت أطمئن نفسي فبقائي حتى هذه اللحظة، وعبوري من كم الفخاخ التي ألقوها في طريقي دليلًا على قدرتي على الصمود، ومن الممكن أن أنتصر في معركتي، وأكشف عن رغبتي في الثأر لأبي من المافيا التي تدير العالم .نعم ,أصررت على اللعب، ورغم وقوفي على عواقب اللعب مع هؤلاء الشياطين، الذين يتعيَّشون على الدماء .ويفرضون قانونهم الظالم ,لكنهم لن يجبروني على الخروج بخسارة .سأجبرهم على الجلوس إلى مائدتي والقبول بشروطي، سأدفعهم إلى التخلص من قانون الطغاة، من يريدون الخلاص من الورطة، فيسحقوا خصومهم الأبرياء .نعم ,أنا حتى الآن بريئة ,لم أقتات من دماء أحد، ولم

أتورط في عقد أيّة صفقة مريبة، كان يدفعني تطهير أموال أبي بقدر ما كنت على يقين من أن مثل هذا البيزنس القذر هو مجرد فخ للإيقاع بي، حتى ما كان يبدو ظاهرًا " charity "منظمة خيرية، كنت أعتبره وهمًا، وحتى أقطع ألسنة المتربصين بي ,لم أتأخر في دفع الضرائب المفروضة على ثروتي ,وحجم أعمالي .لم أدفع تبرعات إلا لضحايا الكوارث الطبيعية .

لم أتبنَّ موقفًا سياسيًّا في يوم ما ,واعتبرت أمور السياسة التي تدور حول الاقتصاد المُعَوْلم، لا تعنيني إلا فيما يقترب من أعمالي وشركاتي المنتشرة في العالم من تشريعات وقوانين.

وسط هذه الضغوط ,وصلتني رسالة أمي هند المصري التي تزفُّ لي خبر زواجها , همست لنفسي " ..يا بختك يا هند"، وغلبَتْني غفوة تناوبتني خلالها كوابيسُ وهواجسُ ورؤى مزعجة .أفقت على طرقٍ على الباب، ودخل ديكسلر فورد..

وقال:

- تواصلت مع جنيفر جيبل.
- والنتيجة؟
- عشرة مليون دولار ..ثمن "الباص ورد ."
- تفاوض معها على النصف .ولك "كومشن "حلو.

مع ابتسامة مقتضبة ,قال:

- أحاول.

همستُ مغادرةً المكتب ,وأنا أكمل حديثي مع ديكسلر:

- سأنتظر منك مكالمة.
- OK

** **

الفصل الخامس

(١)

فرحات أبو العز

كان آخر منصب رسمي يتولّاه فرحات أبو العز؛ هو رئيس قسم الإنشاءات .

قبل أن يخرج إلى العمل الحر لاستثمار أمواله الضخمة في شركة مقاولات للنقل الثقيل التي أسسها والده خميس أبو العز، واقتصر عملها على نقل المواد التموينية . وقد أسند إليها صهرُه الوزير كلَّ العمليات، بعد أن قام بإلغاء عقد شركة النقل السابقة بتاريخ يوليو 1965، وأسند العملية إلى مؤسسة الصوامع والتخزين رغم افتقادها للإمكانيات أو الخبرة للقيام بعملية النقل، والتي لا تدخل في نشاطها طبقًا لعقد تأسيسها .ألغى مديرُ المؤسسة عقدَ الممارسة بين مقاولي النقل ,وتعاقد مع شركات " FAZ", وتم صرفُ مبلغ يزيد على المُستحَق عن الأعمال التي أدّاها .وعندما وقعت عليه غراماتٌ ضخمة؛ قامت المؤسسة بدفع رشاوى لأعضاء لجنة الغرامات في صورة مكافآت تشجيعية للموافقة على رفع الغرامات المقرَّرة على الشركة.

واصل فرحات رحلةَ الصعود بمساعدة والده خميس أبو العز الذي عاصر ملكين ورئيسين .بدأ سمسارًا في بورصة مينا البصل بالإسكندرية، ووطَّد علاقته برجال الأعمال اليهود .في أوائل الأربعينيات تلقى نصيحةً من ملك القطن أحمد عبود باشا بالابتعاد عنهم، فالقادم سيكون ضدَّ أعمالهم وتواجدهم في مصر، وخاصة بعد إعلان دولة إسرائيل سنة 1948. نفس النصيحة التي نقلها لابنه فرحات ليضعها شعارًا حتى

يستمر في رحلة الصعود والثراء" :انتبه قبل مؤشرات الخطر وابتعد ..تضمن النجاح."

عندما قامت حركة الضباط ,كان قد جمع أولَ مليونٍ في حياته ,وعلى الفور أسرع إلى إخفائه في مشروعات صغيرة ..متناثرة .افتتح عددًا من ورش إصلاح سيارات النقل في معروف بالقاهرة، و"أجانس "سيارات في سيدي بشر، ومصنعًا صغيرًا في دمنهور في مسقط رأسه، واستخرج ترخيصًا بإنشاء عددٍ من محطات الوقود على الطرق الصحراوية، ونصحه صديق مقاول بإنشاء محجرٍ في الكريمات .ورغم ميْلِه للواء محمد نجيب فلم يعلن عن ذلك؛ لأنه أدرك بحصافته وغريزته التي لم تخطئ مرة إنّ وجود رجلٍ كهْلٍ على رأس مجموعة من شباب الضباط؛ حتمًا ستحين اللحظة للانقلاب عليه .حدث ما توقعه؛ فقد أطيح باللواء بعد سنتين من الثورة، وبزغ نجم جمال عبد الناصر .وقال لابنه (فرحات) الذي كان على أبواب المرحلة الثانوية .. حُسِم الأمر، البكباشي هو الملك الجديد .ولقِي عبد الناصر هوًى في قلب الصبي؛ فقد كان يمثل حلمًا لجيل ألهب حماسَهُ بخطبه النارية وقراراته الجريئة التي قضت على طبقة الباشاوات وفسادهم .وفور تأميم قناة السويس ,كان فرحات يخطو خطواته الأولى في الجامعة ,وواصل حماسُهُ اشتعالًا.

وقت العدوان الثلاثي، قرر الاشتراك في المقاومة الشعبية والتي أسرعت إلى القناة . وهنا ,وقف أبوه ضد قراره ,وقال له بلهجة حاسمة:

- لن تذهب.
- أبي ..الإنجليز سيعودون لاحتلال مصر.
- عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء، وملفات المنطقة من الآن في يد

الأمريكان.

- الطائرات والبوارِج والدبابات تقصف مدنَ القناة، وإسرائيل اجتاحت سيناء.
- لن تذهب.
- أبي!
- قلت ..لن تذهب ,وإذا عصيت أمري وذهبت ..لن تعود إلى هذا البيت مرة أخرى لو كُتبت لك النجاة.

كثيرًا ,ما يتذكر فرحات هذا الموقف ,الذي شكّل حدًّا فاصلًا في حياته .ومع تراكم الخبرات ,كان يردد ..الحاج خميس كان على صواب .وامْتثل لكل أوامره .فور تخرجه من كلية الهندسة ,انتظر نصيحة أبيه الذي قال مكانك محجوز للعمل في القطاع العام .لم يعترض رغم أنه كان ينتظر أن يتولى إدارة جزءٍ من أعمال أبيه التي يديرها بسياسة لا ترضيه؛ فقد كان يتعمد خميس أبو العز أن تظل أعماله محدودةً , وكأنه يخشى ويَهَابُ النجاح ,ولم يفلح في إقناعه .وللهروب من الصدام مع أبيه؛ وافق على العمل في إحدى شركات القطاع العام، وانخرط بكل طاقته .وبالفعل , أثبت جدارة أرضت رؤساءه .وبدأ أول صدام عند موافقة شراء أحد الشركات التابعة لمؤسسة الصوامع والتخزين لسيارات النقل، ولم تُتَّخذ ضماناتٌ قبل إبرام الصفقة . وتبيَّن بعد ذلك أن السيارات المبيعة كانت محملةً بحجوزات لصالح هيئة التأمينات الاجتماعية ضمانًا لديون تقدَّر بثلاثة أضعاف ثمنها .وكانت الصدمة المرعبة عندما قرر مدير المؤسسة ومستشارها القانوني والعضو المنتدب؛ أن الوزير كان على علمٍ

بتفاصيل الصفقة.

كانت الصدمة كفيلة بأن يفقدَ المهندسُ الشاب توازنَه ,ولكن الأدهى والأمر ما قاله أبوه خميس:

- القطاع العام هو مغارة علي بابا.

كست وجهه علامةُ استفهام مشوبة بقلق، فواصل الحاج خميس:

- المهم ألا تتورط في شيء.
- لست لصًّا حتى أتورط.
- الأهم ألا تصطدم برؤسائك.
- أخشى الصدام إذا لم أتورط معهم.

كانا على مائدة العشاء، ورشقت أمه ضحي هانم الشافعي الشوكة في قطعة لحم , وقالت ناصحة ابنها:

- أنت متورط فعلًا يا فرحات.
- لا يا ماما، لست متورطًا.
- إذا كان الوزير متورطًا؛ فأنتم جميعًا متورطون.

قال الأب –وهو يتناول كأس نبيذ معتّق:

- الذكاء ألا تكون ضحيةً للعب الكبار.

قال فرحات ساخرًا:

- تعني أن أكون عضوًا أساسيًّا في اللعبة؟.

- تمام.

- أن أكون لصًّا؟!

قالت الأم:

- عندما تكتسب خبرة الحياة ..ستنتقي كلمة "أشيك "من هذه الكلمة البلدي.

مرَّ فرحات بفترة عصيبة ,ظل نهبًا لصراع مريع .وقد كشفت له الحياة عن وجهٍ دميم , وأنياب حادة .بعد أسبوع من هذا العشاء ,كانت الصدمة التي كادت تطيحُ بعقله عندما تناثرت في رواق المؤسسة حادثة استدعاءِ رئيسه لأحد التجار الذي تجرأ على تحدي تاجر ذي حظوة حصل على إحدى المناقصات ,وأمره بالتنازل عنها وإلا سيعتقله .عندما رفض التاجر؛ اتصل الوزيرُ بصديقه وزيرِ الداخلية الذي أصدر أمرًا باعتقال التاجر لخطورته على الأمن؛ ليتم التنكيل به.

وجد نفسه مع الوقت يحيط نفسه بعزلة تامة .دلفَ داخل قوقعة مصمتة، حتى استدعاه رئيسُ المؤسسة لحفلٍ بمناسبة تخرج كريمته من الجامعة الأمريكية . وتخيرت أمُّه بذلة إيطالية فاخرة ورابطة عنق، وأهدته حذاءً ماركة "تمبرلاند " Timberlandلميع، ولم يدرِ سرَّ اهتمام ضحى الشافعي إلّا وهو يطبعُ قبلة على جبينها ,قالت له:

- لو البنت جميلة لا تضيعها من يدك.

- باي باي يا ماما.

وهي تصطحبه نحو الباب:

- ... هذه البنت فرصة ..تعلم من أبيك، كل فرصة في حياته استطاعَ أن يستثمرها ..وأنا أمامك مثالٌ حي على ذلك.

....

وصل قصر الوزير حسن البدوي .ومن النظرة الأولى كانت المصادفات النادرة التي حدثت في حياة المهندس فرحات، فقد وجد نفسه محطَّ اهتمام الرئيس وابنته "هدى ,"والتي لم يحسب أنها بهذا القدر الوفير من الجمال، حتى يسعى أبوها لعرضها عليه كما أوحت له "ضحى الشافعي ."وبعد أسبوعٍ ,تمت الخطبة التي أسرع أبوها إلى إتمامها حتى انتابت الشكوك ,ونهشَتْ فكرةٌ لعينة قلب فرحات، فلعل ابنة الوزير بها علة ..أو عيب خفي .ولكن لم تهدأ خواطره إلا بعد شهرين .كان منشغلًا بتأسيس عش الزوجية عندما انفرد به في مكتبه ,وقال:

- أكيد ,أنت لا تعرف حجم الثروة التي أخفاها الحاج خميس والدك وحماها ضد قوانين الحراسة والتأميم.

قال فرحات؛ حتى يتبين ما يقصده الرجل:

- تقريبًا.

انفجر الرجل ضاحكًا ,وقال:

- لو لم أعرفك جيدًا؛ لقلت أنك تخشى الحسد.

قلت مازحًا:

- وهل تعرف أبي جيدًا؟
- الحاج خميس يملك عقلًا جبّارًا .أنا أتوقع أن ثروته تتعدى العشرة ملايين .

قلتمواصلًا المزاح:

- وابنه لا يعرفه!
- قلت لك ..عقله جبار.

واستدرك الرجل؛ ليؤكد توقعه:

- أنا لا أتحدث بدون مستندات ,وأحتفظ في مكتبي بملف من 13 ورقة ..به حصرٌ لجزء من ثروة خميس أبو العز التي تبلغ 7مليون جنيهٍ ,لم يطبق عليها قانون التأميم رقم 117لسنة 1961.

تجلّت هذه الحقيقة بعد وفاة الحاج خميس أبو العز، وعند حصر التركة التي آلت إلى ابنه الوحيد فرحات بلغت 11مليونًا و 300ألف جنيهٍ، أيقن بأن رئيسه كان يريد أن يحصن ابنته ضد غوائل الزمن عندما يحين وقت التخلص منه، وما قد يتبعه من ردّ الأموال الحرام التي استغل منصبه للاستيلاء عليها ,ولكن التوقعات أثبتت عكس ذلك .فقد حدث تغيير وزاري وتولى رئيسه كرسي الوزارة ,واستتبَّ الأمر له ولزوج ابنته.

** **

(٢)

هند المصري

"انفجرتُ ضاحكة ,وقلت:

- أنا بعد يومين سأكون في الإسكندرية ,وضروري أشوفك .

بتُّ على مقربة من فكرةٍ كنت أغضُّ الطرف عنها إلى حد إنكار وجودها .ولكنني وقد استقر في عقلي حقيقة أن عبد الرحمن هو الوحيد في حياتي، وكل أزواجي ما هم إلا أشخاص عابرون ,أو مجرد صفقات ربحت منها ..هذه الحقيقة لم تغِبْ عنه أيضًا، فهو يدرك كمَّ الاحترام والتقدير، والحب الذي أُكنُّه له، ورغم زواجِهِ من امرأة أخرى يدّعي لنفسه بأنه يحبها، ولكنّ خبرتي كامرأة تؤكد لي بأنه لم يحب في حياته امرأةً غيري.

فور إنهاء المكالمة ,صوَّر لى غروري، وربما رغبتي القديمة في هذا الرجل الذي تستيقظ كلُّ ذكرياتي معه ,وحاصرني طيفُهُ؛ بأنّه يشتهيني ويريدني .كنت أتمنى أن تفقد الرغبةُ سطوتَها مع الزمن ,لكنها ازدادت اشتعالًا.

وأنا أستقل القطار إلى الإسكندرية ,اشتعلت في جسدي رغبةٌ حاولت كتْمَ ثورتها , ولكنها استولت عليَّ تمامًا .لمستُ شاشة الموبايل بأصابع عصبية ,وانساب الصوت الأثير إلى قلبي ..صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

كان عليّ أن أطفئ نارَ شيطان الرغبة، وحاصرت تفكيري في سبب زيارتي لعبد الرحمن ..وهو كتابة مذكراتي في الفن والحياة والسياسة .كنت أستعيد ذكرياتي ,

وأول جملة حوار ألقيها على مسرح الجامعة، وقف خلفي وهو يشرح لي الحركة ".. *أهم حاجة في المسرح حركة الممثل ..هي لوحة تشكيلية متحركة فضاء المسرح .. الموسيقى ..الألوان ..الديكور ..ال"* ..أمسك بكفي وراح يتحرك بي .لمسة يده التي أشعر بها الآن، كم كانت دافئة ..حانية .نبرةُ صوتِه التي يجب أن أُلقي بها الجمل الثلاث تتردد في أذني .كانَ اللقاء الأول معه ,بل مع النظرة الأولى وهو يشملني بعينين عميقتين .لم تكن نظرته عامرة بالرغبة بقدر ما كان فيها من إعجاب كأنه يبحث عن سرٍّ يكمُن في قلبه هو ,ويرى خريطة الوصول إليه في عيني.

قال لي فيما بعد" :*كنت أنكر الحب من أول نظرة ,ولكن مع نظرتك أقرُّ وأعترف بأنني أحببتك من أول نظرة ."* ترددت كلمة "أحببتك "في أذني، وانتابني خجل مفاجئ، فلا يصح وأنا في هذه السن ..وزوجة أن أفكر وأرغب، وأشتهي رجلًا آخر . حاولت أن أعيش مع آي الذكر الحكيم ,ولكن طيف حياتي "كان يهيمنُ على خاطري، كان قيدًا حديديًّا يكبّلني ,ويصرُّ على حصاري."

كنت أشعر بأن حياتي العاطفية لم تكن في يوم من الأيام مستقرة .ومع صوت الشيخ عبد الصمد ,بحثت عن كتاب كنت قد احتفظت برابطه على الموبايل يتحدث عن الدورات الحيوية :منحنياتها البدنية ,والعاطفية ,والذهنية .وأنا أواصل البحث ,كنت أشعر بطيفِه يقف ورائي، ألتفت فلم أجد أحدًا .أوقفت البحث على الشبكة وأغمضت عيني مستسلمة لتلك الرغبة القوية، وهتفت" *.أريد هذا الرجل ولا أحدًا غيره .نعم ,أنا مجنونة بحبه ,سأطلب منه إذا كان يرغب في الزواج مني؛ فعلى الفور سوف أطلب الطلاق من فرحات أبو العز، وبعد شهور العدة بساعة واحدة سيُغلَق*

علينا بابٌ لأول مرة بعد ثلاثين سنة من التردد، فقد آن الأوان لأستقر بين ذراعيه , وأستريح من المعاناة على صدره ,وفي حضرته، وهمست لنفسي ..ما أتعسَ من لم تَفُزْ بمن تحب"

وصل القطار إلى محطة مصر الساعة الرابعة بعد الظهر .وهي تستقل التاكسي إلى شقتها القديمة في "جليم"؛ رنَّت عليه وقالت:

- وصلت حالًا .أنْهِ كل شيء ,وسنلتقي الليلة.

وكأنها تلقي أمرًا حتمًا سيصدعُ له .خرجت كلماتُها بطريقة بروتوكولية خاليةٍ من أي إحساس أو توريةٍ تفضح ثورتها التي انزلقت في جسدها طول رحلتها إلى الإسكندرية.

قال لها عبر الهاتف :

- أمرك يا هند هانم.

كانت نبرة الصوت ,والكلمات الحادة المتحفظة؛ كفيلةً بغلق قضبان صلبة، ظن أنها فُتحت على مصراعيها، وعادت إلى دور البارونة التي لا تزال تحتفظ بمكانتها رغم ما آلتْ إليه الأحوال ,قالت:

- أراك الليلة.

....

" في شقتي التي تحمل ذكرياتٍ توارت مع الزمن؛ أخجل من تفاصيلَ أحداثٍ وَلَّت، ولكنها تشحن الذاكرة بكثافة .كانت أول شقة اشتريتها من أول فيلم أمثل فيه

دورًا مهمًّا .وكم صدحتْ في أجوائها موسيقى وضحكاتٌ ورقص ونِكات جنسية عارية ..كانت تُلقى بدون حياء ,يقولها ممثلون وممثلات شهيرات.

بعد ساعتين قضيتهما في نوم متقطع ,استرجعت خلالها علاقتي بزوجي فرحات أبو العز .في الفراش ,كانت العلاقة مفقودة، بعد فشل عدة محاولات في تدعيمها بما يتناوله من عقاقير؛ حاول أن يرضيني بالهدايا الثمينة .كنت أشمله بنظرة رضا وامتنانٍ وشفقة، كنت أستنكر نظرة الانكسار التي تتبع كل محاولة فاشلة.

نهضت وأنا أملأ البانيو بالماء ,اتصلت بمدام جوجو خبيرة التجميل ,وطلبت خبيرةً لعمل "مساج "و"ميكب "كامل.

** **

(٣)

نورا الطبري

كنت قد عرفت أن جاك إلى جانب أنه أستاذ أمريكي له سمعة كبيرة في أكثر من جامعة أمريكية؛ كان متخصصًا في الأدب العربي , وأصدر عددًا من الكتب عن ألف ليلة وليلة , وعمر الخيام، وأخر دراسة كتبها عن المرأة في أدب نجيب محفوظ.

فور وصولي إلى ولاية نيوجرسى ,اتجهت إلى مدينة نيوبرونزويك؛ حيث تقع جامعة رتجرز ..كان دكتور جاك قد أعد اجتماعًا للتعارف ,وفضَّل ألا يكون اللقاء الأول بروتوكليًّا، وأعد العدة ليكونَ احتفالًا صغيرًا، قدم لي الشاي وقطع الكيك .وأنا في الطائرة ,جمعت مادة علمية لا بأس بها عن الجامعة التي سأمكث بها فصلًا دراسيًّا كاملًا، واحتفظت بعشرات الصور للمباني والمدرجات والحدائق .وعندما وصلت , كان الواقع لا يختلف كثيرًا.

قلت للدكتور جاك ,وهو يقودني إلى المكتب الذي أُعِدّ لي:

- أحتاج أسبوعًا لأحدد مقررات الكورس.
- خذي وقتك، ولكن نريد التركيز على رسالتك.
- **OK**
- مكتبي مفتوح لك في أي وقت.
- شكرًا.

دكتور جاك إلى جانب أنه أستاذ أمريكي له سمعة كبيرة في أكثر من جامعة أمريكية؛ كان متخصصًا في الأدب العربي ,وأصدر عددًا من الكتب عن ألف ليلة وليلة ,وعمر الخيام، وأخر دراسة كتبها عن المرأة في أدب نجيب محفوظ.

دخلت المكتب ,ورغم مساحته المحدودة؛ كان مريحًا .ولفَتَ نظري مكتبةٌ وَضعَ بها عددًا من المراجع عن الإعلام وتاريخ الصحافة .جلست وألقيت نظرة عبر حديقة فسيحة، كان عدد من الطلبة والطالبات ينتشرون فيها ,وفي وسطها كان يقف تمثالٌ ضخمٌ لأحد الآباء الأوائل .البناء الذي يقع فيه مكتبي يعود إلى تاريخ ,**1761**ويُعدُّ

أولَ ما تم إنشاؤه من جامعة رتجرز.

بعد ساعتين ,خرجت من مكتبي وتجولت بين الأبنية، كنت أحيط علمًا بخريطتها . أردت التعرف على ملامح الأماكن والأبنية والأشجار، فالمكان بالنسبة لي ليس وجودًا مصمتًا .كنت أعتبر أنّ لكل مكان شخصية فريدة ,وطابع خاص به :بصمة ورائحة وأجواء ,ولابد أن تتآلف معه ,ويتآلف معك، وتنشأ مع التآلف حياةٌ كاملة وأنا أستريح على أريكة أسفل شجرة عتيقة ربما يعود تاريخها إلى ما قبل وصول كولمبوس، وقد غرسها أحد الهنود الحمر .شغلني التفكير في العلاقة الخاصة التي كنت أقيمها في كل مكان حللت به، بيتنا القديم في تل الربيع –تل أبيب –هجرته مع أسرتي وأنا طفلة .ولا زلت أذكر الأرجوحةَ التي صنعَتها أمي بحبلٍ عقدَتْه في شجرة زيتون ضخمة أمام الباب مباشرة .وأنا أتأرجح ,كان كلُّ شيء يتحرك :السماء , والأرض ,والبيوت ,وأفرع الزيتون الخضراء .كنت أمتلئ بالسعادة ,وشعور ممتد بأنني أمتلك العالم ..وأنا أرسل نظرتي عبر الزمان ,وإحساس يغلِّفُه شجنٌ بسبب حقيقة سذاجتي التي استمرت معي منذ طفولتي والتي صوَّرت لي بأنني أمتلك العالم ..واليوم كانت الحقيقة بأنني فزعت من كل الأماكن التي حسبتها للحظة صديقة لي ونشأت بيننا حياة كاملة؛ عامرة بالحكايات والأحداث ,بالضحكات والدموع، بالفشل والنجاح ,بالانكسار والانتصار .

في المساء ,وأنا أستعد للنوم لأول ليلة في بيتي الجديد بالقرب من الجامعة ,فوجئت بعمتي "عين الحياة "التي تقيم في نيو جيرسي على التليفون .أسرعت بالنداء :

- عمتي.

صرخت في وجهي:

- حقيقي !تعتبريني عمتك، خسارة .تأتي أمريكا ولا تخبريني؟ !

قلت آسفة:

- حبيبتي ,آسفة بجد .قرار السفر جاء فجأة .لم أقل لعبد الرحمن إلا قبل ركوبي الطائرة بـ 24ساعة.
- متى أراك يا بنت أخي؟!
- بعد يومين ,سأكون عندك.

أغلقت الموبايل، وما إن أغمضت عيني حتى انزلقت في نوم عميق"

** **

(٤)

عبد الرحمن

أدركت مع أيامنا الأولى عمقَ ثقافة زوجتي نورا الطبري ، وامتلاء وعْيها بالقدرة على العرض والتحليل، ويرجع ذلك إلى أنها درَّبت نفسها على كيفية قراءة النصوص، ولازلت أحتفظ بملاحظتها الذكية على نص "أوهام فاوست"

بعد سفرها، تأهبت للاستغراق تمامًا في استكمال البروفات، كنت قد عقدت العزم على عدم التورط في مغامرة جديدة مع عنان حفني، التي شعرتُ بأنها تدفعني نحوها بكل قوة وإصرار. وأصابني إصرارها بسرعة إنهاء العلاقة. كنت أدرك كمَّ الألم الذي ستشعر به عند نزع جرثومة الفن من قلبها.

في تلك الليلة، لم تُكمل عشاءها، تركت طبقها عامرًا كما هو، وقالت لي:

- أنا أعرف لماذا تفعل ذلك بي.
- أنا خائف عليك.
- خائف مني، أم خائف عليّ؟

كانت تحتويني بنظرة عميقة، نظرة خبيرة على يقين من نجاح خطتها، وتحقيق أحلامها في الفن والشهرة. أرادت– فقط– أن أفتح لها الباب، وستنطلق فورًا دون مساعدتي.

وانطلقت من أمامي، وخرجت.

خيَّمَ الصمت، كنت أعرف أنني لم أتسرع في نزع فتيل الانفجار. كانت لحظة الحقيقة أتيةٌ لا محالة، ولا يجب تأجيلها أو التسويف والمماطلة.

ترددت كلماتها السريعة المباغتة، واستعدت نظرة عينيها وهي تقول: *"خائف مني"* ، بدت عيناها مراوغة، رغم ذلك أفصحتْ عن كل ما كان في ضميرها، كانت جاهزة لتقديم بعض التنازلات، كانت بعد انتفاضتها الأولى عندما استراحت على الأريكة،

وعبثت بأصابعي وجهَها؛ قد أعدَّت خطة الوصول إلى عالم الشهرة، فقد ظهر جليًّا أنها ليست "عبيطة" بل امرأة أدركت من النظرة الأولى كمْ أشتهيها.

كنت أستحضر رحلة فاوست الأولى مع مفستوفيلس الذي أغواه حتى وقع في الخطيئة مع مارجريت. وقاومت رغبتي في هذه الفتاة رغم إلحاح الرغبة، وجدت نفس أردد كلمات مفستوفيلس لإغواء فاوست، "تعال بسرعة وأسلم قيادك. بعد ذلك، سأعلمك كيف تستمع بلذة عميقة وكيف يهتز كوبيدون . إله الشهوة عند الرومان . ويتواثب هنا وهناك".

رغم الهدوء الذي غمرني فور انصراف عنان، كان يقبع في قرار أعماقي إحساسٌ بعدم الرضا، ولم تكن أسبابه خافية متوارية، لا تكمن في المواجهة الصريحة الواضحة، ورغم أجواء الزمن الجميل الذي استحضرته، وكمِّ الألم الذي سببته لها؛ لكن يقيني بأنها ستبحث عن غيري ليمهد لها سبل الوصول. وحكايتها معي ستدفعها للتنازل أكثر؛ لتصل.

وأنا أتأهبُ لدخول المسرح، وصل أول تليفون من هند المصري بعد انقطاع سنوات ثلاث.. *"إزيك يا وِحِش"*

- .....

انطلقتُ على خشبة المسرح، وقد ارتديت ثوبًا أحمر مطرزًا بالذهب، وشددت على كتفي عباءة من حرير، وعلى رأسي قلنسوة مزودة بريش الديكة، وأمسكت خنجرًا طويلًا مدبّبًا، قلت لفاوست :

- *"هناك طفلة جميلة شاحبة دَعها وشأنها، إنها صورة سحرية، ليس فيها حياة، إنها صنم، الالتقاءُ بها ليس من الخير في شيء. بنظرتها المتحجرة، هل سمعت عن "ميدوسا" واحدة من الجاكونات الساحرات ما إن تنظر إليك حتى تحولك إلى تمثال من الحجر"*

تمكَّنَ مني مفستوفيلس، كان قد استعمرني تمامًا، وتمثلت هند أمامي في صورة ميدوسا، وبتُّ أخشى النظر إليها. تسرب إلى قلبي خوفٌ حقيقي منها. وللمرة الثانية، انقشعت التفاصيل الكثيرة مثل ذرات الهواء، ولم تبقَ إلا صورة وجه انتشرت على صفحته شقوق غائرة، وطاردتني صورتها مثل كبيرة الساحرات وهي توعز لماكبث بقتل الملك دنكان.

خلال أيام معدودة، خاصمت الحياة عبثيتها، وبدت كجدة تلقي الحكم بإشارة من سبابتها في اللحظة التي قطعت علاقتي بعنان بسكين بارد؛ كانت أخرى في القاهرة تفكر وتدبرُ أمرَ الاتصال بي، وكأنها على علم بالفراغ الأنثوي الذي سيحل بي بعد سفر زوجتي، ولكن أي أنثى تتأهب للقاء بي، آه هـ هـ.... هند المصري، امرأة كل زماني، دفعت بها منحنيات الحياة، وتجاربها المريرة إلى الارتماء تحت ظل رجل فقد ظله، قذف بها بدون حماية نحو صحراء قاحلة. ألا تدري حقيقة الأسباب التي دفعتها للاتصال بك؟ إنها أرض عطشى رغم السن والشيخوخة التي– بالتأكيد– تمكنت منها وضعضعت جسدها. ودفنت آيات الإغراء التي كانت تتيهُ بها في الزمن الغابر، كانت الحياة تفرض على عقلي أسئلة لم أسألها. فقط.. لتجبرني على الإجابة

عليها. نعم، "عنان" ليست لك. امرأة.. دعها بالرضا والقبول لمن يستحقها، أما هند المصري امرأة منك، من طيفك.

مرة أخرى، يأتي مفستوفيلس، هذا الشيطان الملعون يدفع بي نحو الخطيئة، ولا يزال يداعبه الأمل في أن أخطو خطوتي الأخيرة نحوها، ولكنني- حتمًا- سأرفض الانزلاق نحو الهاوية.

** **

صرخ مفستوفيلس في وجه فاوست:

- ***"ها نحن أولاء من جديد عند طرف ذكائنا. يا بني الإنسان. لماذا إذًا تصاحبنا مادمتَ لا تستطيع أن تتحمل كل عواقب هذه الصحبة؟ هل نحن الذين ارتمينا، أو أنت الذي ارتميت علينا؟"***

** **

(٤)

روان قيصر

وهي في فيلتها، وصل مستر ديكسلر فورد المدير التنفيذي، وقال– بوجه شاحب ولهجة آسفة:

- رفضت جنيفر التنازلَ عن سنت واحد.
- لم ترفض. أنت لم تُجِدِ المساومة.
- فعلت المستحيل.

وضعتْ "الهاوس كيبر" القهوةَ وانصرفت، رفعت روان فنجانها، وقالت:

- جنيفر امرأة مليئة بالثغرات ونقاط الضعف، تكفيك ثغرة واحدة لتحقيق ما طلبته منك.
- أنا جاهز للنصيحة.

احتوته بنظرة عميقة، وقالت:

- امرأة جاهزة لقبول التنازلات.

تراجع ديكسلر فورد على مقعده، وقال:

- أقيم علاقة معها؟!

ازداد عمق نظرتها إليه، وقالت:

- هي موجودة بالفعل.
- علاقة عمل؟ سيدة روان، أنا حريص جدًّا في أن تكون علاقتي الخاصة بعيدة تمامًا عن عملي.
- وهذا سبب كبير في نجاحك.

اضطجعت على مقعدها، واستدركت:

- مستر ديكسلر. تعرف أن المؤسسة تتعرض لمشاكل كبيرة، وأنا شخصيًّا أتعرض لحرب شرسة.
- الحرب بدأت فعلًا.
- وعليك أن تحدد موقفك، هل ستكون معي، أم ستقفز من السفينة التي يُراد لها أن تغرق.
- بالتأكيد سأكون معك.
- اجمع لي من تثق فيهم من الموظفين، سوف نجتمع غدًا الساعة السادسة بعد ساعات العمل.

وقف متأهبًا للانصراف، وقال:

- ماذا أقول لجنيفر التي تنتظر؟

- ادعها للاجتماع معنا؛ فقرار الاستغناء عنها لم يصدر بعد.

انصرف الرجل.

....

".. تأكد لي أن الثقة لا مجال لها في عملي. وأدركت أنّ كل إنسان له ثمن. هو نفسه تدرب على أن يكون صفقة أو جزءًا من صفقة. لم أجد من يستحق الثقة إلا في حدود إجادته لعمله، وحجم الأرباح التي أجنيها من هذا العمل. وفي لحظات الهدوء النسبي الذي يعتريني في بعض الأحيان، كنت أستحضر سؤالًا واضحًا إلى حد الاستفزاز.. لماذا قبلتُ العمل مع هؤلاء الأشرار؟! وكأنني عقدت صفقة مع الشيطان على جثة أبي!. لكن.. وعبر تلك اللحظات، كنت أواجه الجانب الآخر من السؤال بحرص شديد، واضعةً على الواجهة أمام عيني كلمة واحدة، قوية، صريحة، مؤكَّدة.. الثأر. نعم، كنت أسعى عبر انخراطي مع هؤلاء الأشرار للثأر لأبي البارون أحمد قيصر. كان مجرد التفكير في الانتقام والثأر من المافيا أمرًا مريعًا، وكأنه الاندفاع نحو الهاوية. ويقفز على الفور مشهدُ إطلاق الرصاصة على رأسه. وعلى الفور، تتبدد لحظة الهدوء، وتشتعل في قلبي الرغبةُ في مواصلة التحدي، حاولت إخفاء هذه الرغبة عن أقرب إنسان لي، حتى عن نفسي. واستنكرت فكرة تشكيل فريق لمساعدتي في الحرب التي ستشتعل حتمًا، وهاهم قد بَثّوا قرونَ استشعارهم.. أجهزة تجسس دقيقة، شريحة ميكروشيب. أحيانًا، أشعر بها تحت الجلد، قرأت أفكاري الخفية، والتي لم أبُحْ بها إلا في لحظات قليلة نادرة لنفسي. ومنذ اللحظة الأولى،

فور دخولي مكتبي، تأهبت للمواجهة، وأحطت صيرورتي بلحظة. حسبتها بلا أفق، بل أردت لها ذلك أن تكون مفتوحة على كل الاحتمالات، وبتُّ أتحسَّب لخطوتي القادمة، وتركتها عالقةً لا تستقر إلا في مكانها الطبيعي، والذي يضمن لي القبض على ألكسندر ريدريجو.."

آلت روان على نفسها، واصلت التدريب بدافع الانتقام والثأر لأبيها، وأحاطت مساحة من عقلها تحتوي على كمية كبيرة من الأعصاب والموصلات، وتمكنت من التحكم في الغضب والعدوان والخوف والغيظ. أحاطت آلياتِ تفكيرها بقاعدة بيانات مبتكرة. لم تسمح لأحدٍ بالاقتحام أو التأثير فيها، أو العبث في تلك الأعصاب الحساسة؛ ليستفزها، ويعرف مكنونَ أفكارها، أو يرهبها ليبْتَزّها. كانت قادرة على التحكم في غضبها، والسيطرة على أعصابها مهما واجهت من مؤثرات، وحشدت كلَّ طاقتها للعدوان على شخص واحد وهو ألكسندر ريدريجو، الذي تلاعب بها وبفريق البحث عن البارون وثروته، وتمكنت فيها تلك الرغبة حتى بات اعتقادًا راسخًا في قرارها بأنه سيكون بينهما لقاء ومواجهة عاصفة.. حاسمة.

في اليوم التالي، عقدت الاجتماع، وحضرت جنيفر. دخلت بخطوات واثقة، كانت تبدو في فخامة أميرة متأهبة للحظة الإعلان على فوزها وردِّ اعتبارها، كان ديكسلر فورد قد أخبرها بأنها لا تزال مديرة مكتب السيدة روان قيصر، وما حدث في حفل الختام للمؤتمر الاقتصادي.. مجرد غضب عابر.

ردت جنيفر بضحكة عالية، وقالت.. *"سواء تم الاستغناء عني أو لم يتم.. سيكون ذلك منفصلًا عن الصفقة، عشرة مليون دولار، هي تعرف حجم المليارات التي أخفيها بالباص ورد"*.

وقت الاجتماع، تحدثت روان عن الخطة الجديدة وأسلوب مواجهة الحملة الإعلانية التي تُشَن عليها، واحتمال توقيفها وتقديمها قريبًا إلى المحاكمة. وطلبت من ديكسلر فورد الاتصال بمكتب الاستشارات القانونية والاتفاق معه على التفاصيل. طول كلمتها، لم تنظر إلى جنيفر، وكأنها لا شيء. وقد لاحظ جميع الحاضرين هذا التجاهل الذي وصل إلى حد الإهانة.

أشارت روان بيدها قبل نهاية الاجتماع إلى مستر ديكسلر، وقالت:

- ستتولى إلى جانب عملك منصبَ مديرِ مكتبي، وستكون مسئولًا عن كل شيء لحين اختيار مدير جديد.

وأغلقت محضر الاجتماع أمامها، وقالت:

- انتهى الاجتماع.

كان شعور الإهانة المريع قد سيطر على أعصاب جنيفر؛ فقالت– وهي تحاول أن تسيطر على توترها:

- قبل نهاية الاجتماع، أريد إنهاء الصفقة أمام الجميع.

قالت روان– مستنكرة:

- أي صفقة!؟
- العشرة مليون دولار مقابل الشفرة التي تغلق أهم ملفات المؤسسة.

عبرت ابتسامة ساخرة وجهَ روان، وقالت لديكسلر:

- لن تجد في مكتبك ملفات مهمة، حجم أرصدتنا في البنك التجاري الصيني، وعمليات الخزانة والخدمات المصرفية، ونسبة مشاركتنا في جي بي مورجان تشيس، واستثماراتنا في ديلز فارجو. وحجم أعمالنا مع جنرال إلكتريك، وملفات أخرى؛ احتفظت بها في خزانه سرية في أحد بيوت المال التي أشترك في إدارتها، ولا يجوز لأحد اختراقها.

وأشارت بإيماءة من رأسها لجنيفر، وقالت:

- أعْطِ الآنسة شيكًا بعشرة آلاف دولار.

صرخت جنيفر، وقد فقدت السيطرة تمامًا على أعصابها:

- ماذا!؟

واصلت روان أوامرها لديكسلر:

- وأصدر أمرًا لأمن المؤسسة بمنعها من الدخول تمامًا.

أسرعت روان بالخروج تاركة صراخ جنيفر الجنوني يلاحقها. وعندما همت باللحاق بها؛ منعها رجلُ أمنٍ ضخم كان يقف عند الباب.

** **

الفصل السادس

(١)

فرحات أبو العز

*يوم الخميس*١ ديسمبر ١٩٦٦، وأم كلثوم تشدو بأغنية "فكروني" وهي من الحفلات القليلة التي لم يحضرها الوزير مع المهندس فرحات؛ لذهابهما إلى المستشفى بصحبة هدى التي تعاني من آلام الوضع. كان حسن البدوي منذ تعرف على الحاج خميس أبو العز يحجز مقعدين في الصف الأول، وربما كان إحساسهما بصوت كوكب الشرق هو الحسنة الوحيدة في حياتهما المُتخمة بالنهب والاستيلاء على حقوق الشعب، وكما احتل فرحات موقع أبيه في شركة "**FAZ** " وتربع على عرش مملكته المالية؛ احتل مقعده في الصف الأول في كل حفلات أم كلثوم حتى آخر حفل أقامتها في جامعة القاهرة في ١٠ سبتمبر ١٩٧٢. لم يكن الفرق كبيرًا بين الأب والابن، ربما الوسامة التي ورثها فرحات عن أمه ضحى هانم الشافعي، وآثار قيم نبيلة ولَّت بتآمر الأب وصديقه الذي أصبح وزيرًا، شاركتهما الأم في إحكام الطوق حول المهندس الشاب الرافض في قرار نفسه لمسلكهم الحرام، وحاصرته الشكوك التي أثبتت صحتها مع الوقت بأن كل ما حدث في حياته؛ كان من تدبير الأب.. عمله في مؤسسة قطاع عام وتحت رئاسة حسن البدوي، وقد تعقدت شبكة المصالح بينهما، حتى زواجه من هدى، الحفل واللقاء الأول، وإشراف أمه على مظهره.. البدلة والكرافتة والمنديل الأحمر وحذاء الـ **Timberland** اللميع

وتسريحة الشعر، وتأكيدها استكمالًا للخطة المُدبَّرة حتى يغتنم الفرصة ولا يدعها تمر؛ كانت عقيدته الراسخة في صواب اختيارات أبيه وما وطَّن عليه نفسه من الإذعان له. لم يرَ في هدى سوى فتاة جميلة رقيقة، وهو الشاب الذي لم يستطع أن يرى الدنيا إلا من خلال أبيه وأمه، فمنذ النظرة الأولى كان أبوه يهمس في أذنه.. *"جميلة يا باشمهندس، لن تجد أحلى منها"* ، ومع ابتسامته الأولى التي ارتسمت على وجهه وحسبتها الفتاة إعجابًا بجمالها؛ لم يرَ أجمل منها طوال حياتهما القصيرة معًا.

كان منذ بداية عمله، ينتابه إحساس بأنه يعمل في جوٍّ غريب عليه، وجد نفسه في عزلة تامة. تقوقع داخل ذاته، وكلما تذكر هذه الفترة العابرة من حياته ونفوره من مجاراة رئيسه في انحرافه؛ أيقن فيما بعد لماذا لم يتم الإطاحة به من خلال اتهام ملفق؛ ليكون عبرة لمن يقف أمام سيل الفساد، كان يعتقد بأن علاقة خميس أبو العز وحسن البدوي هي التي تحميه. بالتأكيد، كان لها دورٌ في عدم الزج به في قضية فساد أو التنكيل به، ولكن بدا أن التدبير كان معقدًا، فقد اتفق الرجلان على استثمار علاقة البيزنس بعقد مصاهرة بينهما.

سنة ١٩٦٥، توفي الحاج خميس أبو العز، وأدرك فرحات الحجم الضخم لعلاقات أبيه بالكبار المتحكمين، فقد أوفدت رئاسة الجمهورية مندوبًا لتعزية، ونُشرت برقيات العزاء ثلاثة أعمدة في جريدة الأهرام، حتى بعض سفارات دول الخليج وليبيا والسودان شاركت الأسرة مصابها لوفاة رجل الأعمال خميس أبو العز.

بعد مراسم العزاء، لاحظ الوزير الحالةَ النفسية السيئة التي ألمَّت بزوج ابنته؛ فقال له ناصحًا.. "سيب لي نفسك". يتذكر فرحات إحساسه العميق المُتخم بكل ما كان يخفيه في أعماقه عندما نظر إلى حميه، كأن إحساسًا مخبوءًا كبرميل بارود أوشك أن ينفجر. لكن، لطول حبسه؛ فقد مفعوله، وبدلَ الانفجار صدرت رائحة كريهة. كانت وفاة الأب تحولًا واضحًا في حياته فلم يعد يرى الأشياء التي ظن لثلاثين سنة أنه يراها على حقيقتها. صار يرى– لأول مرة– الحياة بعينيه هو. ولأول مرة، يشعر بأنه يخرج من القوقعة المصمتة، ويولد من جديد ليرى حوله الأشياء والحقائق كما هي دون زيف. وأدركت الأم هدى هانم تحول ابنها فحاولت

التصدي له قبل أن يهدم كل ما بناه الأب طوال تاريخه. ومنذ اللحظة التي كان عليها حماية حياتها ووجودها، وما شيدته مع الزوج الراحل بأي ثمن.

بعد شهر من الوفاة، جلست إلى ابنها وزوجته التي تعاني من متاعب أول حمل، وقالت:

- لا ترفض طلبًا لمعالي الوزير.

أومأ برأسه بالإيجاب، ولكن الأم رأت المعنى على غير ما أراد. كانت تعرف أن حسن البدوي قد أحكم الحصار على زوج ابنته، ولم يدع له فرصةً للتمرد.

بعد أسبوع، اصطحبته إلى النادي، وفتحت الموضوع مرة أخرى. وهنا، خرج فرحات عن صمته الطويل، وقال:

- ماما، اطمئني، معالي الوزير أغلق كل الأبواب.
- هو الضامن لحمايتك.
- بالتأكيد.
- للأسف، ورطني كما ورط أبي من قبل.

صرخت الأم في عصبية، وقالت:

- كلامك بلدي. يا ابني، الحياة أوسع من أفكارك الساذجة.
- ....
- أبوك فهمها من زمان؛ ولذلك ترك لنا العز والثروة.
- قلتها يا ماما.. ترك ولم يأخذ معه شيئًا.
- أف.
- وحضرتك يا ماما.. لن تأخذي معك لا العز ولا الثروة.
- إخص عليك. فيه ولد يقول لأمه هذا الكلام؟!
- وأنا.. وحسن بدوي لن نأخذ أي شيء.

ربت على يد أمه، وقبَّلها، وقال معتذرًا:

- آسف يا ماما، اطمئني تمامًا؛ لن أترك حماي العزيز.
- ......

في اليوم التالي، دخل مكتب الوزير الذي استدعاه على وجه السرعة. ومن النظرة الأولى، بدت الكارثة، عندما واجهه الوزير بوجهٍ محتقَن. قال مستنجدًا به:

- مصيبة يا فرحات يا ابني.

- ماذا..؟!

- يوجد الآن ملف على مكتب الرئيس فيه كوارث، ستدخلني السجن إذا لم نتصرف بسرعة.

".. غمرني شعور مفاجئ بالانتشاء والشماتة في الرجل، ورغم يقيني من أنني سأكون رفيقَه في السجن، وربما يتم التضحية بي لحماية كبار آخرين متورطين في الجرائم.

قلت– وكأنني أضغط على أعصابه المنهارة:

- إهدأ يا معالي الوزير.

صرخ في وجهي:

- أنت لا تقدِّر خطورة الموقف.

سألته بنفس الهدوء:

- ومَن وضع الملف على مكتب الرئيس؟

وكأنني كنت أريد التأكد من حجم الورطة التي حتمًا سنسقط فيها:

قال الوزير:

- النائب العام يا سيدي.

ونفخ صديدًا من فمه– وهو يقول:

- حتمًا ستأتي رجله، ويقع ابن الـ.....
- ...
- ...

كان الملف يحمل صورًا فاضحة للفوضى التي تسود الوزارة، وتثبت أن الوزير يحمي هذه الفوضى. تستَّرَ على جرائم السرقات والاختلاسات، وشهدت محكمة جنايات الإسكندرية الجناية رقم ٢٦٨ سنة ١٩٦٥ محرم بك، التي اتُّهم فيها أمين إحدى المخازن بالاختلاس، وبرأته المحكمة استنادًا إلى أن اللجنة لاحظت أن دفتر الحركة لم يثبت فيه أية بيانات، وعدم الانتظام في دفاتر الإضافة، وكتبت في التقرير أن أذونات الصرف والإضافة غير محفوظة في ملفات، وخالية من أي توقيع؛ ولذلك لم تطمئن المحكمة مع هذه الفوضى إلى أدلة الاتهام.

وسجلت تحقيقات سنة ١٩٦٥ كلي غرب الإسكندرية فضائح إحدى المؤسسات التابعة للوزارة.. منها تزييف الميزانيات بإضافة أرباح صورية، وديون معدومة واستبعاد جانب من الاحتياطي، حتى تثبت أنها حققت أرباحًا لرفع تقييم الشركة وتحقيق زيادة مضمونة للمديرين وأعضاء مجلس الوزراء، ونسبة الأرباح والمكافآت التشجيعية. وقد صرفوا للمحاسبين مكافآتٍ إضافيةً مقابل تزييف الميزانية، وأثبتت التحقيقات أن الوزير أقرَّ هذا التزييف.

حاولت أن أهدئ من رَوْعه، قلت:

- معالي الوزير، هل وجد وزراء ورَدَ اسمهم في هذا الملف؟.
- ثلاثة، وربما أربعة.
- تواصل معهم. واطلبوا اجتماعًا عاجلًا مع وزير العدل.
- خير ما قلت. ووزير العدل صاحبي جدًّا.

دخل الساعي بالقهوة، وكانت ثائرةُ الوزير قد هدأت بعض الشيء، ووجدها فرصة لمواصلة فكرته:

- لا بد من شن حملة ضد النائب العام، واتهامه بأنه يتآمر للإطاحة بالوزارة.

واستجمع الرجل شتات أفكاره وقواه المبعثرة، وقال- وهو يتناول مرجعًا ضخمًا كان على مكتبه:

- أعرف أن هذه التحقيقات سيُجبَر رجال النيابة العامة على دفنها؛ فلا يقدر النائب العام على تقديم الوزير إلى المحكمة. كل دساتير مصر تحمي الوزراء.

واصل حديثه- وهو يفرُّ الصفحاتِ، ويقرأ:

- اسمع.. تنص المادة ٦٦ من دستور ١٩٢٣ أن مجلس النواب وحده له حق اتهام الوزراء، ولمجلس الأحكام المخصوص وحده حق محاكمتهم عما يقع منهم من جرائم في تأدية وظائفهم، والمادة ١٥٢ من دستور ١٩٥٦ والمادة ٤٩ من الدستور المؤقت الصادر في مارس سنة ١٩٥٨

والمادة ١٤٠ من الإعلان الدستوري الصادر في ٢٤ مارس سنة ١٩٦٣ على تخويل رئيس الجمهورية ومجلس الأمة حقَّ إحالة الوزير إلى المحكمة.

كان يشوب إحساسَ الراحة والرضا شكٌّ كبير وخوف حقيقي من خطورة الموقف الذي قد أجد نفسي فيه، فقد يلجأ الوزير إلى التضحية بي وبغيري؛ لإنقاذ نفسه وسمعته من السجن.

أسبوعٍ وهدأت العاصفة بعد اجتماع الوزراء المهددين بوزير العدل، وحملة منظمة شنتها الصحافة على النائب العام والذي لم يملك إلا الصمت؛ فالدستور يحمي الوزراء، وتقديمهم إلى المحكمة ليس من سلطته.

** **

حتى وأنت بَعيد عَليه أَو مَعايَا

تِنْتِهي الأَيام وتِطوي العُمر مِنا

وإِنْتَ حُبَّكْ لِلأَبَدْ ما لوشْ نِهايَة

حُبَـكْ إِنْـتَ ما لـوش نِهايَة

واصلت أم كلثوم شَدْوها الساحر في نفس الوقت الذي امتدت صرخات هدى وهي تضع مولودها الأول "أبو العز".

** **

(٢)

هند المصري

.... "ترددت في دعوته إلى شقتي، كنت أخشى الانزلاق نحو الهاوية، التي تحاشيت لأكثر من ثلاثين سنة الاقترابَ منها. شعرت بأنني امرأة في قمة الضعف، والرهبة، والاحتياج الكاسح لرجل يضمد جراحًا غائرة، تجاهلت علاجها لسنوات رغم يقيني من أنه هو الوحيد القادر على علاجها. أردت أن أعود بالزمن إلى لحظته القديمة، أعددت كل شيء وأنا على يقين من فك أقفال ومزاليج الزمن. كنت كمن يُنقّب عن كنز الجمال. وخبيئة الشباب الحقيقية التي بدت واضحة وأنا أنظر إلى المرآة. نعم، أنا لا زلت امرأة جميلة.. مثيرة.. مغرية. حاولت مقاومة رغبتي الحارقة، والتي تدفعني نحو الجنون؛ فقد كنت على يقين من قدرتي على المقاومة والاحتفاظ بصورتي القديمة.. امرأة محتشمة لا تتحكم فيها نزوة عارضة مهما كانت قوتها، ووصل بي التحدي بدعوة عبد الرحمن إلى شقتي، وبلغت سعادتي ذروتها؛ وهو يقول عبر الهاتف:

- تأكدي بأنني في شوق شديد لرؤيتك.

همست بأنوثة:

- لا تتأخر.

كنت أهدهد تيارَ الرغبة وكأنه طفل مشاكس، وأسبح عبر أمواجه علَّها تنسحب إلى أعماق جسدي، أحتوي ثورتها وأطفئ نارها، وأنا أتشبث بإصراري على عدم خيانة نفسي بعلاقة محرمة؛ لأنني لست امرأة رخيصة.

في تمام السابعة، رن جرس الباب، لحظة وكان أمامي، يحتويني بعينيه. تأملته وقد طال الصمت بيننا، وتحول الاحتواء إلى التهام، وكأنه قد وقف على معاناتي، وجاء ليسمع شكوتي، ويفتح قلبه لأقول.. كم ظلمتني بتركك لي!، أهنتني عندما لم تتزوجني.

قال– وهو لا يزال واقفًا:

- اشتقت لكِ يا أجمل نساء الأرض.
- ادخل يا بكاش.

دخل عبد الرحمن. وقلت له– وأنا أقوده نحو المائدة:

- هذه المرة لم أتصل بدليفيري، عملت لك العشاء بيدي.

طوال العشاء، ظل يطاردني بنظرة إبهار، وكأنه يبحث عن أشياء عزيزة فقدها، وما جاء إلا للبحث عنها. ولكنه وجد ما هو أثمن منها. كنت بالفعل قد تأهبت لمبارزة من نوعٍ خاص. كان سيف نظراته تتجول في كل مكان، وأنا أشعر بنشوة عجيبة.

قلت له:

- هه، ما رأيك؟
- أنتِ عملت لي أكبر مفاجأة اليوم.
- أما أنت، اعتبرك مفاجأة عمري كله، وليس اليوم.

"بدونك كنت تائهة.. ضائعة.. جائعة.. ظمأى. وزاد عذابي ليقيني من أنك سببٌ مباشرٌ لهذه المأساة. بل أنت من صنعتها. لن اتهمك بالخيانة التي اتهمتك بها من قبل، بل سأتهم نفسي قبلك؛ فأنا كنت شريكة في هذه الخيانة، أضعت نفسي واستنكرت مشاعري، وتعاليت على حبي لك.. من أجل الفن والمال والشهرة.

قلت له:

- حذّر.. ما سبب لقائي بك؟
- وحشتك أكيد.
- أكيد. لكن فيه سبب ثاني.

قال لها:

- ممكن مشروع فني.. فيلم، مسلسل.
- شيء قريب من هذا.
- ...
- أريد أن أكتب مذكراتي، وأنت الوحيد القادر على ذلك.

لاذ بالصمت، وكأنه يرفض إنجاز مشروعها، تذكر على الفور مسيرة البارون وسيرته الدرامية. ولو قُدّر له أن يعيد كتابتها؛ ربما تواجهه بعض المتاعب من أسرته المحافظة أو من بعض الفنانين الذين سيتناول كواليس حياتهم وخبايا علاقاتهم الفاسدة مع المشاهير.. سياسيين ورياضيين ورجال أعمال.

سألني فجأة:

- ما أخبار حياتك الجديدة؟
- أنا أعيش على ذكرياتي معك.
- والبارون أحمد قيصر؟
- لا أحمد ولا فرحات يمثلون عندي شيئًا، لقد اكتشفت أنك كنت كلَّ شيء في حياتي.

أحكم حصار عصبية الضحكة التي أطلقها، وقال:

- تريديني أصدق؟
- صدق أو لا تصدق، لكنها الحقيقة.

مسح أجواء الشقة حتى استقرت عينه على باب مغلق، ظن أنها غرفة النوم، وقال بابتسامة مشوبة بالحزن والندم:

- أصدق طبعًا. لكن الكاتب أحيانًا يعجز عندما يبدأ في الكتابة عن نفسه، سيكون حتمًا متحيزًا.

- وقد يجْلد نفسه ليكون ضحية.

انتهينا من العشاء، كنت في المطبخ عندما فوجئت به يقف خلفي، ويقول:

- آليت على نفسي ألا أكون ضحية لأحد، أو أجعل من أي إنسان ضحية لي.

همست له– محذرة:

- ولكنني ضحيتك الأولى.
- لِمَ؟
- مشهد الإغراء في أول أفلامي، وقطعت علاقتنا بسببه.

وكأنني كنت أعطه تصريحًا بالاقتراب، واقتحام قلبي. ولكنه، ظنّ أني ربما أتربص به؛ لأدفعه لدخول القلعة ثم أُحكم إغلاقها عليه، ويظل رهينة حتى ينتهي من كتابة مذكراتي.

وأنا أعطه الفُنجان مدَّ أصابعه نحو وجهي، مسد عليه، وقال:

- لم أسعَ لقطع علاقتنا. أنت ذهبتِ وتزوجتي وكان عليّ أن أبتعد، رغم ما سبب لي ذلك من ألم مريع.

أبعدت يدي في رفق، وقلت:

- أما زلت تطمع في؟

- **هل منعني من ذلك شيء؟!**

- **أجب إجابة صريحة.**

- **عندما تسألين سؤالًا صريحًا.**

لم يعد الوقت يستحق الأسئلة، والبحث عن إجابات تكون في النهاية لا تصل بنا إلى حلٍّ شافٍ.

اصطحبته نحو الصالة، وقلت له:

- **عبد الرحمن، لو عندك استعداد للزواج مني؛ سأطلب الطلاق فورًا.**

هتف– غير مصدقٍ:

- **تتكلمين جد؟!**

استرحت على فوتيل، وقلت:

- **جد الجد.**

جلس قبالتي، وكان حديثي الجاد قد أبعد شيطان الرغبة، شعرت به يتنفس الصعداء، وقد جلس مسترخيًا بيننا، وبدأت أستعيد ذاكرتي القديمة، وأردت أن أكون على مستوى قرار خطير، ترددت في اتخاذه مع نفسي. فكرت فيه كثيرًا حتى بدون وجود إنسان في حياتي.. يشغل تفكيري بقدر كبير اسمه عبد الرحمن. لم أخفِ عن نفسي أن العمر لم يبق فيه الكثير. ولا يجب أن أظلم نفسي وأنكر رغبتي، وحبي، وشوقي

إلى من أحببته حبًّا حقيقيًّا، كان عليّ أن أتخذ القرار الصحيح. ولن أهتم لتأخره ثلاثة عقود.

همس:

- وزوجتي!؟
- ستظل زوجتك.
- سيُعتبر ذلك ظلمًا لها.

ضحكت كمن استحوذت على كارت كبير في لعبة بوكر، وقلت:

- وقعت يا حلو. وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، لقد اعترفت توًّا بأنك تحبني أكثر منها ، ولن تعدل بيننا.

أطلتْ من عينيه نظرة صافية مشوبة بذكاء، وكأنه يفك رموز خطتي الجديدة للاستيلاء عليه.. للمرة الوحيدة والأخيرة، وأنا أنتظر حديثه بفضول أنثى أحكمت سيطرتها على رغبتها واشتهائها لهذا الرجل الذي يجلس أمامها. ولبرهة قصيرة، كنت أمهد الأرض لخطة جديدة، صفقة تأخرت لثلاثين عامًا، وهي زواجي من هذا الرجل. كنت أعددت نفسي جيدًا لهذه اللحظة، والتي تركت الأحداث تشكِّل مساراتها.

قلت له:

- خذ وقتك في التفكير، وكن على حذر؛ فالعمر لم يبقَ فيه الكثيرُ لنضيعه في التردد.

سألني– وهو يتناول آخر ما في الفنجان:

- وترضين أن تكوني زوجة ثانية!؟
- وثالثة، ورابعة!. لا تحمل هم ذلك، حتى زوجتك ستغضب وتثور وتترك لك البيت، ولكنها ستعود.
- من أين أتيت بهذه الثقة في أنها ستعود!.
- أنا امرأة وأعرف. ربنا حلّل الزواج وحرّم الزنا.

أمسك عبد الرحمن الفنجان، وأمعن النظر فيه وكأنه يقرأ الطالع، وقال:

- أنا موافق.
- قلت.. خذ وقتك.
- أظن ثلاثين سنة كافية للتفكير.
- أمامي شهر. سأقلّب فكرة الزواج في رأسي.

نظرتُ إليها.. إلى عينيها. مغاليق أسرارها تحسبها بعيدة عني، أنا الذي زعمت فى لحظة ما بأني شكّلت جزءًا من أحاسيسها. نعم، يقيني بأن أصابعي عبثت بمشاعرها، امتلكت شفرتها، ولملمت أجزاءً من تقطيب الجبين، جذور ابتسامة شاردة، باهتة، ضحكة مختلسة وهي تقاوم الوهن والعجز المكبّل فى مواجهة أحزان ودموعِ صادقة على عمر يشعرها بزخاتِ زمنٍ يقترب من الختام، مثل كائن خرافي يتأهب لافتراس قطرات ما تبقّى من العمر.

أردفت:

- سنوات الفراق تغيّر فيها الكثير.. أنا تغيرت، لم أعد هندًا التي عرفتها منذ سنوات الجامعة، والجلوس على سلالم المدرج والمسرح، والمظاهرات والسياسة، والشعر والحب. كل العذاب الذي تعذبته ترك بصمته على عقلي وقلبي وروحي.
- أراكِ على خير حال.
- لا تخدع نفسك، وتحاول خداعي.

لهجة اليأس والمرارة كانت تشي بالكثير، النظرة تقولها صريحة واضحة.. ابتعد، فلست هندًا التي جئت للبحث عنها، أنا كائن آخر.. غير المرأة القديمة التي كانت. لقد دفنتها في ركام الذكريات، ولم يتبقَّ منها إلا صور قديمة باهتة، أوراقي، مسرحياتي التي كنت تبعث فيها الحياة والحركة والنور على المسرح، أصوات الجماهير والتصفيق الحار، لحظة الاندماج، وانفجار الأحاسيس والمشاعر التي تحنو على القلب في لحظة جليّة من التواصل الإنساني النادر. كل هذا لم يعد له وجود، مات مع خلايا الجسد والروح التي ماتت، وحملها الغبار نحو فضاء بعيد.

التفتت نحوي، وقالت مشفقة:

- العالم تغير، وأنت كما أنت لم تتغير.
- أعرف.
- لا تريد أن تخرج من شرنقة الحلم.
- ربما أموت فيها.

احتوتني بنظرة تحمل من الدفء القديم قدرًا، عندما كان حنانها يبلل التفاصيل الصغيرة.. نظرتها، أصابعها وهي تربت على صدري، تعدل ياقة قميصي، تسوّي طرف الملاءة حولي كلما أصبت بنزلة برد حادة.

قالت:

- لم ألتقِ برجل صادق مع نفسه ومع العالم.. مثلك.
- ربما أكون من فصيلة انقرضت.
- وربما تجاوزها الزمن.

أردت أن أقول لها.. "أنا لست كما تقولين؛ فلست متسقًا مع نفسي كما تعتقدين، ولست صادقًا. أنا كاذب أشر، أحمل في أعماقي قدرًا كبيرًا من الخداع؛ لأخفي الكثير من الكذب. كل ما هنالك أنني أجيد التمثيل على الناس، وعلى نفسي لأقدم صورة براقة أسَوِّق بها نفسي كسلعة.. أسوق الصدق وأنا الكاذب.."

بعد انصرافي، كانت تطاردني فكرة الزواج من هند المصري.

** **

(٣)

عفاف همام

"ابنتي التي خرجت للوجود بمعجزة إلهية، وسط الانفجارات التي أحدثتها صواريخ سكاد وتوما هوك التي سوَّت حي الأعظمية بساكنيه بالأرض تمامًا. ولم يبقَ غير أسرتي، أنا وزوجي وابنتي التي خرجت للحياة منذ لحظات.

بعد زيارة عبد الرحمن لنا بيومين، أفصح تمردها عن وجهه اللعين. كنت أنتظرها أمام التليفزيون عندما دخلت مكفهرة الوجه، وقالت لي بلهجة صادقة:

- لقد أضعت فرصتي الوحيدة.
- ماذا؟!
- عمل بنصيحتك، وقال لي أمك عندها حق.

قلت– معتقدة أنني سأنهي هذا النقاش:

- خيرًا! ما فعل؟.

ما حدث منها كان مفاجأة صادمة؛ فقد انهارت باكية، وانفجرت بكلمات مثل طلقات طائشة:

- حرام عليكِ، أنتِ قضيْتي على مستقبلي.

واندفعت إلى غرفتها، وأغلقتها:

في صباح اليوم التالي، ترددت في طرق باب الغرفة. كان عليّ أن أعاقبها على ما بدر منها، وأنا على ثقة من أنها ستهدأ وتعتذر، وحسبت أن تجاهلها هو العقاب المناسب.

خرجت إلى عملي وأنا مطمئنة بأنها مع الوقت والانخراط في معترك الحياة ستتخلص من التفكير الطائش، وتنسى تمامًا طريق الفن والشهرة الوعر. وصلت إلى المستشفى الرئيسي، وقبل أن أدخل حجرتي، أردت أن أطمئن على حالة المرضى في العناية المركزة جراحة المخ والأعصاب. كانت كل ممرضة تجلسُ أمام المريض المسئولة عنه لمتابعته.

راجعت ملفات المرضى بنظرة سريعة، كانت خطورة بعض المرضى قد وصلت إلى مراحل حرجة، وأحدهم في حاجة لوضعه على جهاز التنفس. استدعيت دكتور التخدير مختار راضي لحقنه بعقار الفلاكسيديل الذي يعمل على ارتخاء العضلات.

دخل الدكتور، وهو يعد العقار ويسحبه إلى المحقن همس لي:

- انزعجت عندما مررت منذ خمس دقائق على مكتبك ولم أجدك.

كانت نظرات الممرضات وما تحمله من إيحاءات ليست خافية عني. وبالطبع تجاهلتها، وواصلت مساعدة الدكتور حتى انتهى من حقن المريض، وقلت للممرضة المتابعة للحالة– وأنا أخرج من الغرفة بصحبة الدكتور مختار راضي:

- أي مضاعفات تحدث؛ أبلغيني على الفور.

دكتور مختار راضي منذ انتقاله من مستشفي ناريمان "مستشفي الحضرة الجامعي للعظام" وهو يتقرب مني بشكل لفت أنظار البعض، وشاركني محاولات التصدي للإهمال والفساد والفوضى. منذ شهور قليلة، كنت ضمن اللجنة التي شُكلت لكتابة تقرير عن وضع قسم التخدير والعناية المركزة الذي يعاني من المشاكل وتداخل الاختصاصات. وقد وافق قسم جراحة المخ والأعصاب على أن يكون الإشراف الفني لقسم التخدير من اختصاصه. لكن، جاء قرار أعلى بوقف عمل اللجنة، وعدم الأخذ بتوجيهاتها. ولكني سجلت اعتراضي، وواصلت كتابة الشكاوى للمسئولين، وكشف كل نواحي التقصير والفساد، وطالبت بتوفير الأجهزة التي يحتاجها قسم العناية المركزة: المنيتور، والصدمات القلبية، والتنفس الصناعي، وعمل صيانة لشبكة الأكسجين المركزية.

بعد الشكوى الأخيرة التي طالبت فيها بإنشاء وحدة عناية مركزة متطورة وإزالة التداخل في المسئوليات الإدارية بين كلٍّ من رئيس القسم الإكلينيكي ومدير إدارة المستشفى، وتنظيم السجلات ودفاتر ملاحظة المرضى؛ اتصل بي دكتور مختار تليفونيًّا، وقال لي:

- مدام عفاف، أرجوك توقفي عن كتابة الشكاوى.
- لِمَ؟!
- لأن لا فائدة من كل هذا.

قلت– بلهجة هادئة:

- لن أتخلى عن مسئوليتي؛ لأن المرضى أمانة.

بعد أسبوعٍ من استلامه قسم التخدير، حكى لي حكايته في عجالة.

فور تخرجه من كلية الطب، رأى فتاة غاية في الجمال والروعة أثناء زيارة سريعة لعمتها في كفر عشري.. من أحياء الإسكندرية الشعبية. لاحقها ليومين، وعندما لاحظت شابًّا يملك قوامًا رياضيًّا ووسامة تجذب الأنظار، بل وجرأة لم تعهدها عندما استوقفها في اليوم الثالث، وقال لها:

- لو لم تكوني مرتبطة؛ أتمنى أن توافقي على زيارتي لأسرتك.

"تمنعتْ كما هي العادة، ولكنني واصلت إلحاحي حتى وافقت، وأعطتني عنوانها ورقم تليفون المنزل والعمل، وعرف أبوه (راضي توفيق) أن سحر فريد، هي الابنة الوحيدة لمدرس اللغة الإنجليزية (فريد عبد الحميد)، خريجة مدارس سان كلير، رشحها تفوقها في اللغات للعمل مضيفة في عدد من خطوط الطيران، وآخر شركة عملت بها قبل الزواج كانت الخطوط الجوية البريطانية **British Air Ways** .

قال مختار– وهو يسير بصحبة عفاف في حديقة المستشفى:

- سحر كانت على درجة عالية من الثقافة والجمال، ولكن جريمتها معي غرورها المريض وعصبيتها التي لا تطاق.

- لمْ تحاول علاجها؟!

- أرهقت أعصابي. ورغم ذلك حاولت، وخصوصًا عندما أنجبت ابنتي هالة، كنت على يقين من أنها ستكون ضحية أي خلاف بيننا، وأعرف بأن قرار الانفصال مؤجل. ولكنه، حدث أسرع مما توقعت، فور وفاة أبيها حاولت إنشاء شركة سياحية، وأمام الروتين والتعقيدات؛ فوجئت بسفرها مع ابنتي إلى لندن، وتركت رسالة تخبرني بأنها قدمت طلبًا للحصول على الجنسية الإنجليزية، وعليَّ أن أنساها تمامًا. وأنسى ابنتي هالة.

جلس مختار قبالتي.. أسفل برجولة عتيقة، تذكرت على الفور دموع حفني الأخيرة التي ذبحتني، واستمر جرحها في قلبي حتى الآن. قال- وقد غلبته دموعه بشكل أثار شجوني:

- عملت المستحيل، سافرت إليها في لندن، حاولت بكل الطرق استرداد ابنتي، قبلت الأرض، قبلت حذاءها. وعندما ظلت على برودها الفظيع؛ انهلت عليها ضربًا وركلًا حتى سقطتْ مغشيًّا عليها. وانطلقت في الشقة أصرخ مناديًا ابنتي هالة.. هالة. فتحت الغرف، بحثت عنها أسفل السرير، وفي الدولاب. فتشت كل سنتيمتر ولم أجدها، قفزت مثل المجنون، ورفعتها وأنا أواصل صراخي.. أين ابنتي؟ انتبهت على صرخاتي. وفجأة، فتح الباب رجلان وسيدة من أسكتلانديارد واقتادونى للتحقيق. أدركت الواقع المرعب الذي فرض نفسه عليّ. اقتنعت بأن ابنتي لن تعود لي مرة أخرى، ورجوتهم بأن أرى ابنتي قبل السفر والعودة. تدخل أحد القناصل

العاملين في سفارة مصر لإقناع سحر بأن أرى ابنتي، وتم ذلك بصعوبة حتى قال لي القنصل وهو يقدم لي موعد لقاء هالة ابنتي:

- كيف كنت تعيش مع هذه المرأة؟!

قلت له مستسلمًا:

- نصيب.

طفَتْ على ملامحه ابتسامة، واسترسل حديثه:

- عمري كله اختصر في نصف ساعة قضيته مع ابنتي. وانتابني إحساس بأن قبله لا شيء وبعده لا شيء. تعرفي يا عفاف، كلما حقنت إحدى المرضى بحقنة مخدرة؛ أشعر بأثر التخدير يسري في جسدي، وأغيب بالفعل عن الوعي.

فور خروجي من العناية المركزة، اصطحبني إلى مكتبي. رغم محاولاتي ألا أتواجد معه كثيرًا حتى لا تكون سيرتي مادة تلوكها ألسن الممرضات وطاقم العاملين في المستشفى، ورغم أنني أحافظ على المسافة بيننا، لكنه كان يملك فضيلة المواجهة، فلم يأبه بالنظرات التي يصدرها البعض. ووجدت نفسي أحكي له مشكلتي مع ابنتي عنان، فطمأنني بأنها بعد يومين ستأتي وتعتذر.

مر اليومان وأسبوع ولم تعتذر، والأدهى أنها كانت تشيح عني. وأمسكت نظرة كارهة أطلقتها نحوي، لم أتصور بأن أكون في هذا الموقف المرعب، ابنتي التي رهنت لها حياتي تكرهني!!

حاولت أن أهرب من هذه النظرة الكريهة، حاولت تجاهلها، استنكارها، أو أوهم نفسي بأنها لم تحدث، هي نظرة غضب وثورة، لم أحسب أن ابنتي تكرهني. فكرة لم تكن قابلة للتصديق.

في نوبتي الليلية، وبعد مروري على غرفة العناية المركزة. كنت أقاوم رغبته في الاتصال بابنتي، لكن ضعفت مقاومتي؛ استدعيت رقمها ولكن الهاتف كان مغلقًا، دخلت غرفتي وأنا أتأهب للنوم؛ وصل طرق على الباب، وفوجئت بمختار يفتحه، ويستأذن في الدخول.

قلت- وقد اعتراني اضطراب مفاجئ:

- خير يا دكتور مختار.
- خير طبعًا. اعتذر الدكتور نجيب عن نوبته؛ فاستدعوني بدلًا منه.
- دكتور مختار، أنا..
- أعرف.

قاطعني، وقد قرأ كل ما يضطرب به قلبي من قلق ورهبة، واستدرك:

- بعد ربع ساعة أنتظرك في البوفيه.

وهو يخطو خارجِ الغرفة، التفتَ وقال راجيًا:

- لا تتأخري.

وفور إغلاق الباب، اجتاحتني رعشة انتشرت في جسدي، لم أقدر على السيطرة عليها تمامًا، جلست على المقعد وأخذت أضغط على يدي، وصدري. وخشيت أن أفقد الوعي. كانت حالة غريبة لأول مرة أمر بها، وتأهبت لغيبوبة حتمًا ستبتلعني. بعد دقائق معدودة، وجدت نفسي أرتدي ملابسي، وأطلب من كبيرة الممرضات أن تحل مكاني لمرض مفاجئ حدث لي. وهرعت خارِج المستشفى، وأنا أستقل التاكسي. وصل رنين الموبايل، كان مختار يتعجلني، تواصل الرنين حتى خشيت أن يذهب إلى غرفتي وتراه إحدى الممرضات؛ فاضطررت للرد عليه:

- آسفة يا دكتور مختار. اعتذرت عن نوبتي، وذهبت إلى البيت.
- ....
- ....

** **

(٤)

نورا الطبري

" .... وأعتقد أننا في النهاية سنتفق على مضمون إنساني يجمعنا رغم الخلافات التي لا تمثل عندي سوى قشرة خارجية.

جلس دكتور جاك أورويل عند حافة المائدة، وأراد أن يشاركنا الاجتماع، ويدوّن بعض الملاحظات.

بعد نهاية الاجتماع، قال لي:

- بداية موفقة.
- شكرًا.

كنت أضع بعض الملفات في حقيبتي. عندما أخرج لي مؤلفه عن جلال الدين الرومي، وقال لي:

- أتمنى أن تجدي الوقت لقراءته.

تناولته في امتنان، وقلت:

- بالتأكيد. سوف أقرأه اليوم وأنا في الطريق إلى نيوجرسي.
- Ok

اصطحبني الرجل عبر الكريدور، الذي يفصل مكتبي عن المصعد، وقال بلهجة اعتذار:

- أريد أن أقول ملاحظة.

ضغط على زر المصعد، وهو يواصل بنفس اللهجة:

- رسالة الدكتوراه قرأتها مرات عدة، ورأيت أنها.. **necessary but notsufficient**" .

فتح الباب– وأنا أدخل منه قلت:

- أعرف أنها غير كافية، الفصل الدراسي بالتأكيد أكبر من رسالة دكتوراه.

لوّح الرجل بكفه في امتنان، وأغلق الباب بيننا.

طوال الطريق إلى نيوجيرسي، كنت أراجع تفاصيل خطة الفصل الدراسي. لم أشأ أن تركز على صورة الأمريكي في عيون العرب المسلمين. يقينًا، هم يعرفون تلك الصورة من مراكز أبحاثهم، كنت أريد أن أصحح الصورة الذهنية التي تواصل آلة الميديا الجبارة تكريسها، وتلصق بهم التعصب، ولم يكن ذلك إلا رفضًا للتعايش، ورفض قيم وسلوك وعقيدة الآخر، ومواصلة التسلط بكل ما يعنيه من قهر وعنف. كنت أرفض أتباع الطرق التقليدية لمحاولة تغيير الصورة السلبية. والتي فشلت أمام الميديا التي تنفق ببذخ على حرب تعتبرها مصيرية، كان ذلك إحدى الفرص النادرة

لأواجه التنين في عقر داره، مواجهة غير تقليدية، وأنا في السيارة تواصلت مع زوجي عبر الواتس أب، وهو يتأهب للنوم– قال لي:

- لأول مرة، أشعر بفراغ كبير بعد رحيلك.
- لا يمر يوم دون أن نتحدث.
- وهل يكفي يومٌ واحدٌ طمّاع مثلي.

ابتسمت له، وقلت:

- املإ الفراغ بعملك، وهذا ما أفعله، تصبح على خير.
- مع السلامة.

أغلقت الموبايل، وتواردت على عقلي أحاسيس الليلة الاستثنائية، آخر ليلة قضيتها في الإسكندرية، وتسربت إلى جسدي سخونة لذيذة استحضرت معها شوق عارم إلى زوجي، فأخرجت كتاب جلال الدين الرومي وقرأت ....

ماتبحث عنه يبحث عنك،هكذا أود أن أموت في العشق الذي أكنه إليك وأهرب نحو عينيك

في جو الحالة الروحية التي انتشرت عبر أبيات الرومي، ومع موسيقى موزارت الذي كشف لي زوجي بعض أسرارها، كنت أبحث عن إجابة لسؤال يطاردني، كيف تضع خصمك مكانك لتدعه يفكر بطريقتك، ويقف على حجم افتراءاته وأكاذيبه التي روجها ضدك؟ كان السؤال تحديًا ضخمًا بالنسبة لي. كان سؤال حياتي الوحيد

والذي شكل ملامحها، ومنعطفاتها، السؤال الذي ظللت أبحث عن إجابة له. كيف أتخلص من دور الضحية وأجبر الجلاد للحظة أن يعيش هذا الدور. دون أن أكون أنا الجلاد الذي يثأر منه. ويمارس عليه عقده المريضة؟ وحتى أطمئن لنجاح خطتي أردت أن أجربها على الدكتور جاك أورويل، أردت أن أدفعه ليتقمص دور الضحية، ضحية حقيقية، عندئذ ستحين فرصة القضاء على هذا الإحساس المريض بداخلي. كنت عاجزة عن تكوين علاقات ملائمة مع الآخرين، حتى عثرت على حبيبي وزوجي، كيف أستطيع بكلمة واحدة أن يزيح بهذا الاضطراب إلى منطقة مجهولة فارغة في أعماقي. وصارت مع الوقت قارة مجهولة، حتى قال لي: تتزوجينني؟

لحظتها لفَّني الصمت، واحتويته بنظرة عميقة. كنت أرى رجلًا للمرة الثانية في حياتي. المرة الأولى، كان أبي جثة هامدة، أودعناه في مقبرة على رابية خارج القرية، شعرت بأنني دخلت معه القبر حتى رأيته يتأمل وجهي، وينفث فيه من روحه. وعندما استوت امرأة أمامك، قلت له:

- هل تقبل أن تتزوج فلسطينية تحمل الجنسية الإسرائيلية؟

أتذكر هذا الحديث فتنتابني هزة مفاجئة. وتتردد كلمة "إسرائيلية" في أذني فتزيد توتري. ومع الوقت والبحث والقراءة، اتضحت دلالات جديدة لم أكن على علم بها. لقد كنت أذكر نفسي بالهوية التي فرضت نفسها، وحاولت طوال سنوات طفولتي وصباي أن تجبرني على الاعتراف بها، ولكنني رفضت وأجبرت نفسي على

رفضها، وأنا أرددها للرجل الذي أخرجني من قبر أبي، وكأنني كنت أختبر حقيقة اختياره، هل هو بالفعل يريدني زوجة؟!

أنا أشـــبه أنا وأحدُنا يشبه الآخر

كان وجود زوجي معي رغم المسافات التي تفصل بيننا. ضمانة لمواصلة الخطة بنجاح، كنت أعرف قضيته التي رهن لها حياته، كل إشكالياته الفكرية والفنية. احتوتني رسالته العميقة، وظل مضمونها حاضرًا في كل أفكاري.

اقتربت السيارة، لا تزال موسيقى موزارت وأشعار جلال الدين الرومي تنساب داخل روحي، وتستقر في قلبي.

كنـــت أســـمع اســـمي ولا أرى نفسي

كنت منشغلًا بنفسي لكني لم أبدأ، لم أكن مستحقًّا لها

وحين كان وخـرجت من نفسي وصـرت .. نفسي

وصلتُ بيت عمتي عين الحياة التي كانت أشبه الأخوة والأخوات التسعة بأبي، وطوال كل لقاءاتنا المتباعدة كنت أستحضره أشعر به . وصوتها الذي ضغطت عليه خشونة الشيخوخة؛ أوهمت نفسي بأنه لا يختلف كثيرًا عن صوته، الصورة والصوت كانا دومًا يستدعيان شوارع فلسطين.. الحارات، والدور، والأبواب العتيقة، المساجد، والكنائس، والقباب، كنت أصعد بالوهم حتى أجدني أسير وألتقي مع

بشر، وهم يجتازون الشوارع الترابية نحو حقولهم، تلك الصور التي رأيتها في فيلم تسجيلي. وفي النهاية، ينزل العلم البريطاني.. علم الاحتلال، ويُرفع العلم الإسرائيلي.

قمت بإعداد القهوة. وأنا أقدم الفنجان لها، شاهدت على شاشة التليفزيون تقريرًا سريعًا عن مؤسسة البارون. كانت لقطات سقوط روان في مطار **McCarran** والمذيعة تصرخ عبر المايك، تابعت الشائعات التي تناثرت عبر مواقع التواصل الاجتماعي عن تناول مس روان للعقاقير المخدرة. كان يقطع هذا الصراخ صحفيٌّ يهاجم رجال الأمن، ويصرخ في وجهها بشكل جنوني؟!

على المواقع الإلكترونية، كان الحدث يشغل مساحة كبيرة، قد سجل نسبة متابعة عالية، وقطعت منه عند عرضه على قناة الـ **CNN** اللقطة الأخيرة عندما أخذت روان المايك من المذيعة وقالت متحدية: أنا لا أتناول أي مسكرات. ولا أدخن ..

على الفور غمرتنى موجة من الشكوك، وقفز سؤال واضح محدد.. هل جاء الدور على روان قيصر للتخلص منها بعد التخلص من أبيها البارون أحمد قيصر؟!

كان السؤال.. مزعجًا، ومقلقًا، ومرعبًا.

** **

الفصل السابع

(١)

عبد الرحمن

" وكأنني قد تقمصت شخصية فاوست تمامًا، وبتُّ مرغمًا على السير وراء مفستوفيلس. كنت في حيرة حقيقية.. حيرة تفتك بي وتدفعني نحو حالة من التردد المريع القاتل، وماذا لو حدث وتزوجتها!؟ هل ستغفر نورا جريمتي في حقها؟! بالتأكيد لا، لن تغفر لي طعنتي لها في كرامتها وكبريائها؛ فأنا بالنسبة لها كل شيء، من أعطى لوجودها حقيقة وحياتها معنى، وجعلها تشعر بذاتها.

برغم الحيرة والتردد، كانت عاطفة قديمة تستيقظ وتدفع بي نحو مغامرة جديدة، مغامرة من نوعٍ خاص. استعيض بها عن قرار كان عليّ أن أتخذه منذ ثلاثين سنة وفشلت في اتخاذه. كانت فكرة اتخاذه الآن كارثة.. ربما لا أقدر على تحمل نتائجها.

وهي تصطحبني نحو الباب– قالت لي:

- لا تنس موضوعِ مذكراتي.
- اطمئني.

خرجت وقد تملكتني رغبة قوية في الاندفاع في الطريق حتى نهايته. كنت أعي أنني أردت هند المصري، وكم راودتها عن نفسها مرات عدة. ولكنها كانت تحول دون

النيل منها، باعدتنا الأيام، وظننت للحظة أن لقاءنا مرة أخرى محض خيال. عندما رأيت صورتها التي التقطها البعض وأضافوا الرتوش عن طريق الفوتوشوب الذي حوَّلها إلى مومياء قبيحة تدعو للرثاء. لكن الليلة، كانت أجمل نساء الأرض، هل كنت أراها بعيني أنا.. جميلة.. مثيرة بشكل فاحش؟، أم كانت عين مفستوفيلس هي التي تراها؟! لقد أتقنت لعبة إظهار جمالها الطاغي. وأنا أقود سيارتي على الكورنيش، لم تفارقني صورتها. لقد استطاعت أن تعود بالزمن إلى لحظة قديمة وأعادتني معها، غمرني ذلك الإحساس المغرِق في التجريد، ووقعت في مساحة الوهم، وفقدت القدرة على استخدام اللغة، بت عاجزًا عن الكلام، رافضًا للحديث؛ فقد اكتشفت أنها انتصرت كعادتها في كل معاركها معي. وهذه المرة، كان انتصارًا ساحقًا بالضربة القاضية. كنت عاجزًا تمامًا عن مقاومة أنوثتها، حاولت الهروب إلى "عنان"، واحتواني على التوِّ إحساس بالندم مما سببته لها من ألم، ولكن العزاء الوحيد كان خوفي عليها من هذا الطريق الذي يسلبك كل شيء. طريق ملئ بالألم والدموع، وفي النهاية تكتشف أنك أضعت العمر هباءً.

في المساء، تواصلت مع زوجتي عن طريق الواتس أب، بدت مهمومة تحاول أن تخفي شيئًا، أو ربما أنا الذي أردت أن أخفي أمر زيارتي لهند، واندفاعي في مغامرة مجنونة ما كان لها أن تكون "مغامرة" لو حدثت منذ ثلاثين سنة، لكن طمأنت نفسي بأن نورا مشغولة بإعداد خطة التدريس في الجامعة، وبالتأكيد انشغالها سيحول بينها وبين ملاحظة معاناتي.

استحوذت على قلبي شجاعة الاعتراف، وماذا لو تزوجت هند وغضبت نورا!، صرخت! وصفعتني على وجهي!، بل ووصل الأمر لتهديدي بالقتل!، حتمًا مع الوقت ستهدأ. ولو أصرت على الطلاق، بالتأكيد سأرفض، وهي لن تتمادى وتصر على الانفصال.

هدأت فور استقراري على هذا القرار، وكأنني كنت أوجد الذريعة وأمهد الأجواء للقاء هند دون تردد أو أي شعور بالذنب.

دعوتها بعد يومين إلى المسرح، واصطحبتها بعد البروفا لتناول العشاء في مطعم الخديوي، وضمتنا نفس المائدة. جلست على نفس المقعد الذي جلست عليه عنان منذ أسبوعين. في هذه المرة، لم تكن مرآة أرى فيها نفسي الأرستقراطي النبيل، كان فقط عمودًا رومانيًّا أنتزع قسرًا من أطلال قصر البارون عمر طوسون، ولكن الإحساس كان شاسعًا؛ فقد همست بوجه يطفح بالامتنان والرضا:

- حقيقي، أنت روعة يا عبد الرحمن.
- مفروض نعيش دور المخطوبين.
- لا تنس أني على ذمة رجل.

أومأت برأسي، وقلت:

- أنا أعد الشهر باليوم.
- صبرت أكثر من ربع قرن؛ اصبر الباقي.
- سأصبر.

كنت أعرف مسبقًا بأن حبنا الذي صمد كل هذه السنوات أمام الأحداث الصاخبة؛ قادر على أن يواجه العالم أجمع. وأنا أحشد كل ما في قلبي لألقي به على المائدة؛ أقول لها بكل جنون وصوت عال مثل المراهقين.. أحبك، أحبك. كنت أراها بعين شهوتي.. عين مفستوفيلس، امرأة دسمة، مغموسة في أنوثة استوت على نار هادئة، فبدت في كمال الاستعداد لترويض أية نزوة، وأي اندفاع جنوني، حتى لو ارتكبت حماقة كانت قادرة على احتوائها.

والمترودوتيل يضع أطباق العشاء على المائدة، كان صوت أم كلثوم ينساب في عذوبة:

أنا لما حبيتك خطر على بالي اللي جرالي واللي راح يجرالي

قالت:

- أنت صنعت فيَّ معروفًا كبيرًا.

أشرت لها لتأكل وهي تسترسل حديثها:

- كنت في حاجة ماسة لهذه الجلسة حتى تهدأ أعصابي، وأبدأ أحكي لك.
- حكايتك!
- نعم.
- أنا أعرفها، كل تفاصيلها عندي.
- يوجد الكثير لا تعرفه.

- أنا لا أريد أن أعرف إلا شيئًا واحدًا.
- ما هو؟
- هل فكرتِ في الانتحار عندما رفضت الزواج منك.

ضحكت، وقالت:

- أولًا هذا السؤال لك؛ لأنني أنا التي رفضت الزواج منك.
- لم أفكر في الانتحار. فكرت فيما هو أقسى وأمَرّ.
- يااااه !! ماذا؟!
- الانتظار.

شملتني بنظرة حانية، وهمست:

- يا حبيبي.

اتكأت بذراعي على المائدة، وقلت:

- تصدقي أنها المرة الأولى التي تقولين لي يا حبيبي؟!
- أول مرة!، بالتأكيد لا. قلتها كثيرًا.
- لكن أول مرة أسمعها.
- وأنا لم أقلها لأحد غيرك.

ران الصمت على المائدة. ودامت النظرات الشرهة الجائعة وصوت أم كلثوم...

بالحب واحدة أنت غالي عليا   بالحب واحدة أنت ضي عنيا

كانت نظرتي تراودها عن نفسها. وهي تحدد كل تفاصيل وجهها النابض بالأنوثة.. العينان الساحرتان اللتان لم يستطع الزمن أن يخفي ما فيهما من رغبة، الشفاه التي تحمل رغبة حارقة كقنبلة موقوتة تكاد تنفجر فور اقترابي منها، توقظني رغبة كاسحة. شعرت بها كالمارد الذي استيقظ

فجأة بعد سنوات من الكبت والتجاهل؛ كانت تعيدني إلى سنوات خلت.

شملتها بنظرة حارقة، وقلت:

- اطلبي الطلاق الآن، وسنتزوج على الفور.

هزت رأسها، وقد تهاوت كل قضبان التمنع والقدرة على السيطرة، وكَسَتْ وجهها حمرة، وهمست:

- أظن بعد الطلاق لابد من مرور شهور العدة.

حملت حقيبتها، وقالت:

- كفى، هيا لقد تأخرنا.

خيم الصمت، والسيارة تسير على غير هدى، عبرت شارع محمد كريم من المنشية . ألقيت نظرة على الجندي المجهول بالقرب من شارع فرنسا وسوق ليبيا، ثم عاودت التهامها بنظرتي وأنا أقود السيارة، قالت لي في رفق:

- انتبه للطريق.

ضغطتُ على الفرامل، كنا قريبين وهدير الأمواج يتناهى، ولزوجة الهواء مغموسة بيود البحر. وعلى بعد خمسين مترًا من شقتها وفي لحظة واحدة. نعم لحظة واحدة، انهار كل شيء، كل مقاومة وقدرة على التحمل. فجأة، انهلت عليها، ضممتها بكل عنف وقوة، ورغبة. قاومت في البداية، ثم.. استسلمت. وعلى الضوء الأحمر الخافت للعدادات كـ.. كـ.. كشـ كشفتُ عن صدرها، ثم.. ثم ااااا. توقف كل شيء. سكن.. هدأ.. انطفأ.. تراجع عطر جسدها أمام رائحة اليود النفاذة، وأمام شعور بالإثم، تهاوت قبضتي التي حاصرتها، ومدت أصابعها بعد لحظة من سكون غطت صدرها، واكتست ملامحها بشعور ثقيل بالندم.

** **

(٢)

روان قيصر

"بعد يومين، كان الملف على مكتبي، وأنا الوحيدة في العالم الذي كنت أدرك كم في هذه المانشتات والعناوين من كذب وافتراء، وتحامل.. يصل إلى حد الجريمة. وعلى الفور طلبت اجتماعًا مع المسئولين الكبار بالمؤسسة، انشغل "ديكسلر فورد" بوضع جدول الاجتماع، وأنا أطمئن على سعر أسهم شركاتي في البورصات العالمية. كانت توجد بعض الخسائر وهبوط في عدد من أسهمها.

طرق باب مكتبي "ديكسلر فورد"، وقال:

- الاجتماع بعد خمس دقائق.

أشرت له، وأنا أخرج من مكتبي:

- بعد الاجتماع، حدد موعدًا مع مسئول المكتب القانوني.

كان على وشك أن يكون اجتماعًا عاصفًا، خيَّم التوتر عليّ بعض الأوقات، وضبطت أعصابي، ومنعت أية محاولة للخروج على النظام والانحراف إلى موضوعات جانبية، أعدت كل شيء إلى نصابه.

رفع أحدهم جريدة صفراء، وهو يشير إلى المانشيت الرئيسي:

- لم يسأل أحد في أمريكا هذه السيدة عن مصادر ثروتها! وقال لا بد من الإجابة.

وقال آخر بلهجة هادئة:

- يطلب الإجابة من الحكومة الفيدرالية، وبيوت المال والبنوك والشركات العاملة معنا.

قال ديكسلر فورد:

- أرسلت للصحافة أنبهها إلى أن الحكومة والقانون في أمريكا يعرف مصدر كل دولار في مؤسسة البارون.

قلت لهم:

- كل هذا لا يكفي، من يشنون هذه الحملة القذرة بالتأكيد أعدوا لها جيدًا.

تفحصت الوجوه، وأنا أواصل حديثي:

- وكنت على علم بذلك.

أخرجت بطاقة وحركتها بين أصابعي، وتذكرت.

....

بعد وفاة أبي، وفور التوقيع على عقود الاتفاق مع رؤساء مجلس إدارة شركات ومديرين يمثلون منظمات مالية عالمية كانت تتناثر فيها أسهم مؤسسة البارون؛ فوجئت برجل قعيد على كرسي متحرك يقترب مني، ويقول:

- سيدة روان.
- نعم.

أخرج الرجل بطاقته، وقال– هو يطلعني عليها:

- إرخ زيجا، مسئول سابق فرع الأشتازي "الشرطة السرية في ألمانيا الشرقية".

تحفظت في التفوه بالسؤال، وواصل الرجل..

- أنا أقدِّم خدماتي لمن يريد. وأتعابي زهيدة جدًّا.
- شكرًا.

وقبل أن أستدير لإنهاء اللقاء، استوقفني:

- دقيقة لو سمحتي.

التفتُّ إليه؛ فواصل حديثه:

- قدمت بعض الخدمات لوالدك البارون. وكم أحزنتني نهايته، وأرى من حقي النصيحة. ابنة البارون لا يجب أن تسبح خارج السرب حتى لا تتعرض للخطر.

احتويت الرجل ومقعده المتحرك بنظرة لم تعن شيئًا محددًا وقتها، لكن كانت صورة الكسندر رودربجو حاضرة خلال هذا اللقاء، وكأن أذنه تسمع وعينه ترى. خلال دقائق ثلاث، مدة لقائي مع إرخ زيجا؛ أدركت أن المافيا تتبع خطواتي تتنصت على أسراري، ووصل بي التفكير إلى حدِّ ظننته في حينه غاية في السخافة.. فلابد أنهم لم تقتصر مراقبتهم على زرع كاميرات خفية في كل أجزاء فيلتي.. بكل غرفها، الحديقة، والحمام، حتى الأطباق، وحقيبة اليد، وفي سيارتي، ومقعدي، وبالتأكيد مكتبي، بل وفي كل زوايا المؤسسة، وربما دسوا في جسدي شريحة مجهرية "ميكرو شيب" استقرت في مكان ما لتنقل أسراري.

وإن كانت هذه الأفكار تبدو سخيفة؛ فلم أستبعدها من تفكيري، لم أعطها اهتمامًا أضغط به على سياق التفكير الطبيعي ومنحت القدرة الـ **Automatic processing** على ترتيب المعلومات بدون وعي مني؛ فقد استقر تفكيري، هؤلاء الأشرار حتمًا سيستثمرون إدارتي لزيادة أرصدتهم المتناثرة في قارات العالم. وبالتأكيد أعدوا سيناريو للتخلص مني في صورة " **deal** " سيربحون منه على نخب جثتي. منذ تلك اللحظة، وأنا أبتعد عن إرخ زيجا، واصلت التدريب للحظة الثأر. وأحطت مساحة من عقلي حتى تمكنت من التحكم في كل مشاعري وردود أفعالي.

سألني ديكسلر فورد:

- وهل من خطط لمواجهة هذه الحملة؟
- جمعتكم لمناقشة ذلك.

تفحصت وجوه الجميع، وسألت:

- أريد أن أعرف اقتراحاتكم لنفكر معًا بصوت عالٍ.

تناثرت بعض الكلمات والأحاديث الجانبية، فطرقت بيدي المائدة، وقلت:

- من الأفضل أن نستمع معًا ماذا نقول.

قال الرجل الذي رفع الجريدة الصفراء:

- الرد بالمثل.

واصل الرجل اقتراحه:

- اختيار شركة إعلامية.. وتكليفها بحملة للرد.

قال ديكسلر فورد:

- اقتراح لا بأس به.

قلت للجميع:

- نبدأ التنفيذ حالًا. أريد حملة مدوية عن حجم أعمالي والنجاحات التي حققتها مؤسسة البارون، ونشر الميزانيات التي تظهر بالأرقام الأرباحَ الضخمة التي حققتها.

قال الرجل صاحب الاقتراح:

- ولا ننس الاتفاق على التواجد بكثافة في عدد كبير من البرامج، ونعيد بث المواد المصورة لتواجدك وكلمتك أمام آخر مؤتمر اقتصادي، والمؤتمرات السابقة. وننشر البيانات الختامية للبارون منذ إنشائها. ومن المهم إظهارك في بعض البرامج في أجمل صورة.

وأنا أشير إلى الجميع ببداية التنفيذ، طرقت سكرتيرتي الباب، وقدمت لي بطاقة، وهمست في أذني:

- رجلان من الـ FBI في انتظارك.

التفت إلى الجميع، وقلت:

- انتهى الاجتماع.

قلت لديكسلر فورد جانبًا:

- اتصل بمكتب الاستشارات القانونية حالًا.

......

وأنا أسير بصحبة الشرطيين نحو السيارة فوجئت بنفس الحشد من الصحافيين، ونفس المذيعة تواصل صراخها في المايك، وانهالت فلاشات التصوير. وأنا أبذل طاقة خرافية للحفاظ على توازني؛ فوجئت بديفيد بيك يظهر فجأة، ويقول لي:

- اطمئني؛ سأكون معك.

ركبت السيارة وانطلق بي الشرطيان.

** **

(٣)

فرحات أبو العز

تبين من التحقيق أن المؤسسة تعمل بغير لوائح مالية أو تجارية، واكتفت بإرسال خطابات إلى المدير المالي بوجوب إعداد هذه اللوائح. وبلغ الاستهتار إلى حد أن موجودات الشركة لم تجرد منذ إنشائها، وعندما تم الجرد؛ أسفر عن عجز قدرة مليون جنيهًا.

.......،

".. أشعر بأنني إنسان عاجز. مسلوب الإرادة تمامًا. بل وعديم القيمة، وأنا أرى "حسن البدوي" وعصابته يواصلون النهب والسرقة، وكم تمنيت في أحلام اليقظة أن أفجرهم لحظة اجتماعهم وهم يديرون أمر سرقة جديدة، وأقضي عليهم."

منذ إذعاني لأمر أبى بعدم السفر مع المقاومة في مدن القناة ضد العدوان الثلاثي، وتهديده بطردي من البيت، واصل تسلطه واستمر في إذعاني. اختار لي كلية الهندسة والعمل في القطاع العام حتى الزوجة كانت من اختياره، ولم أعرف طوال حياتنا معًا، هل كانت جميلة حقًّا؟! هل كانت تحبني حقًّا؟! هل كانت طوع أمري، أم أنا الذي كنت طوع أمرها؟

عندما توفي الحاج خميس أبو العز، انتابني شعور كاسح بالعجز. اعتبره الجميع حزنًا على الأب الذي كان يقود حياتي. وبعد وفاته، تحولت إلى سيارة معطوبة عاجزة

عن الحركة، قال لي الوزير.. "سيب لي نفسك". كان يدرك حقيقة مشاعري، وعجزي الكامل. واتفقت معه أمي "ضحى هانم" على أن يتولى قيادتي. فأنا لم أتدرب على اتخاذ قرارات مصيرية. وبعد مولد ابنى "عز" وأنا أتأمله قطعة لحم حمراء يصدر بكاءً، وتهتز أطرافه في ضعف، شعرت بأنني أولد في نفس اللحظة، قلت لزوجتي وأمي- وقد برقت عيني بالدموع- أصبح "عز" هو حياتي، كل شيء، كل معنى جديد، ووعيي يتشكل على هدوء دون إذعان أو قهر. أهملت عملي في الوزارة، تغيبت لأسابيع، وكان حماي العزيز يكتفي بالاتصال تليفونيًّا يبلغني بأنه قد تم التوقيع لي في دفتر الحضور، وضم اسمي إلى عدد من اللجان للحصول على بدلاتها النقدية.

كنت أذهب يوميًّا إلى النادي. ومع الوقت، كونت شلة من الأصدقاء معظمهم من العاطلين بالوراثة، أو مثلي عاطلين باختيارهم، وتوطدت علاقتي بالدكتور وحيد فرج.

في أحد الأمسيات الخريفية، كانت أوراق الشجر الذابلة تملأ الممشى حيث اصطحبته نحو كشك الشاي عندما قال لي:

- تعرف ياباشمهندس فرحات ما حدث لك تدمير إن لم يكن ماديًّا فهو تدمير معنوي للجسم اللوزي " **Amyg dala** " في مخك. وهذا.. "سوري" حوَّلك إلى حيوان أليف.

كانت صداقتنا قد توطدت إلى حد كبير لدرجة تسمح له بتشبيهي بحيوان أليف. وأرد عليه التشبيه ساخرًا: مثلك تمامًا.

ضحك وحيد، وقال:

- أليف معك فقط.

جلسنا إلى خوان عليه مفرش لامع وصورة سفينة وبحر هادئ.

قلت– مؤيدًا ما قاله:

- للأسف، ما قلته هو الحقيقة.

أشار صديقي للجرسون، وطلب شايًا وماءً باردًا، ثم التفت نحوي، وقال:

- أجريت على حيوانات تجارب جراحة إزالة الجسم اللوزي "oh mig–dah–la " حوَّل الحيوانات العدوانية تمامًا إلى حيوانات أليفة، وقابلة للتعلم.

قلت في اهتمام، وكأنني أدافع عن نفسي ضد اتهام:

- حاولوا معي، وفشلوا.
- حاولوا يعلموك أمور السرقة والنصب؟
- نعم.
- لم يفشلوا.
- كيف؟

- أجبروك على الصمت، والساكت عن الحق شيطان أخرس. لقد نجحوا في إسكاتك. ويقينًا قبضت ثمن صمتك.

كانت فرصة مواتية وهو يرشف من كوب الشاي لأن أعترف بالحقيقة التي تمثِّل شوكة في حلقي:

- تقصد نجحوا في شرائي.
- أيًّا كان التعبير، المهم أخرسوك.
- ألا توجد فرصة للنجاة بما تبقى مني؟، هذا لو وجد!
- الحل الوحيد هو الاستقالة من عملك في هذه المغارة.

أضاءت نصيحة صديقي دكتور وحيد فرج الطريق أمامي. كان ابني "أبو العز" هو همي الأكبر. أردت أن أطهره منذ البداية، وأنفق عليه من مال حلال.

في المساء، ضمتنا مائدة ونحن نتناول العشاء، قلت لأمي وزوجتي:

- أنا أفكر في الاستقالة.

التفتت هدى زوجتي نحو أمي بملامح متسائلة، قالت الأم– وهي تكظم غيظها تحت غطاء من البرود المتوارث:

- أنا تعودت على قراراتك الخائبة.

دفعت قطعة بانيه إلى فمها، وقالت:

- ماذا حدث؟
- سأستقل بشركة " FAZ ." المستقبل للقطاع الخاص.
- ستفشل؛ لأنك بلا خبرة، وتبدد أموالك.
- التعليم بثمن.

كشرت عن أنيابها، وقالت:

- فعلًا مجنون.

وصرخت على السفرجي:

- أمين.

أسرِع الرجل، وقال ممتثلًا:

- أمرك يا هانم.
- أنا في التراس. قهوة سادة بسرعة.

وأسرعت بمساعدة عكازها.

عقدت العزم لأول مرة في حياتي على الإصرار على قراري مهما كانت النتائج؛ لأنني على يقين من أن تراجعي عن موقفي سيكون جريمة في حق ابني، وسوف يتم إخراسي إلى الأبد.

قالت هدى– وهي ترجوني:

- نينة كبيرة وعنيدة. لا تعارضها.

تأملت وجه زوجتي، ولأول مرة أكتشف أنها قد تم إخراسها هي الأخرى، جبُلت على الإذعان والطاعة العمياء مثلي تمامًا، كان اكتشافي لحظة مثالية؛ لأفتح قلبي لها:

– هدى، أنتِ تعلمين تمامًا أن ثروة أبي وأبيك جُمعت بطرقٍ ملتوية.. تحايل، نصب، سرقة.

اكتسى وجهها بالغضب، وقالت مستنكرة في بلاهة:

- فرحات، ماذا تقول؟!
- الإدارة التي أرأسها في وزارة أبيكِ مرتعٌ للصوص.
- كذب!
- وصلت للرئيس عبد الناصر تقاريرٌ بالمخالفات، وكان أبوك على وشك التقديم للمحاكمة، ولكن مُنح فرصة أخرى، وتدخل بعض المتورطين النافذين لإنقاذه.
- كلام فارغ!
- أنا لا أريد أن يدخل جسدَ ابني قرشٌ حرام.
- ....

سالت دموع العجز والخوف من الاعتراف بأن ما قلته هو الحقيقة. تركتني وأسرعت نحو غرفة الطفل، فأسرعتُ نحوها، وقبل دخول الغرفة خرجت أمي من الترّاس، وأشارت لي:

- تعال.

....

احتويتُ أمي بنظرة عطف، كنت أصرُّ على إرضائها، ولا أغضب قلبها الذي لا يحب أحدًا غيري.

قلت:

- ماما.
- تراجع عن قرار الاستقالة.
- ماما، ممكن تسمعيني؟
- لو لم تتراجع سيَغضبُ قلبي عليك.
- مستحيل يغضب قلبك عليّ.

اقتربت منها، ضممْت كتفيها في هدوء، واحتويتها بنظرة عامرة بالحنان، وقلت:

- المرحوم أبي قال نصيحة هي شعار حياتي.
- ليتك حصّلت ربعَه.

استرسلتُ متجاوزًا ما قالته:

- ..... عندما سحبَ أمواله من بورصة مينا البصل وقطع علاقته بالتجار اليهود، قال لي: "انتبه قبل مؤشرات الخطر، وابتعد؛ تضمن النجاة"

انتبهتْ وسألتني:

- ماذا تريد؟
- الخطر يقترب من حسن البدوي، ويوجد تقارير عن فساد الوزارة على مكتب جمال عبد الناصر، وسوف يُطاح به عاجلًا أم آجلًا. وإذا لم أبتعد الآن قد ألبس تهمة وأُسجن.
- وهل يُسمح للقطاع الخاص بالعمل في ظل الأوضاع القائمة.
- سأفعل كما فعل أبي، سأحتفظ بالجزء الأكبر من الأموال السائلة. ولضمان حمايتها؛ سأشتري فيللا باسمك في الفيوم، وتوضع فيها الأموال. وسأحاول إصلاح محطات الوقود المنتشرة على الطريق الصحراوي، والعلمين، والسويس، وخط الصعيد. ولا مانع من تجديد ترخيص محجر الكريمات.

استراحت ملامح أمي، وهي تقول:

- ربنا معك.

كنت على وشك أن أقول، أريد تربية ابني من مال حلال، ولكنني اكتفيت بوضع قبلة على جبينها، ودخلت غرفة ابني الحبيب.."

** **

بعد سنة واحدة من الاستقالة، حدثت الهزيمة التي أطاحت بالحلم الناصري. ووجد فرحات نفسَه لأول مرة يبكي بحرقة. صرخ في الهول في وجه زوجته وأمه: " *أنا السبب، كلنا السبب، بعنا القضية. كان في استطاعتنا منع الهزيمة، ولكننا تركنا الساحة، وملأنا الحياة بالخطب والمواويل والأغنيات الفارغة*"

تعرضت أعمالُه لهزة عنيفة، وتوالت الخسائر بعد استيلاء القوات المسلحة على المحجر، وأقامت معسكرًا للتدريب. واستلم شيكَ التعويض غيرَ قابل للصرف إلا بعد إزالة آثار العدوان.

قبل حلول عام ١٩٦٨، ماتت الأم بعد معاناة استمرت شهرين، بعد اكتشاف سرطان الكبد في مراحل متأخرة، لم يُفلح معه علاجٌ بسبب التليف الذي قضى على كل شيء، وانتشر في الجسد.

في عمليات بناء الجيش المصري، تم إسناد بعض الإنشاءات لشركة " **FAZ** " للمقاولات على خط القناة، وحرب الاستنزاف على أشدها، كان المهندس فرحات في قمة الحماس. في جلساته اليومية في النادي، كان يقول لصديقه دكتور وحيد فرج:

- قريبًا، سنغسل عار الهزيمة. الجيش والدولة والشعب والقيادة لم يعد لها هدفٌ غير هزيمة إسرائيل.

يرد صديقه، وهو يشمله بنظرة هادئة:

- أنت رجل أعمال، ولست خبيرًا عسكريًّا.
- أنا مع الجيش كل وقت، وحضرت مناقشة بناء حائط الصواريخ مع ضباط كبار في سلاح المهندسين للدفاع عن البلد.

عندما اضطر عبد الناصر قبول مبادرة روجرز بعد مماطلة الاتحاد السوفيتي في شحن المساعدات العسكرية إلى مصر، وقذف الطيران الإسرائيلي أبو زعبل ومعسكر دهشور على بعد دقائق من القاهرة.

صرخ فرحات في عصبية:

- ما فعله عبد الناصر خيانةٌ يا دكتور حسن.
- فكر بهدوء، ما فعله لم يكن أمامه غيره يا باشمهندس. فرحات، دعِ الحماس والعواطف جانبًا. إسرائيل محميّة دولية من الروس قبل الأمريكان، والغرب كله يقف وراءها، ولن يسمح لأحد بهزيمتها.

انفجر في عصبية:

- مستحيل.
- هذه هي الحقيقة للأسف. الروس خدعوا عبد الناصر، وها هم يرغمونه على الركوع، إنها السياسة يا صديقي، ليس فيها مجالٌ لكلمة شرف.

توفي الرئيس عبد الناصر، وبكى عليه فرحات كما بكى أبويه، ومع مظاهرات العمال والطلبة ومطالبات القوى السياسية بالحرب؛ كانت هدى تضع مولدتها الثانية

"ميرفت". وبعد أسبوعٍ من الوضع، لفظت الأم أنفاسَها على إثر حمَّى لم يتحملها جسدُها الضعيف، وشعر فرحات بالفراغ القاتل. ولأول مرة، يدرك بأن زوجته الراحلة كانت تملأ عليه الدنيا، طيف عابرٌ في سماء حياته، ضيف زارهم ثم رحل وتركهم. كان بكاء ابنه "أبو العز" فوق طاقة احتماله، وللهروب من ضغط الحزن والكآبة الذي عشَّش بطيوره السوداء؛ قرر السفر إلى السعودية لأداء مناسك الحج. وبعد الانتهاء منها وتأهبه للعودة وجد أحد المسئولين السعوديين يطلب منه إرجاء السفر ليومين ليكون مستعدًّا للقاء أحد الأمراء المسئولين.

** **

(٤)

عفاف همام

"كان لا بد من تصفية الأجواء، والقضاء على هذا الجو المشحون والمهيئ للانفجار في أية لحظة. وترددت خوفًا من انهياري أمامها؛ فلن أتحمل صدودها، وربما أفقد أعصابي وأضربها، واستوقفني السؤال: وما العمل؟ وكان العجز عن الإجابة سببًا قويًّا لطلب العون من الدكتور مختار راضي رغم صدي لمحاولات التودد لي، لم أشأ أن يصل بتودده إلى طلب الزواج مني.

....

في ليلة اعتذاري عن نوبتي وهروبي من الجلوس معه في بوفيه المستشفى، وصلت البيت منهارة تمامًا. لمحت ابنتي في المطبخ وأنا أندفع إلى غرفتي، دخلت وأغلقت الباب ورائي، وقد قبض القلق بأنيابه على كل أعصابي، شعرت بصعوبة في التنفس، وتصبب من جسدي تيارٌ من العرق البارد. ومع ارتفاع دقات القلب، كنت أنزلق نحو الغيبوبة، وأنا أشعر بدوَّار، كان ثمة طرق على الباب، ونداء.. ماما. تكرر النداء، والطرق العنيف المتواصل، وأنا أغمض عيني، غِبتُ عن الوعي"

رأتْ أنَّها معلقة بخيطٍ واهٍ مثل خيط العنكبوت، تهبط في جبٍّ ليس له قرار. كانت صور مبتورة ومواقف وكلمات، ضحكات وصرخات، ووجوه أصدقاء، بشر وكوماندوز، وصدام حسين يخطب، والطائرات تدكُّ العراق، والصواريخ تتواصل ليل نهار، ووزير الإعلام محمد سعيد الصحاف يتحدث عن العلوج الأمريكان، وجاك

دبليو بوش وأمريكا راعية الإرهاب في العالم. وفجأة، وجدتْه أمامها حفني ندا السعيد زوجها يشيخُ عنها ويولّي هاربًا، تخيلته يحمل مقعدًا أثريًّا عليه نقوش بابلية من أحد متاحف بغداد، أسرعت وراء سيارة، كانت جثث الجنود على جانبي الطريق، ونباح كلاب يصل من بعيد، وطيور جارحة تحلق في السماء.

وعندما اختفى كل شيء كانت تقاوم وتأخذ شهيقًا عميقًا، فتحت عينيها في ضعف، فرأت ابنتها تمسك يدها، وتبكي وهي تردد:

- ماما، ماما، قومي يا حبيبتي.
- عنان.
- ماذا جرى؟ في حاجة في المستشفى!.
- المستشفى بخير، جرى في بيتي ما لم أتوقعه أبدًا، جرى من ابنتي.

قبَّلت عنان يدَ أمها، ورأسها، وانحنت لتقبِّل قدمها، فرفعتها الأم الخارجة توًّا من غيبوبتها، وقالت:

- تخاصميني!
- آسفة.
- خصامك ذبحني.
- آسفة يا ماما، أنا منذ اليوم لن أفكر في الفن. ولا في أي حاجة تضايقك. لو حدث لك– بعيد الشر– سوء سأموت.

ضمَّت الأم رأسَ ابنتها، وقبلتها في حنان.

......

"عدت إلى المستشفى، وحدثتْ عدة مفاجآت غير سارة، فقد توفي مريض التنفس الصناعي بعد حقنه بالديكادرون، ولحق به ثلاثة مرضى، وأنا أستقر في مكتبي بعد ساعات العمل المرهقة. اتصل بي دكتور مختار، وقال راجيًا:

- عفاف، ضروري أقابلك خارج المستشفى.

قبل أن أعلن رفضي، سارع بإغلاق الخط، أصابني دوار شديد. خشيت معه أن أستسلم له، وأسقط في غيبوبة ثانية، كان عليّ- رغم الإجهاد الشديد الذي أشعر به- أن أضع حدًّا وأنهي هذا الموقف بشكل نهائي، ولو اضطررت لقطع علاقتي بمختار. سألته عن مكان اللقاء الذي يلحُّ عليه، ثم غيرت ملابسي، وخرجت.

وصلت إلى محطة الرمل، ووجدته ينتظرني عند مدخل مطعم تشغل مقاعدُه لسانًا على البحر مباشرة. ونحن نجلس إلى المائدة، قلت له:

- دكتور مختار، اعفني من الغداء.

احتواني بنظرة رجاء خفيٍّ، وقال:

- عفاف، أنا أعرف- تمامًا- مقدار وفائك لزوجك الراحل، وهذه مشاعر طيبة.

قاطعته، وأنا أخفي توتري:

- دكتور مختار، أنا...

قال– وهو يحتويني بذات النظرة الحانية:

- سأقول كل ما عندي ولك القرار. نعم، أنا أتمنى الزواج منك، وسأكون أسعد إنسان، وسأبذل كل جهدي؛ لتكوني أسعد زوجة، وابنتك ستكون في مكانة ابنتي التي حُرمت منها.
- حضرتك لا يوجد بك أي عيب، وألف واحدة غيري تتمناك.
- لا أريد ألف أو مليون واحدة، أنا أريدك أنت.
- صعب يا دكتور.
- لو عنان هي المشكلة؛ صدقيني بنات اليوم يقدرون ذلك، وهي مصيرها الزواج، وأنت صغيرة، أمامك الحياة فلا تغلقي الأبواب في وجهها.
- دكتور..
- لن أضغط عليكِ أكثر من ذلك، أرجوكِ فكري، وصدقيني.. لو رفضت الفكرة؛ لن أتزوج من غيرك.
- ستجد أفضل وأجمل مني، وتتمنى الزواج منك.
- قلت.. أنا لا أريد غيرك. "سحر فريد" منها لله؛ كرهتني في النساء جميعًا، ولكنك امرأة مختلفة.

هَمَّ واقفًا، وقال:

- فكري، ولو كان وجودنا في مكان عمل واحد سببًا للحرج؛ سهل. أنتقل إلى أي مستشفى.
- دكتور، أنا..
- تعالي أوصلك.
- مرسي.

أسرعت، وكأنني أهرب من شيء يطاردني. كنت بالفعل أشعر بأنني أهرب من فكرة تطاردني منذ زمن. فكرة أن يكون لي رجل آخر. وأكون له.. غير زوجي. الذي كلما تذكرت لحظاتِه الأخيرة؛ ظلت صورة دموعه وصدى صوته يمنعني من التفكير في الزواج مرة أخرى.

في اليوم التالي، تم استدعاء دكتور مختار على عجل؛ لإعطاء حقنة مخدرة إلى إحدى المريضات، كان تشخيص حالتها ينذر بالخطر. فمع الشلل النصفي كان يوجد ورم بالبطين الثالث، وكتب الدكتور المشرف على قسم جراحة المخ والأعصاب.. "يوجد ضغط على جذع المخ ومراكز التنفس".

......

خرجت بصحبة دكتور مختار، وقال لي ونحن نسير في الطرقة:

- أعرف مدى ارتباطك القديم بزوجك الراحل.

قلت راجية:

- أرجوك يا دكتور، أغلق هذا الموضوع.

ردَّ آسفًا:

- لن ألح عليك أكثر من ذلك، ولكن أوضح موقفي، والوفاء صفة نادرة، ولكن..

مَلَلْتُ من الاسترسال، وحاولت مقاطعته، ولكنه همس:

- ثواني.

واصل حديثه، ولم أستمع منه شيئًا..."

......

لم ينقضِ شهرٌ حتى زادت حالات الوفاة في قسم جراحة المخ والأعصاب، وصلت إلى ١٥ حالة، ونشرت إحدى الجرائد خبرًا تحت مانشيت كبير، يقول ..

" القتل مع سبق الإصرار ، وفاة ١٥ حالة بوقف التنفس بقسم جراحة المخ والأعصاب "

بعد ثلاثة أيام، انقضَّتْ قوةٌ من البوليس على المستشفى، وتم القبض على الحكيمة عفاف همام، وَوَجّهت لها نيابة شرق الإسكندرية الكلية تهمةَ قتل مرضى قسم الحالات الحرجة.

** **

الفصل الثامن

(١)

نورا الطبري

" تابعت الحملة الشرسة التي تشنها الصحافة وشبكات التليفزيون على مؤسسة البارون، وتوقيف روان قيصر للتحقيق معها بشأن تعاطي العقاقير المخدرة. كنت على يقين من أن حكومة الظل بدأت حربها على ما تبقَّى من البارون أحمد قيصر، وأدركت حجم الخطر الذي تتعرض له منذ خمس سنوات عندما كنتُ ضمن فريق البحث عن البارون وثروته.

ورغم استنكاري لاتفاقها مع الوجه الظاهر للمافيا التي تحكم العالم، الكيان الذي يبدو أمام العالم وأمام الجميع كيانًا قانونيًّا، له ممثلون يحتلون مناصب في بيوت المال العالمية؛ رأيت ذلك بمثابة الإقدام على الانتحار، وها هي قد اقتربت لحظة مواجهة الحقيقة، وفتح ملفها، وتم إعداد سيناريوهات الحرب المؤجلة، وبدت جملة فاوست.. *" فليحتفظ بالشيطان من أمسك به"* ، كذبة مراوِغة ككل أكاذيب الشيطان، وامتلأت بمشاعر الأسى والحزن، فاليقين الذي ما زال يراوِغ موضعه في عقلي قد أمسك الشيطان بروان قيصر. ولن يدعها إلا بعد الإجهاز عليها.

كنت أقضي الساعات القليلة قبل وداع عمتي عين الحياة في الحديقة، أتابع على شاشة الحاسب آخر تطورات القضية، والعصافير على أفرع شجرة الشيري أمام البيت، تابعتها للحظة قبل أن أغوص في تفاصيل الحكايات التي تنشرها الصحف،

وشبكات التواصل الاجتماعي، التي انزلقت إلى حياة روان الخاصة. ونشرت صورًا عارية لها، كانت بالتأكيد مفبركة. أيقنت أن الحرب قد وصلت إلى مرحلة التصفية المعنوية قبل القضاء عليها تمامًا، كنت أشعر ببعض المسؤولية تجاه مواجهة ما يحدث، واستقر قراري أخيرًا اليقين الذي كان يراوِغ موضعه في عقلي. علي الوقوف إلى جوار سيدة أثق تمامًا في براءتها من كل التهم التي توجَّه إليها.

ودَّعتُ عمتي، وطول الطريق إلى مسكني بالقرب من الجامعة؛ كانت الفكرة التي هيمنت على تفكيري هي اتخاذ الحملة الشرسة ضد مؤسسة البارون نموذجًا واقعيًّا لعرض السؤال الكبير، لماذا لم يرَ الأمريكان صورتَهم في عيون الآخرين؟! رغم الإجابة الواضحة، فهم يرونها جيدًا، مراكز أبحاثهم، وعملاؤهم يرون الحقيقة، حقيقتهم كما صورها فيلم عصابات نيويورك، ومايكل مور في فيلم ٩/١١ . وكما ظهر القناص الأمريكي، مجموعة من القتلة يقتلون بدم بارد. وأنا في الطريق كنت أسترجعُ شروطي مع دكتور جاك، لقد اتفقت على تفعيل رسالة الدكتوراه بأي وسيلة، وما سافرت تاركة زوجي حتى لا يتناول غيري أفكاري ويخرجها من سياقها، ويفسرها علي غير ما أردت. وأنا في الباص، كتبت عدة تعليقاتٍ على المنشورات السخيفة التي تنالُ من روان قيصر. كنت في هذه اللحظة أكثر الناس تعاطفًا معها، فكرت في كتابة مقال، ونشره في أكثر الجرائد توزيعًا في الولايات المتحدة، أشرح فيه كل الأسباب التي تجعل اعتقادي ببراءتها جديرًا بالملاحظة والاهتمام. ولكن، أجَّلت ذلك لحين إلقاء المحاضرة الأولى، والتعرف على الطلبة.

في المحاضرة الأولى، قلت لطلبتي.. " *سنقوم بشيء مختلف. فلن أكون أنا المحاضرة على طول الخط، بل سيرشح أحدكم لمدة نتفق عليها ليقدم موضوعًا من اختياره ولكنه يتعلق بالمقرر الذي اتفقنا عليه، وهو كيف يشكل الإعلام الصورة الذهنية. وبدا الرضا على الوجوه، وواصلت حديثي، كلٌّ منكم على حسابه الخاص، سأعطيكم ربع ساعة للاطلاع على قضية مؤسسة البارون المثارة في الميديا الآن. نظرت في ساعتي، وقلت تفضلوا* "

جلست إلى مكتبي، وتابعت ما جَدّ من آراء حول القضية، قرأت ما نُشر من محضر التحقيق، والتفسيرات المنحازة ضد المتهمة.

طرقت على المائدة؛ لنبدأ النقاش. كنت أريد أن أقف على طريقة تفكيرهم، وأبحث معهم بهدوء عن دوافع هذا التفكير.. تاريخه، نتائجه. حاولت قدر طاقتي التخلص من فكرتي المستقرة عن مضمون الحضارة الغربية المسجونة في إطار رمادي صلب، المتهمة بالسعي لإفقار الثقافات المختلفة، المصابة بشراهة الاستهلاك التي تروِّج له من خلال كل أدوات الميديا. كنت قد حدَّدت انطلاقي من قيمة الإنسان.أشرت لهم معتذرة؛ لأنني سأقول كلمة تستغرق دقيقة واحدة من المدة المتاحة للنقاش.

قلت لهم:

- هدفنا، كيف نخلق وعيًا يؤكد أننا جميعًا على كوكب الأرض بشر، ومن واجبنا أن ندافع عمَّن يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم. كيف نصون الحياة،

والشرف، والكرامة، ونقتص من القتلة مهما علا قدرهم وزاد بطشهم، ومهما كانت قوتهم.

أشرت لهم:

- تفضلوا؛ لنبدأ النقاش.

ساد الصمت للحظة. كان الامتنان الذي يكسو ملامحهم قد مسَّ وترًا في قلبي. وبالفعل، تأثرت تأثرًا بالغًا، كنت أستهلُّ مرحلة ناجحة منذ البداية. فمن خلال كلمتي التي لم تستغرق سوى دقيقة استطعت أن أجد في هؤلاء مساحة إنسانية مشتركة ستساعدنا لنتجاوز كل ما حاولتِ الميديا ترسيخَه لخدمة مصالح أباطرة المال والسياسة في العالم.

قالت طالبة– تعليقًا على ما قرأته عن قضية البارون:

- هذا طبيعي، رجال الأعمال يضطرون تحت الضغوط إلى تناول المهدئات حتى يدمنون.

أشرتُ لآخر، وطلبت منه التعقيب على ما قالته الطالبة، فقال:

- أنا أتفق مع الزميلة تمامًا.

شملتُ الجميع بنظرتي، وسألتهم:

- من فيكم عنده رأي آخر؟

ساد الصمت للحظة، قبل أن يقوم طالب ثالث، ويقول:

- أنا أختلف.

أشرتُ لهم، وقلت مداعبة:

- لنسمع صديقنا المختلف.

قال:

- أرى أن التناول الإعلامي مبالَغ فيه.

قالت سوزان مدافعة عن فكرتها:

- مثل هذه المواضيع ترى فيها الميديا مادةً دسمة تتهافت عليها.

قال:

- ما قال سام صحيح، وهذا يحدث مع نجوم المجتمع والمشاهير. ومديرة مؤسسة "البارون" شخصية عامة.

قلت مؤيدة:

- هذه الضجة تزيد أرقام التوزيع. وهذا الهدف الأسمى لكل الوسائل الإعلامية.

- ....

بدأت المحاضرة. كان تركيزي على أن مهندسي التكتلات الضخمة والمستفيدة من أسهم الشركات الصناعية الكبرى؛ هم أصحاب وسائل الإعلام، الصحف الحافلة بالفضائح والأجساد العارية. وللأسف هذه واحدة من البقرات المقدسة لليبرالية.

في نهاية المحاضرة، طالبت كلًّا منهم بكتابة مقال عن الحملة الإعلامية ضد مؤسسة "البارون" على أن نناقشها جميعًا في المحاضرة الثانية. وهم يتأهبون للانصراف، استأذنتهم في البقاء للحظة. انتبهوا جميعًا.

قلت لهم:

- مع مناقشة المقالات، سنختار أحد الأفلام الأمريكية نشاهده آخر الأسبوع معًا..

بدت الراحة على وجوههم. وهم يتركون مقاعدهم، رددت بامتنان:

- تغريدتي على الـ Twitter اليوم . "القوى السياسية ترتبط مع الصحافة بعلاقات محارم لا تخدم إلا مصالحها"، أرجو التعليق.

شعرت بالاطمئنان. كانت البداية مشجعة، بدأت أسلك منهجًا مختلفًا مع طلبتي، وبدا من ردود فعلهم الأولى تفاعلهم بدرجة لا بأس بها.خرجتُ واتجهت إلى مول فورهيس " Voorhees Mall " الذي شهد احتجاجات طلابية بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ في القاهرة، كنت أتأمل البنايات، وتتوارد صور تخيلية للطلبة المحتجين وهم يتجهون إلى أولد كوينز " Old Queens " في حرم جامعة نيوبرونزويك "

New Brunswick " وكأنني أدير حوارًا مع الأشياء، كل الأشياء حولي، دقات طبول البونغو والهتافات التي تتهم الإدارة بأنها تحرض للقبض عليهم.

وأنا أعبر رصيفًا تعلُوه نجيلة خضراء، وراءَها شجيراتُ ظلٍّ صغيرة على هيئة حروف " RUTGERS " ، اتخذت من الحروف التي كونت اسم الجامعة– نموذجًا تفسيريًّا يلخص الكثير من حضارة البلوجينز. ووضعتها عنوانًا للنقاش في المحاضرة القادمة.

وصلت شقتى وتواصلت مع زوجي عبر الواتس، كان التواصل روتينيًّا وسريعًا؛ فقد كانت نقاط المقال عن روان قيصر قد التهمت جزءًا كبيرًا من اهتمامي.

** **

(٢)

هند المصري

......"شعرت بأنني أهرب من الزمن، أهرب من لحظة سقط فيها كلُّ شيء، ورغبتي في المتعة التي عوضتني عن حرمان طالَ لسنوات حاولت أن أطمئِنَ نفسي بادّعاء كاذب، بأنني لست خائنة؛ فزوجي "فرحات أبو العز" لستة أشهر كاملة لم يجمعنا فراش واحد. وحتى لو حدث.. فلا شيء. كنت أستنطق قلبي بفتوى أنني كنت في قمة الضعف واستسلمت لرغبة طاردتني كثيرًا، لحقت بي هناك في سيارته، على شاطئ البحر، حاولت مقاومة هجومه، ثم... استسلمت فتحت له حصوني وطالبته باحتلال قلعتي، كنت.. كنت في قمة الظمأ والضعف، وأدركُ تمامًا بأنني لم أجد في العالم كلِّه من يروي ظمئي غيره.

ليلتها، تركته على البحر، صعدت الشقة، اندفعت إلى الحمام، تخلصت من ملابسي، استلقيت في الماء الدافئ، فجأة انطلقت دموعي، بكيت ندمًا وخوفًا، كان..... ، لا أعرف أي شيء ... ولا شيء، ولكنني أردت ألا أشعر بوخز الضمير، تساءلت في تحدٍّ...؟ سمِّها وقاحة.. ما العيب في أنني سعيت لأنال حاجتي ممن أحببته طوال عمري!؟، وأنا امرأة من حقها أن تعيش.. أن تحصل على متعتها.

كان صوتًا غريبًا يتردد داخلي، أنت زانية.. زانية.. زانية، تردد صدى الصوت حتى صرخت، وعلا صوت بكائي، توضأت، وارتديت ملابسي. توجهت نحو القبلة، وقبل تكبيرة الإحرام.. شعرت بالخزي والعار. عاودت البكاء، رغم خجلي من الله انتهيت

من صلاة العشاء والشفع والوتر، ولم ينته بكائي. خطوت إلى الفراش، حاولت الهروب إلى النوم. ووجدت صعوبة في السيطرة على دموعي، تركتها تنساب، وكأنني أردت أن أغسل الدنس الذي أصابني، استيقظت على رنين الموبايل.. اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت.ترددت للحظة في فتح الخط عندما قرأت اسمه على الشاشة..."

** **

(٣)

عبد الرحمن

شعرت بأنها ارتكبت أكبر الأخطاء في حياتها، كان عليَّ أن أنتظر هجومها عليّ؛ فأنا الذي مهدت لها الطريق، عندما راودتها عن نفسها حتى استسلمت وتركتها وذهبت إلى البحر. جلست على صخرة وسط الظلام وهدير الأمواج المتواصل، كان إحساسًا لم أجربه، وها أنا أقع في المحظور، أقتحم حصون بطلة ظلت تراوغني مثل طريدة متمرسة على المراوغة والاختفاء، وقد دخلت في إهاب مفستوفيلس، منذ لحظات جاءت تطلب افتراسها، كان هذا واضحًا منذ الاتصال الأول بعد قطيعة خمس سنوات، صوتها.. حروف كلماتها.. رنين الرغبة والنداء الذي حاولت أن تخفيه؛ كان يستدرجني إلى اقتحام أنوثتها بعدما أصبحتُ عاجزًا تمامًا أمامها. فلم أتوقف عن النظر إليها بعين شرهة.. جائعة، وهي تستعرض كل تفاصيل الاغراء .. تضاريسها، منحنياتها، وجهها النابض بالأنوثة، العينان الساحرتان اللتان صمَدَتا أمام الزمن. والشفاه التي انفجرت فور اقترابي منها، أدركت رغبتي، وأدركت رغبتها.

صباح اليوم التالي، قلت لها عبر الهاتف:

- أريدُك ضروري بعد المسرح.

قالت بعد صمت:

- آسفة يا عبد الرحمن، أنا في مُود سيء جدًّا.

- عندما نلتقي سيتغير مُودُك تمامًا.
- أرجوك. لا تضغط عليَّ. كفى ما حدث.. كفى.

همست راجيًا:

- هند، أرجوك.

قالت في ضعف:

- أرجوك أنت.

قلت في إصرار:

- لو لم تأت؛ سآتي أنا لزيارتك.
- قلت.. لا تضغط علي، أرجوك.
- صوتُك لا يعجبني.
- مع السلامة.

أغلقت الخط، تحاشيت الغضب وأنا في طريقي إلى المسرح، كنت أبذل مجهودًا خرافيًّا لأنتهي من العرض قبل شهرين.

** **

صعدت إلى المسرح، وهتفت:

- ***الآن، أصدر الحكم بالإدانة على من لا دفاع له غير البراءة. وفي النهاية يتحول الرجل الشريف إلى متملق. والقاضي الذي لا يستطيع أن يعاقب ينضم في آخر الأمر إلى المجرم، وفي النهاية يبقى العالم كما كان بمئات الآلاف من الخزعبلات، يبقى مجنونًا كبيرًا.***

** **

(٤)

عفاف همام

"كأن الغيبوبة التي سقطتُ فيها لم تنته بعد، كان الخيط الواهي الذي يهبط بي إلى جبٍّ عميق، وشذرات الصور والصرخات والانفجارات الناجمة عن القصف بصواريخ سكاد وتوما هوك، ربما تغيرت الوجوه. أدركت بأنني لم أكن في غيبوبة، ولا أعانى من هلاوس، أو كابوس مريع يحيط بي، بل كان واقعًا مريرًا صاعقًا، والضابط الذي اقتحم مكتبي وقال بلهجة آمرة:

- تفضلي معي.

سألته متعجبة:

- مَنْ حضرتك؟

قال الرجل باقتضاب وبلهجة آمرة حاسمة:

- تفضلي لو سمحتِ.

قلت متحدية، وقد تغلبتُ على الخوف الذي بدا يزحف على قلبي:

- أنا أمارس عملي، ويوجد مرضى مسئولين مني.

قال الرجل بلهجة اتهام:

- المرضى الذين تقتلينهم!

صرخت:

- مستحيل. أنا أقتل؟! أقتل من؟

انتبهت على عدد من الممرضات دخلوا المكتب. ووسط دهشتي، اقتحم الدكتور مختار المكان، وسأل الضابط:

- ماذا يحدث هنا؟

قال الرجل، وهو يُخرج بطاقة:

- الرائد محمود الشوربجي، ومعي أمر بالقبض على الست عفاف همام الأسواني.

وأخرج أمر القبض وواجهني به في تحدٍّ.

سأل دكتور مختار:

- تقبض عليها! لِمَ؟!
- الست متهمة بقتل أكثر من ٢٠ حالة.

وأشار لأمين شرطة فأسرع نحوي، وجذبني في عنف إلى الخارج. لم أنتبه إلا والدكتور مختار يسرع ورائي، ويقول مُطَمئنًا:

- سأحضر لك محاميًا.. لا تقلقي.

تمنيت في هذه اللحظة أن أواصل السقوط حتى أصل إلى قرار البئر، وتقبض غيبوبة عميقة تبدد الوعي الذي يصر على أن أرى ما يحدث لي. الموقف الذي لم أتخيل طوال حياتي أن أكون فيه متهمة بالقتل، وأخرج من مقر عملي وسط زفَّة من العاملين في المستشفى والمرضى، حاولت الصراخ، كنت أريد أن أقول.. لم أقتل، لم أرتكب جريمة، بل ما يحدث معي الآن هو الجريمة، ولكنني عجزت عن إصدار أي ردِّ فعل. عجزت عن الصراخ، عن البكاء، عن الدموع، حتى وأنا أُقتاد مسلوبة الإرادة إلى مكتب الضابط؛ لأخذ أقوالي.

فور جلوسي، عاودتني الرعشة، هاجمت جسدي مثل الصاعقة الكهرباء، وانقضَّ على رأسي دوار سريع، ولم أدر بشيء.."

عنان التي لم يمنعها شعورها بالذنب بسبب ما فعلته مع أمها، لم يقدر على هزيمة رغبتها في الغناء والشهرة، كان حلمها قد هيْمَنَ عليها تمامًا، ولم يستطع رفض الأم ولا التخلي عنها تدمير جنونها بالفن.

يوم القبض على أمها، كانت في عملها في المستشفي تجلس في غرفة الممرضات تتحدث عشوائيًّا عبر برنامج "AZAR" مع ما تصادف من وجوه، كانت تنتظر وقت انصرافها لتعد مفاجأة لأمها على الغداء، عندما رن الهاتف اعتذرت لشاب جزائري كانت تتحدث معه. فتحت الموبايل فوَصَل صوت رجل لم تسمعه من قبل، سألته:

- مَنْ حضرتك؟
- دكتور مختار راضي، زميل مدام عفاف والدتك.

تجمّد الدم في عروقها لإحساسها بالخطر. واصلت سؤالها بكلمات متقطعة:

- ماما!
- حدث سوء تفاهم.

صرخت:

- ماما مالها حدث شيء لها؟!
- مدام عفاف بخير.

واصلت طلبها في عصبية:

- ماما مالها؟
- ماما في قسم العطارين.
- ماما؟!

"انتبهت على بكاء ابنتي، شعرت.. وأنا أتحسس وجهها، كأنها عادت الطفلة التي أنقذها الله بمعجزة، عنان التي جاءت بعد سبع سنوات من زواجي ومن الانتظار والتردد على المستشفيات ومعامل الحقن المجهري. حتى دب اليأس في قلب زوجي حفني ندا، لكنني لم أيأس من رحمة الله. أتذكر جيدًا يوم شعرت بالحمل، وأثبتت التحاليل بأنني حامل. ليلتها، صليت كثيرًا، ركعت وسجدت وحمدت الله وأنا أبكي.

ربت على رأسها، سوَّت خصلات شعرها، وقفت أمام الضابط، وقالت راجية:

- أمي أنا تقتل؟! أمي ملاك يا حضرة الضابط، ملاك بجد.

كشر الضابط عن أنيابه، وقال في نفاذ صبر:

- ملاك؟! نحن لا نمثل فيلمًا عربيًّا.

وأشار للأمين:

- أخرج البنت من أمامي.

بكت عنان، انهارت واستنجدت بالضابط:

- أبوس يدك. أمي مستحيل تقتل.
- برّه.

وأشار لكاتب المحضر:

- افتح المحضر.

واجهني الضابط باتهامي بقتل عشرين مريضًا، شعرت بأنه تعدى حدود الممكن والمعقول. ابتسم ابتسامة مفاجأة، كادت تتحول إلى ضحكة ساخرة، ولكنني سألته وقد عاودتني شجاعة المواجهة، وتحمل كميات مضاعفة من انفجارات صواريخ أسكاد وتوماهوك:

- ٢٠ رجلًا وامرأة قتلتهم!. ألم أكتف بالقتل مرة واحدة.
- أنت لا تسألي ، أجيبى على قدر السؤال ، سين.. لماذا ارتكبت كل هذه الجرائم؟
- لم يحدث أن قتلت أحدًا.
- سين.. من قتل كل هؤلاء إذًا؟
- لا أعرف.
- سين.. لماذا أقدمت على حقن العشرين مريضًا بعقار يعمل على وقف التنفس مما أدى إلى وفاتهم جميعًا؟
- لست المسئولة عن الحقن، الدكتور هو المسئول عن ذلك.
- سين.. لماذا لم تقدمي على تنفيذ العلاج بعقار مضاد لمرخيات العضلات عند حدوث ضيق في التنفس كما يقول التقرير؟
- تنفيذ العلاج من عدمه مسئولية الدكتور المسئول.
- سين.. تتهمين الدكتور بالقتل؟

التفت إلى وجه الضابط المتربص، وعيناه تلمعان ببريق الشك، وقلت:

- طبعًا لا، كل حالات الوفاة كانت حالات ميئوس من شفائها، وطبيعي أن تموت. غيبوبة أو كسر بمجرى السائل النخاعي.. ضغط على جذع المخ الذي يحتوي على مراكز التنفس، فيحدث اختناق ووفاة أو هبوط معدل النبض فجأة أو ارتفاع الضغط الدماغي.

ازداد بريق الشك لمعانًا، وقال الضابط:

- وهل قتلت العشرين حالة بدافع الشفقة؟.
- من يملك شفقة في قلبه لا يقتل. أنا لم أقتل.

دار الرجل حول مكتبه– وهو يواصل اتهامه لي:

- حالات ميئوس منها قتلتهم لتنهي عذابهم؟

لم تكن نظرة استخفاف.. استنكار.. سخرية؛ كافية بالرد على الادعاء الكاذب، فقد تأكدت من الورطة التي وجدت نفسي غارقة فيها.

طرق الباب، ودخل رجل قال للضابط:

- منصور الشناوي المحامي، حاضر مع المتهمة.
- ..... "

استمرت حملة التحريض ضد الحكيمة عفاف همام بطريقة أثارت الكثير من الشكوك. وادعت بأن الأدلة والقرائن أكدت أن المتهمة وراء الضحايا الذين لقَوا مصرعهم في قسم الحالات الحرجة بسبب حقنهم بعقاقير الفلاكسيديل والبافلون المرخية للعضلات، والتي تستخدم مع البنج الكلي أثناء إجراء العمليات الجراحية. وقررت النيابة، حبسها ١٥ يومًا على ذمة التحقيق.

** **

(٤)

فرحات أبو العز

" في قصر الأمير محمد الباذخ الثراء والفخامة، كانت كل الأشياء لها ملمح عربي بارز: المقاعد، النجف، نوافذ الأرابيسك، ورسوم السجاد، الإبل، والجبال، والصحراء، والنخيل، وآيات القرآن التي تتحلى بها الجدران.

عندما دخلت غرفة الانتظار الذي لم يطل إلا دقائق معدودة. كنت أجهل تمامًا سبب استدعائي. ذهبت ظنوني إلى حد بعيد، فربما يطلب مني توصيل رسالة إلى المسئولين في مصر أرادوا إرسالها بطريق غير رسمي، ولو حدث.. فما فحوى الرسالة؟ وما مدى خطورتها حتى يلجأون إلى مثل هذه الطريقة؟

دخل أحد الرجال، وقال:

- الأمير في انتظارك.

كان مكتب الأمير رغم بساطته.. يعطي إيحاءً بالراحة والطمأنينة.. وربما تسرب هذا الإيحاء من الطريقة التي استقبلني بها الأمير، فقد همَّ من جلسته وأسرع لاستقبالي واصطحبني إلى مقعدين بالقرب من مكتبه، وقال:

- نوّرت السعودية. كما تقولون بالمصري.
- أشكر معاليك.
- حج مبرور، إن شاء الله.

- إن شاء الله.

دخل السفرجي وقدم القهوة، وانصرف.

قال الأمير:

- أعتذر عن تأخيرك عن السفر إلى مصر أم الدنيا يومين. لكن كنت مشغولًا جدًّا.
- أنا تحت أمرك.

رفع الأمير فنجال القهوة، وقال:

- مهندس فرحات، أنا قرأت " CV " عن أعمال شركة "FAZ" ووجدتها مناسبة جدًّا للعمل الذي أجلس معك الآن لمناقشته.
- العمل مع معاليك شرف لي.
- أشكرك، لكن أنا أؤمن تمامًا بقاعدة Business is Business . الشغل شغل .
- هذه بداية مشجعة.
- نحتاج " FAZ " في بناء سوق تجاري على مساحة ٢ ميلًا مربعًا بالقرب من الحرم.
- أوافق طبعًا. و" FAZ " لها شرف العمل في الأرض الطاهرة.

همس البارون:

- المهم طهارة البشر.. الأرض.. الكون كله ملك الواحد الديّان.
- ونعم بالله.

سألت:

- لابد من دراسة جدوى، مساحة المشروع، حجم التمويل.

وقف الأمير واصطحبني إلى مكتبه، ورفع ملفَّ المشروع، وقال:

- كل شيء يخص المشروع موجود، ادرس هذا الملف جيدًا قبل أن نوقع على العقود.

تناولت الملف، شعرت بأن الله قد تقبل دعائي ومنحني فرصة تطهير أموالي من الحرام، واصطحبني الأمير حتى الباب وهو يقول:

- أمامك شهر سأكون انتهيت من جولة آسيوية، وجاهز لتوقيع العقد معك.

صافحني، وانصرفت.

في الطريق من الفندق للّحاق بطائرة الخطوط الجوية العربية السعودية (SDI) ، كنت أقرأ تفاصيل مشروع السوق التجاري، وهالني المساحة الضخمة التي يشغلها.. الأبنية.. وما تحتاجه من بنية أساسية.. رصف طرق وكابلات كهرباء وهواتف وصرف صحي، كان المشروع أقرب لمدينة صغيرة. فهو يحتوي على مول ضخم، وأجانس سيارات، وورش صيانة، وجراج متعدد الطوابق، ونظام مراقبة على أحدث مستوى،

وسيعمل به جيش من العاملين، وسيتم إنشاء سوبر ماركت على مساحة كبيرة به كل السلع الاستهلاكية الغذائية والكهربية، حتى الأدوية.

وصلت إلى القاهرة، وعكفت على دراسة الجدوى، وبدأت في عمل خطة التنفيذ وتحديد المعدات اللازمة، كانت معدات الشركة الموجودة قد تم استهلاك معظمها لمشاركتها في مشروعات القوات المسلحة: رصف، طرق، وبناء كتائب، وحائط الصواريخ على طول خط القناة. ولحرصى على عدم تسرب أمر مشروعي الجديد الى أحد؛ فقد استقر تفكيري على شراء كل المعدات المطلوبة من أوروبا وشحنها إلى السعودية.

قبل السفر الى ألمانيا، استقبلني صديقي دكتور وحيد فرج بعتاب شديد:

- سافرت وحجيت، ورجعت وانقطعت أخبارك!.
- كنت مشغولًا جدًّا.

تأمل وجهى الذي يطفح بالتفاؤل، وقال:

- خيرًا؟
- اتفقت في السعودية على شغل .

تحوّل التفاؤل إلى سخرية:

- الحج لم يكن لوجه الله كان لـ "Busimess"
- جاء الشغل بعد الانتهاء من المناسك، وكنت في طريق العودة إلى مصر.

- ربنا يوفقك يا سيدي.
- أنا جئت أشوفك قبل السفر.
- معقول حج ثاني!
- هذه المرة إلى ألمانيا.

هتف الدكتور:

- من أعطاك يعطينا.

قبل أسبوعٍ من وداعي لصديقي دكتور وحيد، كنت قد دبرت أمر تحويل ٢ مليون جنيهًا إلى ألمانيا ثمن المعدات والأجهزة التي سأقوم بشحنها إلى السعودية..."

** **

(٥)

روان قيصر

الخطوة العالقة استقرت أخيرًا هنا أمام مائدة سوداء، وفي غرفة تحمل حوائطها لونًا كئيبًا، رغم الواجهة الزجاجية التي كان العاملون في مقر الـ **FBI** يظهرون على مكاتبهم وأمام المحقق وهو يحتويني بنظرات ثابتة.. صامتة.. بدت معها عيناه فاقدة للحياة، كان أفق اللحظة التي تكبلني بقيود من حديد، وتغلق أمامي كل المسارات؛ قد شرعت في القبض عليَّ بكآبة.

طرح الرجل مظروفًا على المائدة الفارغة، وقال:

- مس روان.

لم أدع المحقق يكمل السؤال كنت كالبالون الذي ينتظر ثقبًا صغيرًا لينفجر ويُخرج كل ما به من هواء، ولكن ما كان في قلبي وفي عقلي لم يكن هواءً، كان تحديًا عارمًا، ضخمًا. وراءه رغبة حارقة بالانتقام، بالثأر من القتلة الأشرار، وفي محاولة مباغتته أردت تغيير قانون اللعبة الذي أدرك تمامًا مخاطرها.

صرخت في وجهه:

- ما هى القضية التي أعددتموها لي؟ أم أنت لا تعرف حقيقة اللعبة القذرة التي دُبرت؟ بالتأكيد لا تعرف، يقينًا لا تعرف.
- اهدئي.

واصلت الصراخ:

- من سيتحمل الخسائر الضخمة التي ستلحق بالمؤسسة؟ من سيعوض المساهمين عن أموالهم، هل تعرف؟! بالتأكيد أنت لا تعرف!.

اتكأ المحقق على مقعده، كأنه قد اتخذ قرارًا بعدم مقاطعتي فواصلت وقد هدأت لهجتي بعض الشيء:

- أنا كما قلت لا أدخن، ولا أشرب الخمر أو أيًّا من العقاقير المخدرة. هذه هي الإجابة الوحيدة لسؤالك.

والتزمت الصمت، فقال الرجل:

- ننتظر نتيجة التحاليل.

قلت بصوت عالٍ:

- وإذا جاءت النتيجة "Positive"؟
- سيكون القرار للمحكمة الفيدرالية.

وأشار لي بالانصراف. شملته بنظرة مشوبة بسخرية واضحة:

- متأكد؟!
- نعم. عندما ننظر نتيجة التحاليل، سيتم استدعاؤك ثانية.

واصلت سخريتي:

- هل تم استدعائي لأخذ موافقتي على إجراء التحاليل فقط؟، أم لمواصلة الحملة الإعلامية القذرة ضدي، وضد مؤسسة البارون؟
- تفسير ذلك أمر خارج مسئوليتي؟

** **

فور خروجي، كان ديفيد في انتظاري، ركبنا السيارة وانطلقنا. لفَّني الصمت، وكأن انفجاري المريع أمام المحقق والمبالغ فيه بشكل واضح قد عبَر بي اللحظة العدمية المثقلة بالأرق والتوتر. شعرت– لأول مرة منذ زمن بعيد– بوجودي، شملني اطمئنان رغم يقيني من أن الخطر قريب جدًّا، فور وصول رسالتي لمن أعدوا المؤامرة، طوال الطريق كان ديفيد يتكلم.

كنت على يقين من أن ديفيد يخفي شيئًا، أو ينتابه الخوف من إقحام نفسه في مغامرة مع المافيا .

وصلنا إلى الفيللا. فأشار لي بعدم الدخول، سألته:

- لِمَ؟
- يوجد مطعم قريب.

تناول حقيبة يدي وألقاها في السيارة، وأشار للسائق بدخول الفيللا. وهمس وهو يقودني عبر طريق جانبي:

- لو استطعت التخلص من كل أغراضك: الملابس، الأحذية، الجوارب، توك الشعر، النظارة، ساعة اليد، والموبايل.

ووقف، وتأملني بنظرة الحب القديم الذي لا يتغير، وقال:

- روان، إنهم يحصون كل أفعالك.
- أنا على يقين من ذلك، شكوكي تذهب بي إلى حد بعيد.. بعيد، إلى حد لا أستبعد أنهم غرسوا في جسدي شريحة ميكروشيب تنقل لهم بنات أفكاري.
- ممكن. أنا لا أستبعد أي شيء.
- أخبار ألكسندر؟!
- انتهى دوره بالقضاء على أبيك.

وصلنا إلى المطعم، تناولت العشاء سريعًا وأنا في شوق لمعرفة الجديد الذي يترصدني، ولكن ديفيد التزم الصمت وحرّك رأسه بإجابات مقتضبة تعني أنه لا يعرف. أو من الأفضل ألا نتحدث، وتذكرت فجأة إرخ زيجا، كانت أحتفظ ببيانات بطاقته على الموبايل، أخرجتها وأعطيتها لديفيد. تأملها وغمغم:

- إرخ زيجا مسئول سابق في فرع الإشتازي الشرطة السرية في ألمانيا الشرقية سابقاً .

طرق على المائدة بأصبعه، وقال:

- ضروري أقابل هذا الرجل.
- ترددت في الاتصال به.
- دعي لي هذا الأمر.

كانت العملية التي أمرت بها للرد على الهجوم الكاسح قد أعدت ونفذت بشكل جيد، أكدت أرباح المؤسسة وتقارير الشركات الصينية أنه كان متوازنًا ، وكلماتي في المؤتمرات والمحافل الدولية ورؤيتي للإصلاح الاقتصادي وتوجيهاتي، وتعقيب الخبراء الذي يدعم هذه الرؤيا؛ كان كفيلًا بأن يتوارى وراءه الهجوم الذي شنته وسائل الميديا على البارون.

وأنا أتأهب للنوم، تنقلت بين القنوات الفضائية، وعلى إحدى القنوات بُث تحليلٌ لمقال يشيد بدور مؤسسة البارون في الاقتصاد العالمي، شعرت بالرضا وبأن هناك من ينصفني دون توجيه مني. وصلت إلى نهاية المقال وكانت المفاجأة في كاتبة المقال دكتورة نورا الطبري دكتور زائر؛ دراسات الاتصال والإعلام جامعة ريتجرز.

تبددت رغبتي في النوم، وعلى الفور أخرجت الحاسوب وأسرعت بالبحث عن موقع الجريدة الإخبارية، وكتبت تعقيبات في كلمات بسيطة، بعد ٤٨ ساعة عبر Sky pe. كان اللقاء الأول مع نورا الطبري.

قالت– وهي تعبر الرواق نحو مكتبها في جامعة رتجرز:

- فعلت ما اعتبرته واجبًا.
- أشكرك بعدد كلماتك التي أنصفتني.

- دفعني يقيني في براءتك.

** **

الفصل السابع

(١)

فرحات أبو العز

٦ أكتوبر ١٩٧٣، قامت القوات المسلحة المصرية بعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف، ورفع العلم المصري على أرض سيناء.

لحظة سماع الخبر، انخرط المهندس فرحات في البكاء وهو يصرخ مثل طفل ويهتف كالمجنون: الله أكبر.. الله أكبر. خرج من الكرافان الذي أعده كمكتب للإشراف على مشروع السوق التجاري، وهو يردد:

- عبرنا القناة، حطمنا خط بارليف، انتصرنا على الجيش الذي لا يقهر.

التف حوله المهندسون والعمال، عانق الجميع، كانت لحظة نادرة وصل فيها المهندس فرحات إلى أعماقه، وإحساسه بأنه شارك في هذا النصر الذي حققته مصر، وسوريا، وكل العرب الذين شاركوا مصر في حربها ضد عدو "غادر". كانت دموع الفرح تراوده وهو يتابع أخبار تقدم الجيش المصري على كل الجبهات.. والأغنيات الوطنية التي تتواصل من إذاعة القاهرة.

كان يهاتف صديقه دكتور وحيد كل يوم.

قال له في حماس:

- أول انتصار لنا بعد هزيمة عرابي في التل الكبير.
- دائمًا يأخذك الحماس يا باشمهندس.
- بهذا النصر لم أعد أطمع في شيء. كل ما كنت أحلم به تحقق.
- ألم نرك قريبًا.
- سأدبر أمر سفري. أريد أن أرى الناس، أحتضنهم.. أقبلهم، أقبّل أرض مصر، بلدنا.
- أنا في انتظارك.

والأخبار تتوالى، أكبر معارك دبابات في التاريخ منذ الحرب العالمية الثانية، تفجير ٤٠٠ دبابة إسرائيلية، وإعلان الملك فيصل استخدام سلاح البترول، قبل حادث الثغرة بيومين وصل فرحات إلى القاهرة. وفي المطار، سجد وقبَّل أرض الممر.

اطمئن على أولاده: عز وميرفت واصطحبهما من فيللا جدهم حسن البدوى إلى النادي.

كانت الثغرة صدمة أفاقته من الحلم الكبير وما تلاها من زيارات كيسنجر. والاتفاق على فض الاشتباك الأول والثاني، ومحادثات الكيلو "١٠١".

انشغل بمشروعه السعودي، وحقق نجاحًا كبيرًا منحه فرص العمل مع شركات عالمية ضخمة، ومع قانون الانفتاح رقم ٤٣ سنة ١٩٧٤، الذي أعلن عنه السادات في ورقة أكتوبر، كانت فرص الثراء بلا حدود.

سنة ١٩٨٤ حصل أبو العز فرحات على مجموع ٩٠% في الثانوية العامة، والتحق بكلية طب جامعة القاهرة، وكانت ميرفت في المرحلة الإعدادية في إحدى المدارس الخاصة، وفكر المهندس فرحات في الزواج. وقبل الإقدام عليه، جلس إلى ابنه وابنته، وقال لهم:

- أنا فكرت أتزوج.

نظرت فيفي نظرة اعتراض منكسرة إلى أخيها الذي نكس عينه في الأرض، وقال:

- حقّك يا بابا.
- اتفقت معها على سكن خاص. شقة في شارع عبد الخالق ثروت، ولن يكون لها أي تأثير على حياتنا، أنتم هنا في الفيللا لن يشارككم فيها أحد.

العروس ملك حكيم، قبل عشر سنوات حصلت على لقب ملكة جمال مصر، ونشرت صورها على أغلفة بعض المجلات الفنية. رآها فرحات في إحدى حفلات النادي، سأل عنها صديقه دكتور وحيد فرج. وعرف معلومات شجعته على طلب الزيارة لأسرتها.

ملك خريجة الجامعة الأمريكية درست الأدب الإنجليزي، ترجع أصول أمها كاتيا غالي إلى المجر، انضم جدها الأول إلى جنود بونابرت فور احتلاله نابولي، التي كانت في هذا الوقت في تحالف مع ملك هنغاريا، واصطحب جنود الحملة إلى مصر ١٧٩٨.

كان حفل الزفاف أسطوريًّا تم في أكبر صالات الأفراح في فندق سميراميس. حضره بعض الوزراء والفنانين، وشركاء من الخليج.

منذ الأيام الأولى للزواج، أدرك مدى الخطأ الكارثي الذي وقع فيه، فقد ظهرت ملك حكيم مدى تهورها واستهتارها ونزقها، حاول تقويم سلوكها وتذكيرها بأنها زوجة رجل أعمال له منافسون يتحيَّنون الفرص للنيل منه. وهو يتحدث لها، كانت تنظر إليه في بلاهة وتردد باللغة الانجليزية. **You are breaking a promise to me** ، ثم تشيح عنه وتذهب إلى غرفتها، وهو يتابع مشروعاته المنتشرة في مصر والدول العربية كانت موجات الشك تنتابه وهو يعد لمشروع عملاق. ويناقش الرسوم المبدئية، وحجم التكلفة اتصلت به تليفونيًّا.

- ببيي، أنا في رحلة سفاري في سقارة.

انتحى جانبًا، وقال وقد فاض به الكيل:

- ارجعي فورًا إلى البيت.

ضحكت في سخرية:

- حقيقي دمك ثقيل جدًّا. باي باي.
- ملك!
- لن أعود من الرحلة قبل عشرين يومًا.

قالت بلهجة آمرة، وهو الذي رفض تلقي الأوامر منذ وفاة الأب. شعر بأنها حمل ثقيل، وعليه أن يتخلص منه في الحال.

اتصل بأمها فقالت راجية:

- أرجوك please فرحات بيه تحملها، وسوف أعقلها.. اطمئن.

فشلت كل محاولات كاتيا غالي في الإصلاح، وقبل مرور عام على الزواج تم الطلاق.

وقال فرحات لابنته التي استقرت بين ذراعيه باكية، وهي تردد:

- تصدق يا داد. يوم زواجك زارتني ماما في الحلم وقالت.. مهما حدث بابا سيرجع لك انتِ وعز.

ابتسم– وهو يطبع قبلة على وجه ابنته:

- ماما هدى كانت ملاكًا، حلم مرَّ في حياتنا، ولن أجد مثلها أبدًا.

قال عز لأبيه:

- بقى لي شهر لم أرها في الحلم.

وتأمل صورتها الضخمة في الصالون، وقال:

- وحشتيني يا ماما.

لم يَحلْ انشغال رجل الأعمال فرحات في عقد الصفقات وتنفيذ المشروعات الضخمة.. حصص كبيرة من تنفيذ أحياء بأكملها في المدن الجديدة ، ورصف مئات الكيلومترات من الطرق؛ من التفكير في الزواج مرة ثالثة. وحدث الزواج الثالث، وعز الدين حاصل للتو على شهادة الطب. وكان أول صدام بينهما:

قال الطبيب عز:

- أي امرأة توافق على الزواج منك طمعًا في ثروتك.

قال فرحات المرهق من العمل الشاق:

- ألفت هانم– الزوجة الثالثة– تشبه أمك تمامًا.

قال الابن في عصبية:

- أرجوك يا بابا، لا تشبه أي ست بأمي. وهذه المرأة أسوأ من سابقتها.

غمغم الأب غاضبًا، وقد لمح طيف شك عبر نظرة الابن:

- ماذا تقصد؟

انفلت عقال العصبية، وقال عز:

- إنها امرأة سيئة.

صرخ الأب وهَمَّ بصفع ابنه على وجهه، ولكنه تمالك أعصابه وقال:

- وصلت للخوض في أعراض الناس.

تبادلا نظرة حارقة، وأسرع عز إلى غرفته.

رغم الشكوك التي عصفت بقلب فرحات، فقد تم الزواج وحدثت قطيعة بين الرجل وابنه الذي تسلم عمله معيدًا في كلية الطب.

** **

استطاعت "ألفت شاكر الباجوري" تبديد أي شكوك علقت بقلب زوجها. كانت لينة مطيعة، تمكنت بعد سنة من الزواج، ومواصلة التودد لأولاده؛ من كسب ثقتهما، وخاصة ميرفت التي تعبر سنوات المراهقة، أدركت ألفت بخبرتها أن الوصول إلى قلب الأب لن يكون إلا عن طريق ابنه الذي يواجهها بنظرة غيظ وكره ظاهر، وابنته التي تمر بفترة المراهقة. وأنهت القطيعة، وخيم الوئام على الأسرة وانتقلت إلى الفيللا، واقترحت على أبو العز تحويل شقة عبد الخالق ثروت لعيادة، يعمل فيها فترة بعد الظهر.

ألفت، كانت مشاعرها صادقة بعد حياة قلقة متوترة تمنت أن تستقر وتهدأ، ويكون لها زوج وأسرة. ولكنْ أبَى الماضي أن يدعها تهنأ بحياتها الجديدة.

في ساعة متأخرة، وهي تتهيأ للنوم وصل رنين التليفون...

- ألو.

جاء الصوت الذي لم تخطئه طوال حياتها. فقد كان حادًّا يشوبه غلظة قاسية:

- **إزيك يا ألفت هانم.**
- **أنت؟!**
- **مصير الحي يتلاقى يا هانم.**

** **

(٢)

نورا الطبري

" استقر اليقين الذي كان يراوغ موضعه في قلبي، علي الوقوف إلي جوار سيدة أثق تمامًا في براءتها من كل التهم التي توجه إليها، ونشرت مقالًا أشرح فيه دون الدخول في التفاصيل المتصلة بثروة أبيها أحمد قيصر وحرب عائلات المافيا التي أدت إلى تصفيته في النهاية.

كنت أخاطب الإنسان الأمريكي؛ ليرى القضية بإنصاف، ويتخلص للحظة واحدة ويسأل نفسه سؤالًا صغيرًا وبديهيًّا. مَن المستفيد مِن هذه الحملة؟ ولو واجه نفسه بهذا السؤال سيقول.. حتمًا المنافسون في السوق، الحيتان وأسماك القرش المفترسة. كانت الإجابة التي يعرفها الكثير من الناس ستبث الشك في الاتهام لتعصف به. في النهاية، المصالح الاقتصادية الكبرى في أمريكا هي التي تحكم تدفق المعلومات وتسيطر على الخريطة الإعلامية. أردت أن أفتح نفقًا جديدًا لأطرح وجهة نظر مختلفة.

وجاءت الحملة المضادة المدافعة عن مؤسسة البارون؛ لتزيد مساحة النقاش، وتفرض توازنًا حتمًا سيكون بداية لجذب المناصرين لوجهة نظري، والوقوف إلى جوار روان قيصر في قضيتها العادلة.

** **

تواصلت معها عبر Sky pe كانت في الطريق إلى مكتبها، وقد ظهر في الصورة طاقم حراستها الخاصة وسائقها، واحتوت الشاشة لقطة بانورامية لسور فيلتها ببواباته الإلكترونية وكاميرات المراقبة الدقيقة.

قلت لها:

- تابعت حملتك المضادة، وإن كنتِ على استعداد لتقبل النصيحة.
- Sure .
- الحقيقة هي أمضى سلاح في مواجهة الكذب.
- ولذلك سيلجأون إلى تلويث كل حقيقة.
- عدو الحقيقة ليس الكذب ولكن عدوها هو التضليل وهذا مايقوم به إعلام بلا ضمير توجهه شركات عابرة للقارات ..
- للأسف .. دكتورة نورا، صدقيني أنا لست مدمنة.. ولكن.

جلست إلى مكتبي وقد صدق حدسي:

- يقينًا، هم استعدوا لحربهم.

قالت لي بلهجة رجاء:

- أريد أن أجلس معك.
- نرتب معًا لقاءً في عطلة نهاية الأسبوع.

فور انتهاء الاتصال، كانت صورة زوجي حاضرة ومعها اعترافه في أوراقه الخاصة بأنني احتللت كهوفه وكل جوارحه. وأعدت ترتيب حياته، راقبته بعين ملهوفة، أحصيت تفاصيله، ففككت عقده، وعالجت أوجاع قلبه؛ فاستقام كل شيء. كنت أهرب من السقوط في بؤرة الشك في زوجي نحو إحساس بشوكة الشك اللعينة ولو لبرهة، ولكنني شعرت بالضيق لعدم قدرتي على المواجهة، مواجهة التغير الطفيف الذي بدا واضحًا؛ فزوجي لم يعد هو الذي كان، واستحضرت نظرته المطفأة، الهاربة. حاولت الإطاحة بكل مخاوفي في ليلة استثنائية، أردت أن أواجه شكوكي، وأنتصر عليها، وغمرني الحضور الطاغي بوجود ذاتي وكياني. في هذه اللحظة، عاودت عقلي الهواجس، وبدت روان التي وصفها زوجي بالبارونة الشرقية حاضرة، وللمفارقة التي كانت مزيجًا من الألم والسخرية أنني سعيت بنفسي لعودة روان قيصر إلى الأحداث، وكأنني أردت أن أستخلص من حضورها مَصلًا يطهرني من سموم الشك.

كنت بعد ليلتي مع زوجي في قمة الثقة في النفس والقدرة على إثبات ذاتي، وحضوري، ومواجهة التنين في عقر داره.

قبل اللقاء مع روان آخر الأسبوع، كنت أرتب أفكاري لأكون ندًّا لها، ورافضة للهروب من مواجهتها استعدادًا لعقد حلفٍ معها، وتفجير النفق المظلم، العالم السري الذي يسكنه الأبالسة والحيات وساحرات الغابات وشياطين الإنس والجن.

قبل خمس دقائق من بدء المحاضرة، خرجت من مكتبي واتجهت نحو الصالة، وبدأ توافد الطلبة حتى انتظموا على مقاعدهم، قلت لهم:

- نبدأ بما اتفقنا. لنرشح أحد الزملاء لإلقاء محاضرة لا تزيد عن ربع ساعة في أي موضوع من اختياره.

رفع البعض أياديهم، قلت وأنا أتحرك بين المقاعد:

- خمسة زملاء يريدون الحديث، وعلينا اختيار زميل واحد فقط.

كان النقاش حاميًا، تباينت الآراء وعلَتِ الأصوات. كنت أخفي وراء عصبيتي وجديتي سعادةً بالغة، وطرقت على الطاولة أكثر من مرة لأستعيد النظام.

في عطلت نهاية الأسبوعِ، كانت ملامح روان رغم الإصرار تحمل همًّا كبيرًا، قالت لي:

- حدث ما توقعته، أثبتت التحاليل أنني مدمنة.
- كما قلت لكِ.. الحقيقة هي القادرة على إسكات الكذب.
- حقيقة في عالم قائم على الكذب .. الأمر ليس بهذه السهولة، وأنتِ تعرفين وسائل الميديا الجبارة والإطار المرجعي الذي نمط المواطن الأمريكي، أنا دعوت لمؤتمر صحفي قبل موعد أول جلسة في المحكمة.

يوم المحكمة، كنت حاضرة معها في المؤتمر وشاركتها في عرض فكرتها وإجاباتها على أسئلة الصحفيين المحتملة، أبدت خلال كلمتها وردودها ذكاءً. رغم الضغوط التي فرضها الموقف، كانت حاضرة الذهن، استلهمت بعضًا من الفكاهة وهي تعتلي المنصة للرد على أسئلة الصحافيين.

قالت:

- نعم. لقد أثبتت التحاليل أنني أتعاطى العقاقير المخدرة.

تعالت بعض الصيحات والاتهامات:

- قلت إنك لم تتعاطها.
- قلت إنك لا تدخنين.
- أنت كاذبة.

صاحت، وهي تشير بيدها:

- لم أكذب. إنها مؤامرة.

صاح صحفي، وهو يلوح بيده:

- أنت عربية. وردكم على كل ما يحدث بسبب أعمالكم وتخلفكم ترددون هذه الكلمة.. مؤامرة.

واصلت روان:

- لقد اشتروا مديرة مكتبي بالمال. وضعت لي جرعات من العقاقير في قهوتي الصباحية ولذلك قمت برفدها.

وأشارت لمدير أعمالي وتناولت منه أسطوانة مدمجة وقالت:

- سأقدم دليلًا – CD – باعتراف جنيفر صوت وصورة ممكن تشاهدونه على الـ Social media .

- وسوف يطلب الدفاع عرضه أمام المحكمة.

جلست إلى المحامي، وبدأ عرض الـ CD .

تتابعت لقطات لجنيفر وهي في مكتبها، تشرف على إعداد القهوة، وتضع بها بعض الحبوب المخدرة ولقطات لها وهي تخفي بعض الملفات الهامة على الحاسب، وكانت أكثر المشاهد وضوحًا ما تم التقاطه في الحفل الختامي للمؤتمر الاقتصادي عندما أصدرت أمرًا بإقالتها. فانفجرت في صراخ مثل المجنونة، أيتها العربية المتخلفة أنت مسلمة إرهابية، وسأجعلك تركعين أمامي قريبًا.

رفع المحامي يده، وتقدم من المنصة، وقال:

- هذا يكفي لبراءة السيدة روان؛ لكونها تعرضت لمؤامرة من منافسين عديمي الأخلاق.

قالت القاضية:

- دليل براءتها في قضية ليست منظورة أمامي، ولكنها لا تبرئها من تعاطي العقاقير المخدرة والتي أثبتتها التحاليل الطبية.

ونظرت نحوها، وقالت:

- السيدة روان أحمد قيصر هل تصرين على إنكار تناول العقاقير المخدرة؟
- كما رأيتم دست لي في قهوتي.

- تصرين على إنكارك؟
- أكثر إصرارًا عما قبل، وأرفض الاتهام جملة وتفصيلًا، شكلًا وموضوعًا.

** **

(٣)

روان قيصر

"تم الإفراج عني، مع خضوعي لبرنامج لكي أتخلص تمامًا من التعاطي. وتثبت التحاليل الدورية ذلك، كنت أعتبر ما حدث نصرًا في أولى الجولات ضدي، وتراجعت الحملة الإعلامية، ولكنني كنت على يقين من أنهم لن يستسلموا.

في المساء، اصطحبت نورا مع ديفيد على العشاء، قلت لهما:

- ما تقييمكما لهذه الجولة؟

قال ديفيد، وأيدته نورا:

- مجرد معركة صغيرة.

التفت إلى نورا التي قالت:

- أخشى أن تكون هذه المعركة استدراجًا لكِ.

غمغمت متسائلة:

- دفعوني لنصر حتى أُستدرج؟!

قال ديفيد:

- سيناريوهات هذه الحروب تكون متعددة الأهداف.

قالت نورا:

- **تمامًا مثل نقلات قطع الشطرنج.**

ازداد قلقي، وإن كنت قد حرصت على التحكم في توتري والسيطرة على أعصابي منذ إدراكي الكامل بأنني تحت السيطرة، ويقينًا لهم جواسيس، طابور خامس في مؤسسة البارون، يمهد لهم أرض المعركة، يحطمون حصون قلعتي قبل اختراقها، ربما ما أعتقده في لحظات توتري الداخلي أفكارًا سخيفة، ولم أستبعدها من زرع شرائح أو كبسولات تحتل موضعًا ما في جسدي، تعمل على مدار الساعة تؤثر حتمًا على معالجة المعلومات بدون وعي أو شعور عن طريق المعالجة الآلية " Automatic processing" كنت أبتعد بكل هذه الاحتمالات عن الضغط على المسار المحتمل للصراع الخفي. وبعد الحملة الصحفية، طفت الحرب على السطح، وأسفر الصراع عن وجهه الواضح الصريح، وكان ذلك سببًا للاجتماع بنورا وديفيد، ومناقشة الخطوة القادمة.. قلت:

- **أنا أفكر جديًا في تشكيل فريقٍ لإدارة الصراع القادم، وأنتما ستكونان معي.**

قال ديفيد:

- **المعركة القادمة شرسة.**

قالت نورا:

- لو كان استدراجًا لكِ حتمًا سيكون القادم أعنف.

كنت قد اكتشفت جانبًا خفيًّا من توقع نورا الطبري بشأن استدراجي من خلال نصر وهمي، فهل تحولت بعد خمس سنوات من العمل معهم إلى فريسة ثمينة أرادوا تدليلها قبل افتراسها والقضاء عليها؟! كان الاكتشاف يحمل إهانة لذكائي واستخفافًا بكرامتي..

التفت إلى ديفيد، وسألته:

- ماذا بخصوص إرخ زيجا.
- أرسلت "ماسدج" إلى موقعه وما زلت أنتظر الرد.

عدت إلى مكتبي مزودة بإصرار شديد على إعادة هيكلة البارون وعمل دراسة شاملة، ومراجعة ملفات العاملين، وتقييم أعمالهم. طالبت ديكسلر فورد بإعداد لجنة فنية للقيام بهذه المهمة، ولحين إتمام الدراسة طلبت اجتماعًا مع رؤساء المؤسسات المالية لمناقشة تعويض الخسائر التي حدثت بسبب الحملة الصحفية.

** **

(٤)

عفاف همام

"كان كل شيء حولي قد فقد معناه: الوجوه لم تعد وجوهًا، صارت مسوخًا مشوهة، وجوهٌ لخنازير راحت تقفز حولي، وأنا أصيح بلا خوف ولا تردد، شملتني شجاعة مواجهة الموت الذي كان يترصدني منذ زمن بعيد، وفشل في النيل مني".

تدخل ضابط صغير ليهدئ من الثورة التي أطاحت بصواب رئيسه، وطلب منه في هدوء أن يستكمل معي التحقيق، فأشار الرئيس وهو يخطو نحو الباب:

- طلع عينها هذه المجرمة.

قال الضابط، وهو يصطحبه للخارج:

- فنجال قهوة سيهدئ أعصابك.

أغلق الباب، وخطا الضابط الشاب نحوي، وقال للأمين:

- ساعدها يا أمين.

والأمين يرفعني من فوق الأرض شعرت بماء ساخن قد تسرب مني. وهالني ما أنا فيه من بؤس. جلست وأنا أتحاشى البكاء برغم الضعف الذي يشمل كل كياني. تناول الضابط الشاب منديلًا وقدّمه لي. أخذته وشرعت في مسح الدماء التي خرجت من

فمي. وأحسست بأحد أسناني عالقة في فمي، مددت أصابعي ونزعتها. وكتمت الدم الذي انفجر بقطعة المنديل.

انتبهت إلى وجه الضابط، كان على عكس سابقه. شعرت بأسفه على ما حلّ بي.

قال محاولًا إخفاء شفقته:

- أنتِ السبب.

أومأت رافضة برأسي.

قال للأمين:

- خذها الحمام تغسل وجهها.

وأنا بصحبة الأمين، رأي ثوبي المبلل، لم يستطع إخفاء شفقته.. قال:

- لو عندك في الأمانات لبس، ممكن تغيري.

فتح الباب، كانت ابنتي تنتظر، اندفعت نحوي احتضنتني وهي تبكي:

- ماما!

تأملت وجهي بنظرة مفجعة:

- دم! من عمل فيكِ هذا؟!

همست في هدوء:

- أنا بخير.

لم أنتبه لوجود دكتور مختار راضي الذي احتواني بنظرة مفجوعة، وقال ثائرًا:

- من بهدلك بهذا الشكل؟
- الحمد لله.

واصل ثورته:

- تكلمي يا عفاف. نحن في بلد فيها قانون.

همست:

- حصل خير.
- خير ؟! وأنتِ..

نظر إلى طرف ثوبي المبلل، وواصل:

- هذه جريمة، سأشتكي في الوزارة.

خرج الضابط الشاب من المكتب، وقال للأمين:

- اذهب بها إلى الحمام.

......، "

انتبهت عنان إلى ملامح الضابط الشاب. تداخلت توقعات لم تكن إلا في خيال بعيد. كان الوجه واضحًا مميزًا، لم تغير فيه السنوات الخمس شيئًا. بريق العين الخضراء يطلق نفس الدفء القديم وابتسامته المشوبة بخجل.

احتواها الضابط، وقال:

- آنسة عنان حفني.
- أنت؟!
- مصطفى عبد الناصر.

ترقّى مصطفى عبد الناصر إلى رتبة ملازم فور حصوله على كلية الحقوق من مركز جامعة الإسكندرية للتعليم المفتوح.

** **

الفصل العاشر

(١)

ألفت شاكر الباجوري

جلست فتاة بفستان من الموسلين مفتوح الصدر تعزف على البيانو قداسًا دينيًّا، كان قد انتهي منه موتزارت قبل وفاته. في قاعة صغيرة تضم عددًا قليلًا من عشاق الموسيقى، ران الصمت على الوجوه وغشاها خشوع تام، كان بالقرب من المسرح شاب تعلو ملامحه بسمة ساخرة لم يلحظها أحد الحضور، وهو يرى الخشوع الذي يخيم على الجميع وهُم يستمعون إلى قداس مرَّ على تأليفه أكثر من قرنين. لم يكن يعنيه العزف الذي ينصت إليه الجمهور الصغير، فقط تلك الفتاة التي قبل أن يتطلع إلى وجهها أدرك أنه لم يخطئ في اختيارها.

انتهى العزف، ووقفت لتحيي الجمهور الذي استمر في التصفيق في حين صعد الشاب المسرح، واقترب منها، قدّم لها باقة زهور، وهمس لها:

- وليد عمارة.
- ....
- ورودي لن تباريكِ في عزفك الرائع.
- مرسي.

لم يكن في أقصى كوابيس ألفت شاكر الباجوري أن هذه اليلة تشكل حدًّا فاصلًا في حياتها. فقد بدأت كوابيس حياتها التي لم تنقطع بعد لقائها بوليد عمارة.

بعد الحفل بيومين، اتصل بها وألحَّ في طلب الجلوس إليها. في تمام التاسعة، جلسا في كافتيريا الأوبرا، قدم لها نفسه على أنه رجل أعمال تعددت مشاريعه وتضخمت ثروته. وكل من التقى بهن يطمعن في ثروته؛ وهذا سبب عزوفه عن الزواج.

كان طلبه للزواج منها بهذه الطريقة يحملها على الرفض، بل وفكرت في الانصراف بعد نصف ساعة من اللقاء.

قالت:

- لو كان الأثرياء لهم نفس أفكارك ما تزوج منهم أحدٌ.

ردّ في ثقة:

- نجح منهم من أحسن الاختيار.

غمغمت:

- ممكن، احتمال.

تعددت اللقاءات، واستمر وليد يعزف سيمفونيته الخاصة، وهي التي عشقت الموسيقى. بدأت تستمتع بعزفه المنفرد. كان ذكيًّا يجيد الحديث إلى النساء، طلبها

للزواج ووافق الأب شاكر الباجوري السفير السابق المقيم بين القاهرة وأثينا لمتابعة مشروعاته بعد وفاة زوجته وزواجه من سيدة يونانية.

اتفق العروسان على قضاء شهر العسل في فرنسا، باريس مدينة الرومانسية.. مدينة الحب والملائكة.. مدينة العطور والنساء. ارتوت من رحيق الحب وامتلأ قلبها بعسل مصفّى، وهما يعبران جسر ميرابو على نهر السين بعد زيارة جاليري برنارسيسون **Bernard Ceysson** .

- لا أعرف حتى الآن كارير عملك، نوعِ البيزنس الخاص بك.

همس وهو يرسم على فمها قبله ناعمة:

- كل شيء يخص النساء والحب.

تشككت لبرهة.. سرعان ما عبرتها، وكررت السؤال. فقال:

- أكيد ستعرفين.
- هل هو سر؟
- الغموض هو سر الصفقات الناجحة.

هتفت ضاحكة:

- الرجل الغامض بسلامته.

عندما استقرت على قبول الزواج منه، كان قد دهمها بجماله وأناقته ولباقته، استطاع بمهارة أن يصنع لها أسطورته الخاصة. قالت له في ليلة عشق.. أنت جعلتني أعزف أجمل سيمفونية في حياتي. كان قد أخرج من أعماقها جمال الأنثى عندما تحب، وقدرتها على إشاعة اللذة. كانت قبل لقائه تضع حدًّا بين الواقع والخيال. لكن معه صار الخيال واقعًا فاق كل أحلامها، كان معها جميلًا، رائعًا، مترعًا برجولة نادرة.

في رحلة نهرية كان يثبت كاميرا ديجيتل حديثة؛ لتسجيل الرحلة التي استمرت لخمس ساعات، تأملت الكاميرا وصورتها فائقة الجودة، وقالت:

- وليد.
- نعم يا حبيبتي.
- ممكن تصور حفلات الصولو التي سأقيمها في الأوبرا بعد شهر العسل؟
- أكيد.

وضمها إليه، وقال:

- لن أكف عن تصويرك.

كانت تشعر بشك غامض تسلل إليها لحظة تساقطت ابتسامة غير مريحة.. ضحكة شاذة، ساخرة، مسكونة برائحة غريبة. رأت عدة وجوه لزوجها. كان يرتدي عددًا من الأقنعة بعضها غير مريح، بل يقفز بتوقعاتها إلى بؤرة مظلمة، يقترب نحوها ليبتلعها.

ليلة الاستعداد للعودة للقاهرة على طائرة **Air France** كان في الحمام. وانتهت في إغلاق الحقائب، وراحت تعبث بالكاميرا، توالت عدة لقطات لهما. وفجأة، بدأت مشاهد بورنو،!! ما هذا؟!. مَنْ؟! إنها أنا!! عارية و....، شهقت وقد شعرت بالأرض تدور وتوالت الأقنعة في السقوط، والبؤرة المظلمة تقذف بأشعة سامة قاتلة. اللقطات الأولى تصور الليلة الأولي. فض غشاء البكارة ونقاط الدم تتساقط.. ثم.. توالت المشاهد الجنسية لقد تم تصويرها من كل الزوايا وبكل الأحجام وصراخها من اللذة كان واضحًا جليًّا.

خرج.. توجه نحوها.. رأى الكاميرا وأدرك من وجهها المصدوم اكتشافها الحقيقة. في هذه اللحظة سقطت كل الأقنعة.. ولم يبق إلا وجه كريه.. يبتسم ساخرًا.. كقناص أوقع بفريسته في شراكه وليس لها من مفر.

سألته بقلب مصدوم:

- ما هذا؟!

تناول منها الكاميرا، وقال:

- البيزنس.

شهقت:

- هه! بيزنس! أنت؟!

أومأ برأسه:

- نعم.

صرخت وهي تتأهب لصفعه على وجهه:

- تتاجر بلحم زوجتك.

انفجر ضاحكًا:

- وبلحم أمي لو أمكن.

واصلت الأرض دورانها:

- أنا لا أصدق، أنت!؟

- اهدئي.

وهي تتشبث بآخر لحظة قبل سقوطها الأخير:

- أحرق هذه اللقطات فورًا.

- Ok. لكن يوجد غيرها، واتفقت على بيع الدقيقة بعشرة آلاف دولار، وسأقسم معك، فيفتي فيفتي.

صفعته على وجهه وصرخت:

- يا كلب.

واصلت صفعه على وجهه.. حتى خارت قواها. قبض على يدها، ودفعها فسقطت أرضًا، وقال:

- الطائرة موعدها بعد ساعة.

بدأت ألفت الباجوري رحلتها مع الكوابيس السوداء.

فور وصولها إلى القاهرة، أصرت على الذهاب إلى شقتها في الهرم القائمة على واجهة شارع جمال الدين الأفغاني. لم يحاول إجبارها على الذهاب معه. كان جرحها العميق قد وصل بزواجها القصير إلى النهاية، فلا بد من الطلاق، ولكنه بالتأكيد سيبيع الأفلام القذرة إن لم يحدث اتفاق يربح منه. ويشهر بها، ويقضي عليها تمامًا، وهي تركب الليموزين أمام صالة الوصول، قالت له:

- لا تتصرف في شيء عندما تهدأ أعصابي نقعد وننهي كل شيء.
- أمامك مهلة أسبوع.

لا تعرف كيف مرت مهلة الأسبوع! لم تنم طوال الأيام السبعة إلا وطاردتها الكوابيس.. لقطات الأفلام التي تصورها في أوضاع تفنن في تنفيذها كيف تم هذا؟! كيف خدعت واندفعت بكل سذاجة إلى هوة السقوط!.

التقت به في حديقة الأوبرا، وقالت له بوجه شاحب:

- كم؟

قال وقد ارتسم أمامها بوجه قرد دميم:

- ٣٥٠ دقيقة في عشرة آلاف دولار، ثلاثة ملايين ونصف دو..لا...ر....
- كم؟!
- وعليهم ورقة طلاقك كادوه مني.

قالت وهي تكاد تبصق على وجهه:

- مليون دولار.

غمز بعينيه، وقال بلهجة قواد نجس:

- نحمرق من أولها؟!

بصقت ألفت في وجهه، وقالت:

- مليون دولار، حار ونار فيك وإلا سأهدم المعبد على رأسي ورأسك.
- ممكن مهلة أفكر؟
- لننه كل شيء الآن.

** **

(٢)

عبد الرحمن

واصلت الاتصال بهند. وبعد ساعتين، فتحت الموبايل، وقالت بصوت مجروح:

- آسفة يا عبد الرحمن لم أكن في البيت، ونسيت التليفون.

مرت لحظة صمت قطعتها قائلًا:

- ضروري أقابلك.

بعد المسرح اصطحبتها على البحر، كانت مهزومة.. تحمل همًّا ثقيلًا ووزرًا لا تقدر على التوبة منه، قالت لي بصوت مكسور:

- أخطأنا خطأ كبيرًا.
- سنتزوج فور طلاقك.
- لم أستطع أن أسامح نفسي، كيف ضعفت، استسلمت لنزوة وأنا في هذا السن؟!

واصلت مواساتها:

- شدة الندم دليلٌ على صدق التوبة.

كان ندمها بسبب شعورها بالخسارة الفادحة، وهزيمتها أمام الاحتياج العاصف لرغبة قديمة، وفشلها في الاعتصام بالهدوء.

وصلنا إلى صخرة على الشاطئ والظلام يلف الكون إلا من أنوار سفينة بعيدة، كنت أشعر بحنو بالغ نحوها، رغم ما بدت عليه تفاصيل امرأة مغموسة في الأنوثة، كانت ملامح البؤس قد توارت خلف أستار الظلام، بؤس النهاية التي ظلت قبل بلوغها لا تريد أن تعترف بالعجز أو الاستسلام؛ ليكون لحياتها وما تبقى من عمرها معنى.

قلت لها، وأنا أجلس إلى جوارها على صخرة:

- هند لن يكتمل معنى حياتي إلا معك.
- عبد الرحمن، طوال حياتي كنت أخشى الخيانة. لقد خنت نفسي قبل أن أخون فرحات. لقد أغواني مفستوفيلس الذي أغوى فاوست.

قلت متبرئًا من اتهامها:

- لم أخنك، أنا أحببتك.
- أنا خنت نفسي، وفي لحظة ضعف تبدد كل شيء.
- هند، ارحمي نفسك.

همَّت واقفة، وقالت:

- غدًا سأسافر إلى القاهرة.
- سأتزوجك.

ونحن في طريق العودة، قالت:

- قلبي قلق على روان ابنتي. آخر أخبارها واقعة في مشكلة كبيرة.. اللصوص لا يتركوها في حالها.

أومأت برأسي، وقلت آسفًا:

- كان شيئًا متوقع.

استقلت سيارتها بعدما أعطتني الإيميل الخاص بروان، وعلى الفور تركت رسالتي الأولى. وأنا أتأهب للنوم، استدعيت رسائلها المصورة القديمة، وهي في فيلتها في انديانا بولس، كانت من النظرة الأولى مفعمة بالإصرار والتحدي. وطوال رحلتنا القصيرة معًا تأكد الانطباع الذي استقر في يقيني، كانت ملامحها تضفي حيوية وإقبالًا على الحياة، ورغبة أكيدة في إصلاح العالم، دخلت في صراع مع منظمات الجريمة المنظمة، وكان مجرد بقائها على قيد الحياة انتصارًا، ولكنه انتصارٌ مؤقتٌ، وهاهم عاودوا التحرش بها استعدادًا للقضاء عليها.

تواصلت مع زوجتي على الواتس، كان النهار في أوجه على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، وهي تخرج من مكتبها وتعبر روان إلى صالة المحاضرات.. قالت:

- التقيت بروان قيصر.

احتواني الصمت؛ فاسترسلت حديثها:

- جولة جديدة من الصراع مع المافيا، سوري يا بيبي. ادخل على صفحتي وستعرف كل شيء.

مرت ساعات الليل وأنا أتابع وقائع الصراع بين مؤسسة البارون ولصوص العالم الكبار، كانت روان كما رأيتها امرأة ناضجة عامرة بالأنوثة في كل المحافل والمؤتمرات الاقتصادية الدولية. وفي المؤتمر الصحفي الأخير وهي ترفع الـ CD دليل خيانة مديرة مكتبها لها؛ كانت في قمة حضورها، وللمرة الثانية حيث بهاء اللحظة الاستثنائية التي تتجلى خلالها حقيقة كامنة.. استدعى حضور من عمق الذاكرة عنان حفني، وعلى الفور انتابني شعور بالندم.

أغمضت عيني ولم أدر بشيء، كان الصمت والسكون، ثم الخلاء والخواء.. ثم... لا شيء.

......

صرخ مفستوفيلس في وجه فاوست:

- *تشبث بأضلاع الصخرة العنيفة. وإلا سقطت في قاع هذه الهاوية.. هاهو ذا الضباب يغلق الليل. تسمع القصف في أرجاء الغابة.."*

** **

(٣)

دكتور أبو العز فرحات

في إحدى فترات الراحة القليلة التي كان ينتزعها من مشاغله ومشروعاته وصفقاته وسفره بين دول الخليج وجنوب أوروبا وأفريقيا؛ كان ينفق بعض الساعات في النادي مع صديقه دكتور وحيد فرج، وقد توارى اهتمامه بأمور السياسة إلا ما له تأثير علىأعماله الذي تضخمت إلى حد بعيد. عندما قام صدام حسين بغزو الكويت، وتم القضاء نهائيًّا على خمسة مشروعات لشركة **FAZ** قرب ميناء الأحمدي، حزن لأيام ولكنه سعى لتعويض خسارته عن طريق الفوز بمشروع ضخم جنوب السودان.

قال له دكتور وحيد:

- دكتور أبو العز لا يفكر في الزواج؟
- هذا الولد أتعبني كثيرًا.
- لِمَ؟ أبو العز أسمع عنه كل خير، دكتور ناجح.
- كنت أريده مهندسًا ليدير " **FAZ** " وأستريح أنا.
- ميرفت الخير والبركة. سمعت كلامك ودخلت كلية الهندسة.
- فيفي، مثل أمها تمامًا، وخائف عليها، رقيقة قوي في عالم صعب.

تناول الدكتور فنجال القهوة، وقال:

- أنا عندي عروسة لعز ابنك.

- مَنْ؟
- على رأي المثل أخطب لبنتك ولا تخطب لابنك.
- تقصد بنتك مريم؟!
- وأنا عندي غير مريم.. نعم.
- أنا موافق، المهم هو.
- عز موافق.
- واضح إني آخر من يعلم.
- أنا كنت مثلك.

في خريف ١٩٩٥ تم زفاف أبو العز فرحات ومريم وحيد فرج في الماريوت. في زفاف أسطوري حضره لفيف من الوزراء ورجال الأعمال وعدد من سفراء الدول العربية، ونشرت المجلات الفنية صور الزفاف، وأشار أحد المحررين إلى أن مفاجأة الحفل الذي استمر حتى الصباح في الجمال والتألق؛ كانت السيدة ألفت هانم الباجوري زوجة والد العريس رجل الأعمال المهندس فرحات أبو العز.

عز كان يحمل الكثير من سمات أمه الراحلة هدى البدوي، معاملته غاية في الرقة، استطاع بهدوء طبعه احتواءَ عروسه خريجة إدارة الأعمال من الجامعة الأمريكية، كانت تتولى الإدارة المالية لمستشفى أبيها الذي يمثل واجهة كبيرة في منتصف شارع صلاح سالم بالقرب من شارع بيروت.

حاولت إقناع زوجها عز بالاستقالة من مستشفى الجامعة والعمل في مستشفى دكتور وحيد فرج، لكنه رفض، وقال وهو يسوي خصلات شعرها:

- الطب يجب أن يظل بعيدًا عن البيزنس؛ لأنه رسالة.
- حبيبي، وما المانع من أن نرفع كفاءة المهنة وهذا بالطبع يحتاج إلى أموال، والأغنياء يمرضون أيضًا.
- لو كنت أحب البيزنس لدخلت كلية الهندسة وأدرت شركة " **FAZ** " .
- فكر، أرجوك.
- أنا أفكر في شيء آخر.
- ما هو؟.
- إقامة مشروع مستشفى ضخم باسم ماما..السيدة هدى البدوي.

ظل مشروع المستشفى ملفًّا مغلقًا في عقل دكتور أبو العز، فقد تواصلت الترقيات حتى وصل في سن صغير إلى منصب الرئيس الفني بقسم الجراحة بالمستشفى الجامعي، أثبتت الأحداث بأن الهدوء والرقة التي يعامل بها الجميع كانت تخفي وراءها كائنًا على النقيض من ذلك، وكأن بعض الجينات التي ورثها عن جده حسن البدوي في انتظار اللحظة المناسبة لتعلن عن نفسها، هذه الجينات الصامتة استطاع دكتور وحيد فرج إيقاظها. واستطاع بعد عامين من الزواج من تحريك الماء الساكن والإطاحة بهالة الهدوء والرقة، التي أثبتت الأحداث بأنها لم تكن إلا قشرة واهية.

رغم إلحاح دكتور وحيد في إقناعه بالإدارة الفنية لمستشفاه الخاص؛كان الرفض قرارًا لا تراجع عنه، حتى عرف دكتور وحيد السبب عندما قال له:

- مثلي الأعلى جدي حسن البدوي.

ضحك الرجل، وقال:

- غابت عني، تطمع في الوزراء.

رد أبو العز في حماس:

- أطمع أن أكون أصغر وزير صحة في تاريخ الوزارة من أيام الوالي محمد علي.

قال الرجل وهو يشمله في غبطة:

- قدها وقدود يا دكتور.

واصل دكتور أبو العز فرحات العمل بكل همة، وقد زاده التشجيع نشاطًا. كان يرى من زوجته مريم وحيد فرج سيدة أعمال بامتياز، تمتلك طاقة عالية في الإنجاز، وحصلت المستشفى بفضل إدارتها على تصنيف متقدم، واستطاعت أن تجذب مرضى من دول الخليج لإجراء جراحات خطيرة، وعقدت شراكة مع سلسلة مستشفيات عالمية، واستدعت جراحين عالميين لإجراء دورات تدريبية لاصطف

الأطباء، واستضافت عددًا من المؤتمرات الطبية، ولم تترك فرصة عقد اتفاقٍ مع وزارة السياحة لتنشيط السياحة الطبية.

وهي في كامل زينتها وتألقها، تتأهب لأحدث مؤتمراتها، أشرفت على كل التفاصيل، استأجرت قاعة فاخرة في أحد الفنادق النيلية، أعدت البنارات والديكورات حتى الإضاءة والبرنامج الذي سيلتزم به الضيوف، تناقشت مع

مخرج الحفل في كل التفاصيل..

عندما صعدت لإلقاء الكلمة الافتتاحية، أمام الحشود العرب والأجانب؛ كانت لا ترى إلا أباها وزوجها.

وهي على وشك الانتهاء من كلمتها، وصل رنين الموبايل ليزف للدكتور عز البشرى التي انتظرها طويلًا، وألح في الحصول على قرار الترقية، وبعد دقائق وصله على الإيميل رسالة ترقيته وكيل أول وزارة الصحة لمحافظات الإسكندرية ومرسى مطروح. كاد ينفجر غيظًا فقد كان يرى من حقه أن يعين في مقر الوزارة بالقرب من مكتب الوزير. دكتور وحيد قال له:

- خطأ كبير أن يكون لك مكتبٌ في الوزارة.

شمله بنظرة وعقد بين حاجبيه، وقال:

- وما الخطأ في ذلك؟

- وجودك في الوزارة ستكون محسوبًا ضمن رجال الوزير، وعند أي تغيير وزاري سيطيح بك معهم.
- لكن سفري للإسكندرية وابتعادي عن القاهرة وبيتي!.
- يومان كل أسبوع فقط.
- سأرى.

بدأ دكتور أبو العز فرحات عمله بجولة على المستشفيات الجامعية، وسبقته سمعته الحادة وعدم تهاونه.

قال مدير مستشفي ناريمان منبهًا الاصطاف:

- دكتور أبو العز حنبلي. الروتين طق منه، ممكن يوقع جزاء نصف شهر على تأخير ١٠ دقائق.

رد آخر:

- الغربال الجديد له شدة.

** **

(٤)

روان قيصر

"الهدوء الذيأعقب الحملة الإعلامية، كان مشوبًا بالحذر، أيقنت حقيقة الخطر الداهم الذي ينتظرني، الاعتقاد الذي بات واقعًا، وجودي هو الخطر الذي يمس أمن دولة أثرياء العالم، المتحكمين في مصائر البشر. كان مجرد الهروب من المصير الذي ينتظرني هو التعجيل بالحكم بالإعدام، فكان الخيار الوحيد والمتاح والممكن هو المواجهة. رافضة الاعتراف بمحتميات هذا الخيار، والتي تحولك إلى بطل تراجيدي يصارع الساحرات والآلهة، والقدر، ونهايته الحتمية، الموت، كنت أرفض اعتبار هؤلاء الأشرار قدرًا مسلطًا يتحكم في الوجود ومصائر البشر، هم ليسوا إلا شياطين.. لصوص.. قتلة.. مجرمين.. يملكون آلات جبارة من مراكز أبحاث وكتاب سيناريو وعقول وأموال ودول تنفق ببذخ ليستمر تحكمهم وتسلطهم وتهديدهم، كانت الحرب قد صارت مفتوحة، وخرجت إلى السطح والمواجهة قائمة، لم يكن الهدوء الحذر سوى الاستعداد الذي يسبق القصف، وكان عليّ أن أكون البادئة.. أن أمتلك ميزة المبادأة التي حتمًا تعطيني تفوقًا نسبيًّا وقدرة على المناورة.

انتهى برنامج مراقبتي.. وعدت إلى مكتبي وطالبت الاجتماع بالمديرين ورؤساء الأقسام، حاولت أن أبدو سعيدة بالانتصار الذي أرغم الأعداء على التراجع التكتيكي، وفسرته دكتورة نورا الطبري على أنه استدراجٌ لي، لكن كنت أريد أن أخفي قلقي وتوقعيللخطر القادم من حرب قذرة ستنشب حتمًا.

قبل اكتمال أعضاء الاجتماع، وأنا أراجع بعض الرسائل، كانت رسالة عبد الرحمن على الإيميل، لحظة عثوري عليها انتابنيإحساس بالسعادة المفاجئة بالرغبة في أن هناك من يفكر فيَّ ويشغله أمري. هتفت مبتسمة، يااه هـ عبد الرحمن..

......

"عزيزي وصديقي المبدع، أنا في انتظارك في تمام الثامنة مساءً بتوقيت القاهرة على الواتس".

ودونت رقم هاتفي..

....

أثناء الاجتماع الذي استمر ربع الساعة، ألقيت على الجميع رسالة قصيرة. قلت.. "إن مؤسسة البارون تتعرض لحرب شرسة.. ونحتاج إلى جنود كوماندوز، أي تقصير في العمل لا مكان له. خلال شهر من الآن، نحتاج تعويض الخسارة التي لحقت بنا مؤخرًا"

والتفتُّ إلى ديكسلر فورد، وقلت:

- أريد تقريرًا مفصلًا عن إنتاج كل الشركات.
- Ok.

استدركت:

- اتصل بإداراتنا في أوروبا والصين وجنوب شرق آسيا ومكتب البارون في الإمارات، وأبلغهم بتوجيهات هذا الاجتماع.

انتهى الاجتماع وجلست منفردة، كنت أهيئ نفسي للحظة سكينة تريح أعصابي بعد هذا الضغط المرعب جرَّاء أحداث شهرين، أعلن فيهما اللصوص حربهم. وتأكدت لمرات عدة من أني لا أطارد إحدى عائلات المافيا على علاقة بتنظيم دولي للجريمة المنظمة، بل أنا الطريدة. هذه هي الحقيقة. وكان عليَّ ألا أستسلم لخطتهم، لابد أن أربكهم. فلن أواصل الجري والاختباء، بل سأواجههم بشجاعة وبخطة تكشف أجرامهم.. وقتلهم لأبي.

ولكن.. هل سأنتصر؟

في أول لقاء بيننا عبر الواتس، لا أدري لماذا لمحت في أعماق نظرتك إحساسًا خفيًّا بالخجل والتردد، لكنه لم يخف لهفتك علي، وسعادتك بأنني أتواصل معك. كان قلقك عليَّ باديًا، رددت بامتنان بأنني في حاجة لنصيحتك ومساعدتك.

قلت لي:

- أنت في حاجة إلى استراحة محارب.
- إنهم ينتظرون هذه اللحظة ليضربوا ضربتهم القاضية.
- ما هي خططك لمواجهة هؤلاء؟

أنت تعرف أنها حرب شرسة، قذرة، وقد أطلقوا الثعالب والذئاب خلفي. ولكنني حتى هذه اللحظة مازلت على قيد الحياة، وهذا لا يعني شيئًا آخر غير أنني صامدة.. قد تراه معاندة ومكابرة مني، ولكن يكفي أنني أرى ذلك حقيقة. وأشعر بالقوة التي تجعلني قادرة على مجابهة هؤلاء، أعرف– وتعرف أنت أيضًا– أنني سأخوض معارك ضارية قبل الوصول إلى المعركة الحاسمة. وكما قالت زوجتك نورا الطبري في إحدى فقرات مقالها بأن الحرب الأخيرة الفاصلة ينتصر فيها من استعد عن طريق عدة حروب صغيرة، أنهك فيها خصمه، ولا يسمح فيها بالانتصار لمن سيتم هزيمته حتمًا في النهاية.

قلت:

- لا توجد خطط، أريد مساعدتك.

بدت الحيرة على وجهه، وهو يغمغم:

- لا أعرف كيف أساعدك!.

قلت له؛ لأبدد حيرته:

- صدقني يا عزيزي، ليس عندي أسرار أخفيها عنك، روايتنا الآن رواية حقيقية؛ لأنها لا تحتمل أن تكون رواية كاذبة.
- لا أريد أن أخيب أملك.
- حاول.

- أعدك بأنني سأحاول مساعدتك.

انتهى الاتصال، ودخلت إلى فراشي، وقبل أن أستسلم للنوم رنَّ الهاتف. فتحته في عصبية:

- نعم ديفيد.

قال:

- أتمنى أن تجدي فرصة للقائي غدًا.
- Ok.

أغلقت الموبايل، واستسلمت لنوم عميق...."

....

كنت أعرف– يقينًا– بهول أحداث رواية حقيقية تتحدث عن صراع.. بالتأكيد غير متكافئ، وبالتأكيد أيضًا المنتصر معروف والمنهزم معروف. ولكن كيف نجافي الحقيقة ونخلق انقلابًا دراماتيكيًّا ينتصر فيه الأقل عدة وتجهيزًا والأقل علمًا، في نفس الليلة تحدثت حديثًا قصيرًا مع زوجتي، فقالت:

- في هذه المعركة من يملك الحقيقة هو المنتصر على من يروّج للكذب.
- في عالم تحكمه قوى شريرة لا مكان للحقيقة.
- ولكنها– حتمًا– ستنتظر.

لم أعقب بأن هذا الاعتقاد هو السذاجة المفرطة؛ فالواقع متغير والحقيقة نسبية، ولذلك فلها أكثر من وجه.

أمعنت زوجتي النظر في وجهي، وانتابها الشك، وقالت:

- عبد الرحمن،! هل تخفي عني شيئًا؟!

كان السؤال مباغتًا. قلت لها:

- أنا غير مقتنع بقدرة روان على تحدي هؤلاء.
- غير صحيح. هذا الانهزام هو سلاحهم لهزيمتنا، وهو استراتيجية قائمة.
- أنصحيها بأن تتوصل معهم إلى اتفاق يحفظ لها بعض الحقوق.
- ....
- ....

عادت صورة روان التي تحتل الشاشة، واستقرت نظرتي على سترتها الفوشيا. كانت تصرفاتها وتحديها لعائلات المافيا تثبت أنها عنيدة. فلم تتعود على الهروب من المواجهة. ولكن هذه المرة رفضتُ أن تكون بطلًا أسطوريًّا، تتحرك نحو قدرها المحتوم.. رفضت أن تكون ضحية هؤلاء الأفاقين، وكان السؤال.. كيف؟! سألته لنفسي وأنا أصيغ رواية روان قيصر، ولم أجد غير سياق وحيد لابد أن تسلكه، فلن تستمر في مواجهة الشيطان.

** **

(٥)

عفاف همام

"أخذت من الحياة ما يكفي، ولست أطمع في شيء آخر. زوجي الراحل مات راضيًا عني، كان يطمئنني.. يريحني.. يهبني استقرارًا نفسيًّا كبيرًا، رغم الأزمات والتحديات والتهديدات التي مررت بها.. كان بداخلي الرضا واليقين وأردد.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. كنت راضية بقضاء الله وقدره وأغمغم.. كله خير. فكان هذا الرضا الذي يشملني يطمئن القلب حتى وأنا في ذروة الوضع المهين. كنت محاصرة بالعجز التام، وتحول الوجوه إلى مسوخ وشياطين، فقدت ملامحها الإنسانية؛ كانت المؤامرة التي نشبت أظافرها في لحمي تدفع بي كبش فداء لسنوات من الإهمال والفساد والفوضى.

قال دكتور مختار:

- هذه نتيجة الشكاوي. أنتِ تحديتِ شبكة اللصوص.

قلت وقد شملني هدوء تام:

- لن أتخلى عن مسئوليتي؛ لأن المرضى مسئوليتي. الحملة الأخيرة، المؤامرة التي تم تدبيرها ضدي، فلم أكن أعتقد أن شبكة الفساد تضم رؤوسًا كبيرة، تخشى من فتح ملفاتها.

وأنا أخرج من مكتب النيابة، تحول إحساسي بالبؤس إلى إهانة كادت تطيح بكل شيء. وها هي كرامتي مستباحة ملقاة على الأرض يطأها أذناب اللصوص، وذيول الفساد العفن. نظرت إلى وجه الدكتور مختار. كم يحمل من فزع وغضب، وشفقة على حالي!، وامتلأ قلبه بإحساس صادق بالحب. في هذه اللحظة المجردة، العالقة من سياق زمن جميل عبرنا ومضى؛ كان علي أن أقر وأعترف وأنا في قمة ضعفيوانسحاقي بأن مختار راضي يحبني بصدق. وأنا..

أنا....؟!

مشاعري لم تعد ملكي. لم أكن قادرة على السيطرة عليها أو الإحساس بها أو بأي

شيء. التفت نحو ابنتي هربًا من حصار نظرته التي تطوقني وتضيق عليَّ الحصار.

كانت تتحدث إلى الضابط مصطفى:

كنت قد عرفت الملازم مصطفي عبد الناصر، عندما اعترفت "عنان" بأسفها وندمها بسبب سوء معاملتها لأمين الشرطة المريض الذي تودد إليها. قالت إنه جميل، ملامحه الأوروبية تضفي عليه مقاييس وسامة لا تنتمي لنا، عيون زرقاء وشعره وبشرته.. كل شيء فيه يقول إنه ابن خواجة.

....

قالت عنان وسط دموعها، وقد أدركت التطور الذي حدث لمريضها ابن الخواجة:

- يا باشا، أمي بريئة.
- صدقيني لو بريئة.. سأكون أول المدافعين عنها.

وعنان تواصل محاولتها المستميتة لإقناع الضابط الشاب ببراءة أمها. تدخل الدكتور مختار، وقال:

- حضرة الوكيل، تقرير مصلحة الطب الشرعي يثبت أن حالات الوفاة لمرضي ميئوس من شفائها. إصابات الفقرات العنقية عادة تكون مميتة.

دخل المحامي منصور الشناوي، وقدم ورقة، وقال لوكيل النيابة:

- صورة خطاب رسمي من السيد رئيس قسم الإحصاء الطبي والتسجيل بالمستشفى. مرفق به بيان بأسماء المصابين بإصابات في الفقرات العنقية، ومنهم العشرون حالة وفاة المتهمة موكلتي عفاف همام الأسواني بقتلهم، ومذكور سبب الوفاة إصابة الفقرات العنقية لديهم.

قبل أن يتصفح الملازم مصطفى الخطاب، امتدت يد الوكيل والتقطته، وقال بلهجة صارمة:

- محامي المتهمة وابنتها والدكتور.

واستدرك ساخرًا:

- والمتهمة، هربت؟!

دخلت عفاف بصحبة الأمين الذي أدّى التحية وخرج.

قال الوكيل مشيرًا للجميع:

- اتفضلوا بره.

أشار مصطفى فتأهب الجميع للخروج. ولكن دكتور مختار توقف، وقال:

- ممكن أقول كلمة.. الحكيمة عفاف يضحون بها لأنها أرادت أن تفتح ملفات فساد ثقيلة.

ابتسم الوكيل ساخرًا:

- نورت المحكمة.

وأشار في قرف:

- برّه.

خرج الجميع، وقال المحامي:

- أنا حاضر التحقيق مع المتهمة.

....

"تم تحويل القضية إلى النيابة، وواصلت الجرائد هجومها. وتجريحها والتأكيد على أنني قاتلة. رغم شهادة الشهود بأن وقف التنفس هو النتيجة الطبيعية والمتوقعة

للمتوفين، ولكن حدث تحول لم أكن أتوقعه رغم كل ما حدث. فقد شعرت بهدوء تام، وشملت روحي سكينة حتى في الأجواء المتوترة التي أشاعها ضابط التحقيق ومن بعده وكيل النيابة، امتلكت القدرة على مواجهة أي نتيجة وأي تصرف عنيف وحماقة يمكن أن يرتكبها. وعندما واجهني بأنّ دافعَ ارتكابي الجرائم هو ارتباطي عاطفيًّا بالدكتور مختار راضي، ولأنه رغب عني، حينئذ استشاط غضبي، ولعب الشيطان برأسي فارتكبت جرائمي، و..

قطع منصور الشناوي هجوم الضابط، وقال:

- غير صحيح، دكتور مختار راضي طلب السيدة عفاف للزواج، ولكنها رفضت.

قلت معترضة:

- لم أرفض. طلبت مهلة للتفكير.

في أولى جلسات المحكمة،اقترب مختار مني، وقال بوجه هادئ ولهجة متفائلة:

- بعد انكشاف هذه الغمة، وخروجك بالسلامة سنتزوج فورًا.

لأول مرة تبتسم ملامحي منذ سقوطي في هذه الدوامة. كأنما الحياة أرادت أن تربت على جروحي العميقة النازفة، فأرسلت هذا الرجل ليقف إلى جواري ويواسي ابنتي، حتى ما قاله ممثل النيابة في مرافعته أمام هيئة المحكمة متهمًا الخبراء الاستشاريين

في القضية بأنهم مجموعة من المرتزقة الملفقين الذين تقاضوا نقودًا مقابل كتابة التقرير الذي يبرئني؛ كنت أؤمن بالحكم ببراءتي.

توالت الجلسات، انتابني الشك. في الجلسة الأخيرة، وأنا أهبط من سيارة الحجز أسرع نحوي واصطحبني، والجنود يقتادونيإلى المحكمة.

قلت وأنا أمعن في عينيه النظر:

- أنت غير مطمئن.

كان مختار راضي قد انتهى من رحلة بحث في أروقة المستشفيات ومكاتب الوزارة، قال لهم إن الحكيمة عفاف همام.. إنسانة رومانسية تحلم بالمدينة الفاضلة.. وتقرير الطب الشرعي وشهادة الشهود والخبراء الاستشاريين يبرئون الحكيمة عفاف همام.

** **

الفصل الحادي عشر

(١)

ألفت شاكر الباجورى

"لم تنته كوابيسي، بل ظلت تطاردني في نومي الجملة الموسيقية، والذئاب والبراري، وأنا أحاول الهروب من قدري دون جدوى.. كنت في نومي ضعيفة.. هشة، واستسلامي للذئاب هو الحقيقة التي أرفض الاعتراف بها تشبساً بالحياة !

عندما التقيت قبل سنوات بقرد دميم حقير، كان لا يزال زوجي قبل عقد الاتفاق، دخل بسيارته الأوبرا.. اصطحبته إلى مسرح الهناجر لأنهي وجوده في حياتي، عندما رمقني تلفت حوله، وقال:

- حقي.. مليون دولار كاش مَنِي.

قلت ساخرة:

- الشيك لا ينفع.

ردد، وهو يحك أنفه بسبابته:

- كاش.
- المبلغ ضخم.

همَّ واقفًا. فقلت له آمرة:

- اجلس.

وأخرجت عقد بيع فيللا هدية أمي قبل وفاتها في سيدي عبد الرحمن، وقلت:

- هذا عقد بيع.

تناول العقد في لهفة، وهو يقرأ بنوده، قلت:

- عقد الطلاق قبل توقيعي على عقد البيع والكاميرا.

أخرج العقد والكاميرا، وقال:

- مرسى قوي يا ألذ امرأة.

قبضت على سترته، وقلت:

- نجس مثلك ليس له عهد.. تعرف حياتك ستكون ثمن نشر أي لقطة من الأفلام على مواقعكم الزبالة .

هز رأسه، وقال:

- اطمئني.

أسرع بالانصراف..

جلست أمام المسرح الفارغ، كنت أريد أن أبكي على سذاجتي وعبطي وخيبتي الثقيلة، كيف وقعت في حبائل هذا الداعر الأفاق؟! كيف عجزت عن فهمه! كيف

خانتني فراستي وفطنتي! كيف خانني ذكائي – الغبي – كيف؟! كيف؟!.. مليونُ كيفٍ.. راحت تصطدم مثل طيور سوداء جارحة في رأسي.

لا أعرف يومها كم مرّ من الوقت وأنا أبكي، وقد استعرضت على المسرح الصغير الفارغ وقائع مأساتي، نبهني أحد أفراد الأمن بأن الساعة قاربت على الواحدة صباحًا، وحان وقت إغلاق المسرح.

ذهبت إلى شقتي، راجعت مشاهد العرى والعناق واللذة. وفي هذه اللحظة، كرهت نفسي إلى أبعد مدى، أشعلت المكروويف. ووضعت الكاميرا. جلست أتابع النار التي تتغير ألوانها، وأوبرا زواج الفيجارو "***Le Nozze di Figaro***" تصل إلى آخر جملة موسيقية، واصلت البكاء مع صوت المغنية اليونانية ماريا كالاس، حتى تحولت الكاميرا إلى كتلة سوداء.

** **

جاء الصوت كمطرقة فولاذية:

- مصير الحي يلتقي.

وكأنني كنت أنتظر هذا القضاء لأستريح من انتظار الصعب، لملمت شتات وعيي المبعثر من هول الصدمة، وقلت:

- ظننتك مِتّ.

قال ضاحكًا في خلاعة مقيتة:

- عمر الشقي بقي.

قلت مهددة:

- أحسن لك ألا تكرر هذا الاتصال مرة أخرى.
- اشترِ أوّلًا.
- وماذا يبيع قوّاد مثلك!.
- الصبر جميل.
- ابتعد عني يا خنزير.
- سيحدث. سأبتعد، لكن قبل أن أغضب وأغلق الخط حدّدي موعدًا الآن. وإلا سأقابل الحاج فرحات أبو العز وأعرض علية برومو لفيلم عمرك.

في اليوم التالي التقيت به، في صالة بلياردو تحتل الطابق الأرضي في أحد الأبراج الحديثة بالقرب من استديو مصر، كنت قد عقدت العزم تمامًا على التخلص منه، ولو اكتشف جريمة القتل. وقدمت للمحاكمة سأعترف بأنني قتلته لأن أمثاله لا يستحقون الحياة. وأنا في الطريق كانت الأفكار السوداء تحاصر عقلي، وتطاردني الأسئلة التي تزيد من توتري، كنت بالفعل لم أنمْ منذ مكالمته التي حطت كالقضاء عليّ، وأذنت بقرب أسوأ نهاية لم أتوقعها في حياتي.

ماذا لو قتلت هذا الجرثومة النتنة!؟ سأكون أنا وزوجي فرحات رجل الأعمال الناجح مادة دسمة للصحافة وبرامج التوك شوز " **Talk Shows** " وبالتأكيد سأحطم

الرجل الذي أحببته بكل قلبي. كان حلمًا جميلًا توارت خلفه كوابيس حياتي. بعد تجربتي المريرة لم يوجد في حياتي أي مجال للثقة في الرجال، ولكنه جاء وغيّر فكري تمامًا.

رأيته وهو يمسح عصا البلياردو، نظر نحوي، وقال بصوت ملغم بالتقزز:

- أهلًا.

وضرب الكرة. وخطا نحوي:

- Time in Time .

اصطحبته إلي كافيه، وجلست، قال:

- تشربي قهوة؟

أشرت بيدي رافضة، وقلت باقتضاب:

- اخلص.
- اهدئي. الموضوع محتاج هدوء.

قلت بلهجة حازمة:

- لو طمعان في جنيه واحد. سيكون الثمن حياتك.

أشار إلى عنقه، وشهق في خلاعة:

- أ..بح.

وانقلبت ملامح وجهه، وقال:

- حياتك أنتِ على المحك.

قلت ساخرة:

- على الأقل، أستريح من وجودك النتن.

احتواني بنظرة كريهة، وقال:

- يوجد **Top Man** سيُجَن ويراكِ.

أطلقت صوت بصقة نحو وجهه، وغمغمت في تقزز:

- كلب نجس أنت وهو.
- أنتِ فهمتي غلط، الموضوع بعيد تمامًا عن الواوا، الـ **Top Man** عمله البزنس السياسي، ممكن تقولي حاكم ومتحكم، وحقيقي أحلامه أوامر.

رحت أهز ساقي في عصبية، وأنا أتجول بعيني في أرجاء الكافيه هروبًا من وجهه القذر ورائحته النتنة.

واصل الحديث:

- الـ **Top man** شاذ..ماينص، **A man gay** ، للأسف زوجك الحاج فرحات تعدّى حدوده معه. ومحتاج قرصه أذن.

كظمت قنبلة الانفجار، وقلت في عصبية وبصوت مكتوم:

- اخلص قلت لك. ثانية واحدة وسأخلع الجزمة وأرقعها على رأسك.
- باختصار يا حلوة الـ **Top man** محتاج فيلم ثقافي لكِ مع الحاج في مقابل فيللا سيدي عبد الرحمن ترجع لك، وعليها مبلغ محترم.

علت ملامحي ابتسامة مُرَّة ساخرة خائفة مختنقة.

قال:

- فكري، وخذي وقتك.

قلت:

- فكرت.
- عارف إنك عاقلة، ودماغك شغال.
- يا شيخ!
- أحدد موعد مع الـ **Top** ؟
- **OK** أولًا تسلمني عقد الفيللا.

أخرج العقد، وقال:

- **موجود، لكن نتفق.**
- **قبل أي كلام أو أي اتفاق، أستلم العقد.**

.......،

** **

(٢)

ديفد بيك

"تحاشيت الدخول في أي صراع، كنت أعرف يقينًا أن ذلك الهروب لن يجنبني الاصطدام بقوى الشر. ولكن لم أسع لإعلان حربٍ مهما كانت صغيرة تافهة، حاولت التصالح مع نفسي؛ لأتصالح مع العالم بكل شوائبه، بكل علله وأمراضه. قلت لروان في لقائنا الأول.. كان شعاري في الحياة أن لا شيء يستحق العناء. معك أدركت أن الحياة جوهرة غالية لا يصح أن يضحي بها الإنسان ولا يعقل أن تضيع هباءً.

ومعك دون أن أدري انزلقت نحو بؤرة صراع شامل، وحرب لا هوادة فيها. لم تستطع الوردة الحمراء التي أهديتها إليك في أول لقاء، ولا عازف الكمان الأفريقي؛ في أول كافيه جلسنا فيه إلى مائدة ، لم تستطع كل هذه الأجواء أن تمحو صورتك. نعم أحببتك وحبك الذي قذف بي إلى أتون هذا الصراع.

......، "

قبل ليلة من اتصاله بروان وطلب اللقاء معها، كان قد حدث أول اتصال له مع إرخ زيجا، الثعلب العجوز والذي قضى حياته في أروقة الإشتازي، قبل تحطم حائط برلين واتحاد ألمانيا. وهو في الأساس جهاز مخابراتي دشن في ٨ فبراير ١٩٥٠ على غرار الـ "كا جي بي" جهاز المخابرات السوفيتي.

كان إرخ زيجا أبرز عناصره ضمن مئة وخمسة وسبعين ألفًا. وامتلك مهارة في تعذيب المعتقلين. وقتل المعرضين؛ في نوفمبر سنة ١٩٨٩ عقب انهيار جدار برلين أسرع إلى إتلاف الأرشيف الذي يوثق كم الجرائم التي ارتكبها الجهاز منذ إنشائه قبل أن يقتحم مئات من الألمان المقر لإنقاذ جزء كبير من الوثائق.

بعدها اختفى إرخ زيجا عن العيون متنقلًا بين موسكو وجمهوريات القوقاز، فقد بددت كل الوثائق التي تحصن رصيده السري في أحد البنوك السويسرية. ولم يعد قادرًا على استرجاعها. ولأول مرة، يذوق طعم الجوع في حياته، عمل في مهن متواضعة..بائع متجول .. جامع قمامة .. شحاذ، وهو على مشارف الخامسة والستين من عمره، جرب النوم على الرصيف والثلج يتساقط فوق معطفه القذر حتى كاد أن يتجمد. حمل إلى دار الرعاية. وبعد أيام، استعاد بعض قواه، وقرر العودة إلى موسكو ليتصل برجالات الحزب الشيوعي طلبًا للمساعدة. وهو بالقرب من بعد ٣٠ كم من موسكو، عاد به الزمن إلى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤١، كان في السابع عشر من عمره جنديًّا ضمن الجيش الألماني الذي حاول أطباق الكماشة على العاصمة الروسية، وانطلق ليضرب ضربته على طريق فولوكولامسك ثم طريق لينينجراد. وكان ضمن القوة التي تمكنت من فتح ثغرة، واندفعت الدبابات والموتوسيكلات وسيارات النقل نحو موسكو، ولكن أوقفتهم فرقة المشاة الروسية ٣١٦ .

ابتسم إرخ زيجا ساخرًا، وهو يعبر الحدود الروسية، فها هو العدو القديم أصبح حليفَ اليوم، وذهب ليطلب مساعدته. والتي لن تزيد عن روبات معدودة ومقر آمن. ومع إصلاحات البروسترويكا والانفتاح على الغرب.. كانت الفرصة أمامه وهو على

مشارف السبعين؛ السفرَ إلى أمريكا؛ بحثًا عن فرصة لاستثمار خبراته النادرة في التحري الخاص. أصبح الاتحاد السوفيتي وكل الكتلة الشرقية بعد تفكك البنية المعرفية الصلبة للنظرية الشيوعية وأمست جزءًا من المخلفات الفكرية للماضي.. وإن ظل صداها يتردد في أقانيم عقول خارجِ اللحظة الحرجة التي عبرها العالم، وحلقات ذكر دراويش مدعي الثقافة في دول وأشباه تحولت إلى أنقاض مزارات بعد أن هجرتها الكثير من العقول مع من هاجر من السماسرة والوسطاء والنساء.

في أحد ضواحي نيويورك، افتتح إرِخ زيجا مكتبًا صغيرًا ملحق به غرفة نوم. في هذا المكتب كان اللقاء مع ديفيد بيك الذي قال له استكمالًا للتعارف:

- أنا عميل مسز روان قيصر.

كانت التفاتة غير ملحوظة من وجه إرِخ نحوه، قبل أن يقول عابرًا تفاصيل كثيرة:

- تَأَخَرَت كثيرًا.
- أن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألا تأتي.
- روان أضاعت فرصًا كثيرة.
- ومازالت بعضها قائمة.
- سنحاول أن نبقيها قائمة.

وأمعن إرِخ النظرَ في وجه ضيفه، وقال:

- بشرط.

- .....

- أن تفهم خصمك جيدًا.

- هذا سبب جلوسي معك الآن.

- الفرصة الوحيدة لنا أن نفسد خطتهم.

- وكيف تعرف خطتهم؟.

- هذا أساس عملي. حدد لي لقاءً مع الآنسة روان.

......

"وصلت بسيارتي إلي الفيللا المحصنة بجيش من الحرس. واتصلت بها فجاء الأمر، فتح الباب المضاد لقاذفات المدافع والصواريخ. قدت سيارتي حتى وصلت إلى الحديقة التي كانت تنتظرني فيها.

جلست قبالتها وأخرجت الهاند فري من أذنيها، وقالت:

- أنا نادرًا ما أتعشى. ولكن أشعر الآن بالجوع.

وقت العشاء سألتني عن سبب الزيارة، فقلت لها:

- إرخ زيجا يطلب تحديد موعد للجلوس إليك.

- وما توقعاتك لهذا اللقاء؟.

- يقول إن فرصتك محدودة.

كانت روان تنتابها الهواجس منذ اللقاء الأول بإرخ زيجا. فقد استحضرت صورة ألكسندر رودريجو. وحاولت فتح قناة مع العميل القديم لجهاز الإشتازي حتى تصل إلى خطط أعدائها اللصوص عن طريقه، وربما يرسل رسالة لهم.

قالت لديفيد الجالس قبالتها:

- حدد موعد لإرخ زيجا.

حاولت استعادة توازنها، وها هي مع الوقت تقترب من حالة استقرار ذهني، على الأقل يمهد لها وضع خطة بمساعدة من تثق فيهم.

قالت لي– عبر الواتس– فور انصراف ديفيد:

- أنت والدكتورة نورا وديفيد موضع ثقتي.

كانت تمهد الأجواء للمناورة، وسعت في كل خطوة إلى تأمين موقعها. وتتأهب ليس لتحمل الضربة القاضية، ولكن لتكون هي البادئة بالضربة الأولى. وعليها أن تكون موجعة بل وقاتلة.

"كان استمراري وبقائي حتى اللحظة، ونجاتي من كل الألغام والفخاخ التي أعدوها للإيقاع بي؛ رسالة واضحة من أنني أقرأ خططهم وأملك القدرة على إفسادها، وعليهم أن يتحولوا من الهجوم إلى الدفاع..."

....

بعد يومين عندما التقيت بإرخ زيجا، قلت له:

- ما هي الخدمات التي تقدر على تقديمها لمؤسسة البارون؟.

كانت ملامحه الباردة توحي بأنه على وشك الموت، أو هو ميت بالفعل.

قال لي:

- لك، وليس لمؤسسة البارون.
- ....
- اعتزلي العمل لفترة.
- كيف؟
- تعاقدي مع مكتب لمهندسي التكتلات الصناعية لإدارة أعمالك.

شعرت بأنها رسالة قام بتوصيلها لي. كانت ملامحه رغم موتها توحي بأن هناك من أمْلَاها عليه، وسعى لتوصيلها.

قلت له:

- وهل ذلك سيبعدني عن الخطر؟.
- وستكون حمايتك جزء من الصفقة .

احتويته بنظرة، حاولت قدر جهدي إخفاء ما فيها من شك:

- ولابد أن تنال الإدارة الجديدة على موافقة خصومي.

- اطمئني ستنأي البارون عن الاصطدام بهم.

سألته فجأة:

- هل تعرف خصومي؟
- بالتأكيد.
- هل عملت لحسابهم؟
- عملت لحساب البارون أحمد قيصر.
- خصوم البارون هم خصومي.
- ....

عرضت فكرة إرخ زيجا على المسئولين، وطلبت إعداد دراسة عنها. وفور الانتهاء من كتابتها، أصدرت أمرًا بنشر إعلان صحفي يطلب شركات متخصصة في إدارة المؤسسات المالية الكبرى...."

** **

(٣)

عبد الرحمن

حاولت الاتصال بهند دون جدوى. بعد سفرها إلى القاهرة كانت أمربأصعب الأيام في حياتي. شعرت بفراغ كبير. واصلت عملي في المسرح حتى وقت متأخر. أردت أن أنتهي من العرض وأعود إلى القاهرة لألتقي بها وننفذ ما اتفقنا عليه. ذهب تفكيري لشكوك وغيرة أفقدتني صوابي. انقطعت عن الاتصال بزوجتي وهيمنت الليلة التي تأجلت لثلاثين سنة على عقلي، أطاحت بالليلة الاستثنائية التي أعقبها سفر زوجتي إلى أمريكا. وهربت من التواصل مع روان. كنت أريد أن أستقر على فكرة واحدة.. فكرة هيمنت على عقلي واستمرت في معاندتي لسنوات.. فكرة الزواج من هند المصري، التي ظلت تراوِح مكانها. وها هي تقترب مني ثم تبتعد، وتبتعد وتقترب، ثم...

منذ لحظات وأنا على المسرح كنت أراها في سجن الندم تعاني أبشع أنواع العذاب.عندما يئست من الرد تركت رسالة .. " ردي على الهاتف حتى لا اضطر للسفر إلى القاهرة، أرجوكِ. "

صعدت إلى شقتي. ووضعت ما اشتريته في الثلاجة. أعددت كوبًا من الشاي، وجلست في الشرفة التي تطل على البحر، وتداعَى شريط أحداث عبرت حياتي بشكل عشوائي لا رابط بينها. لقاءاتي الأولى مع هند.. عشقها للتمثيل والمسرح، تمردي السياسي.. واختطافي بعد عرض مونودراما عن الخيانة من محطة مترو أنفاق

العتبة، والأيام السوداء في المعتقل.. وإحساس مريع بأن حائط العمر قد تم إغلاقه هنا.. والآن.

قال لي رفيق توارت صورة ملامحه واسمه، ولكن ظل صوته يتردد كلما تذكرت أيام المعتقل:

- عبد الرحمن المُعتَقل يتم دفنه حيًّا.

يقتادونه إلى قبو أسفل الأرض ويغلقونه بحائط خرساني بلا زاد، بلا ماء ليموت، تلبستني لسنوات كوابيس محاكم التفتيش التي قام بها الأسبان فور سقوط مملكة غرناطة.. آخر معاقل المسلمين في الجزيرة الأيبيرية. في هذه الفترة القاتمة من حياتي ظهرت هند المصري.. تعلقت بها فور الإفراج عني.

في أيامنا الأولى معًا منذ ثلاثين عامًا.. طويلة شاسعة ممتدة..

قلت لها ساخرًا:

- ما بالك بتاريخ يكتبه مرتزقة ويصنعه قطاع طرق!.

همست وهي تتلفت حولها:

- عبد الرحمن، دع السياسة.. كفاك ما حدث لك.

أقسمت لها بأنني لا أتحدث سياسة، أنا أبحث عن حقيقة، ضمت وجهي بين كفيها وبرقت عيناها بالدموع، وقالت راجية:

- ابحث عن نفسك، ولا تضيعها.

في هذه الليلة، حاولت تقبيلها، فتراجعت في رفق.منذ هذه اللحظة، تعلق بها قلبي.. احتلت مساحة ظلت رابضة فيها ولم تستطع امرأة مرت في حياتي أن تقترب منها، صارت ملكية خاصة لها. وأدركت كم ارتكبت خطيئة في حق نفسي وفي حقها.. عندما سمحت لها بالابتعاد، والانزلاق في طريق نأى بها بعيدًا. كان عليّ أن أتمسك بها، أقبض عليها وأقيدها وأصطحبها إلى أقرب مأذون، ونتزوج. لو حدث ذلك؛ لوفرت عليها وعلى نفسي هذه المعاناة. وأنا أستسلم لغفوة احتواني القلق عليها. فكرت في الاتصال، واستدعيت رقمها، وسرعان ما أغلقت الموبايل وأغمضت عيني.

استيقظت على رنين الموبايل، رفعت الجهاز وجدت زوجتي نورا الطبري. كانت في صالة المحاضرات، وبدأ حضور الطلبة وانتظامهم في أماكنهم، قالت لي:

- بدأت المتاعب يا عبده.

على الفور، تذكرت روان قيصر، استرسلت كلماتها:

- أنذرتني إدارة الجامعة واتهمتني بخرق بنود العقد.
- بسبب وقوفك إلى جوار مؤسسة البارون.
- نعم.
- أنصحك بعدم التورط معها.

مست ملامحها ابتسامة،

قلت له :

- **روان عنيدة ومجنونة.**
- **أرجوك لا تتخلَّ عنها.**
- **وقوفي إلى جوارها لن يفيدك في شيء.**

حاول أن تكون إلى جوارها. ابتسمت وقلت مداعبًا:

- **ألا تري منها خطرًا على رجل يقدر الجمال.**

غمغمت وهي تضم شفتيها، وتهز رأسها بالرفض:

- **أنا أثق في زوجي. وأثق في نفسي جدًّا جدًّا.**

ورفعت كفها، وقالت:

- **بأي المحاضرة بدأت؟.**

ندَّت على ملامحي ابتسامة ساخرة عندما تذكرت شكوكي القديمة، والتي طاردتني لفترة طويلة. زوجتي التي تحمل الجنسية الإسرائيلية والتي تتحدث العبرية.. ما هي إلا جاسوسة جندها الموساد للإيقاع بي. ظهرت في حياتي لتملأ الفراغ الذي حلّ بي بعد انقطاع علاقتي بهند المصري. كنت أعيش كوابيس المعتقل: صور أقبية محاكم

التفتيش، ووسائل التعذيب الشيطانية. بالتأكيد تركت تجربة المعتقل جروحًا غائرة في الروح.. وفي الوعي. وانحرفت بعقلي إلى عالم من الشكوك المريضة.

كانت الغربة التي حاصرتني، بعد التجربة المريرة رست بي أخيرًا على شاطئ امرأة رأيتها حالة فريدة مثل عيونها التي بدت مثل مروج خضراء. بعد الصحراء الشاسعة التي كادت تبلغني وأنا أعدو وراء سراب لا نهاية له قلت لصديقي في المعتقل ونحن نكسر الظلام والخوف بضحكات مشروخة.

- تعرف؟ لن أتزوج غير امرأة عيونها تشبه عيون سعاد حسني. عيون دافئة تشعرك بالسعادة، بالشقاوة.

قال صديقي المعتقل:

- ولكنها تحمل همومًا لا حصر لها.

قلت له:

- كنت أجهل أن لجمال العيون ألوانًا أخرى.

وأنا أخلد للنوم، كان شعور بالندم مثل الشوكة يقلق راحتي، ويقفز السؤال في وجهي:

- لم خنت زوجتك؟

أومأت أسفًا. وتواصلت الأسئلة على رأسي:

- هل خنت زوجتك وهند وعنان؟، هل خنت نفسك؟

أغمضت عيني وحاصرني الظلام دون نوم..

** **

(٤)

ألفت شاكر الباجوري

"قبل أن أذهب إلى فيللا ٦ أكتوبر فضلت الاختلاء بنفسي في الشقة التي قضيت فيها سنوات الصبا والمراهقة، كانت قريبة من أكاديمية الفنون التي أنهيت دراستي بها. فتحت الباب فهالني الظلام المقيم واللون الأسود الذي أحاط بالأشياء. كنت أريد أن أبكي، أنفجر من البكاء حتى يخرج الحزن والمأساة التي قادتني إلى هذا المصير الذي لم أتخيله. الزواج من مجرم حقير أبهرني بوسامته.. وثقافته.. اللغات العديدة التي يجيد التحدث بها والأموال التي كان ينفقها ببذخ.. أتذكر عندما كنا نسير على نهر السين، قال لي:

- هذا البحر يحمل أسرارًا خطيرة.
- وهل باح لك بها؟.
- عرفت القليل منها.

أحاطني بذراعيه، وقال وهو يمعن النظر في عيني:

- هنا ألقى البوليس الفرنسي آلاف المتظاهرين الجزائريين بعد توثيق أطرافهم ليموتوا غرقًا.

الآن، أرى في سواد عينيه ألاف الجثث البشعة، وكل جثة تحمل ملامحي. خطوت إلى البيانو القديم.. أول آلة أتعلم العزف عليها. كنت أعزف جملًا موسيقية

بسيطة. تحمل ما أشعر به من بساطة لم أكن أدري أن الحياة تنتظرني بهذه القسوة والعنف لتحول بساطتي إلى أشباح مرعبة، ومسوخ لكائنات مشوهة. ضغطت على المفاتيح.. خرج الصوت يحمل نغمة أخرى غير التي تعودتها. واصلت الضغط، وانتشر الصخب الموسيقي. وأنا أهرب إلى ضوضاء لتحرك الصمت الذي يسلمني إلى الموت حزنًا وكمدًا. وانتبهت للشعور الذي ينساب مع مواصلة العزف، وكأن مفاتيح البيانو قد نثرت ما عليها من غبار، تحولت الضوضاء والصخب إلى موسيقى.. أعرفها.. وكم عزفتها مرات، كانت سوناتة الباتيتيك **Pathetique** لبيتهوفن، تداخلت مع الجملة الموسيقية التي أتت من أعماق كون بعيد. مثل عواء ذئب في براري، واستقرت في ذاكرة القلب. حاولت أن أفرغ كل ما فيه من حزن، وأتأهب لمواجهة الموقف. وأرفض أن أكون فريسة، ملفوفة في فرائها الناعم، كنت أطارد أرنبي البري ليهرب من محاصرة قطيع الذئاب. وليد عمارة وال **gay man** الرجل القذر، وتتأهب أنيابهم لتمزيقه، ولم تكن تعني المواجهة إلا القدرة على كشف الحقيقة لزوجي فرحات أبو العز.

وأنا أستقل السيارة نحو ميدان لبنان، كنت أستجمع شجاعتي. ولكن السؤال الذي ظل يطاردني.. كيف سيكون وقع الحقيقة على زوجي؟! هل سيتحمل الصدمة المتوقعة؟

فور وصولي، ترددت في الاتصال به. ثم عدلت عن ذلك، وراودتني الفكرة التي اعتبرتها الحل المؤقت.. اتصلت بأخي عزمي في أستراليا، قلت له.. " كن إلي جواري في هذه الورطة.."

ألفت الباجوري خلقت لتسعد الرجل بشرط أن يحبها كما تحبه. كانت تجيد العزف على أوتار الرومانسية، والتي شغلت جانبًا من روح فرحات أبو العز، ومنذ الأيام الأولي للزواج عرفت مدى حبه الكبير لأم كلثوم.. فعزفت له قبل أول قبلة تهبها لشفتيه....

روحي. قلبي. عقلي. كلي ملك إيديك صوتك. همساتك. شيء مش معقول

شيء خلى الدنيا زهور

صنعت له أجواءً غاية في الرقة، كانت في حاجة إليها لتخرج من أزمتها التي استقرت في قرار عميق في قلبها. وتناست الجرح الغائر الذي أطاح في ثوان معدودة بكرامتها، وجعل صور جسدها مرتعًا للمرضى والحثالة، تتذكر مسرح الهناجر عندما جلست على أحد مقاعده وأمسكت ورقة طلاقها من وليد عمارة، بكاءها على خيبتها الثقيلة، ومليون كيف تطاردها مثل خفافيش سوداء جارحة. في هذه اللحظة، فكرت لأول مرة في حياتها في قتل هذا القرد القذر. فكرت في استئجار قاتل مأجور.. محترف.. يختطفه ويقتله ويلقي بجثته في أعماق البحر. ولكنها أدركت بأن هناك من سيهتم بأمر غيابه؛ فهو جزء من شبكة قذرة.. نجسة ملعونة. وحتمًا سيصلون إليها. ويخيرونها بين العمل معهم أم أبلاغ الشرطة عن جريمتها.

توارت صفحة وليد من حياتها بصعوبة بالغة.. سنوات ثلاث شاركت في حفلات الأوبرا، سافرت روسيا والصين واستضافها شقيقها المهاجر "عزمى شاكر" شهرين في أستراليا، وقدمها للفنانين والصحافة، وحققت نجاحًا ملحوظًا، وفي طريق عودتها،

هبطت طائرتها ترانزيت في مطار جدة. قبل استكمال الرحلة إلى القاهرة، وحدث اللقاء الأول مع المهندس ورجل الأعمال فرحات أبو العز في صالة الانتظار. كان قد رأى بعض صورها في المجلات الفاخرة، قال لهامتوددًا:

- جمالك يغرينى بالحديث معك، هل تمانعين؟

ابتسمت، وقالت:

- وجمالي يحرضني على عدم إحراجه معك.
- أشكرك، وأشكر ذكاء جمالك.

أراحت أصابعها أسفل وجهها، وقالت:

- هناك من أجمل منيبكثير.
- أنا لا أتحدث عن الجمال. أنا أتحدث عن شخصية الجمال. وفارق شاسعبين الاثنين.

أمعنت فيه النظر، وسألته:

- من أنت؟
- المهندس فرحات أبو العز.
- وصاحب شركةFAZ للمقاولات، أعرف، ولكن من أنت؟
- ......

"من أنت؟!" ربما يكون هذا السؤال أصعب الأسئلة التي يعجز الإنسان عن الإجابة عنها. وكأنه يصطدم في لحظة ، بحقيقة أنه لا يعرف عن نفسهإلا أقل القليل.

قال لها:

- عندما تعرفينني في يوم من الأيام،أخبريني مَنْ أنا.

واسترسل:

- أنت حقًّا جميلة، لا أجاملكولا أتودد لك لإزجاء وقت الفراغ والانتظار.
- أحييك على صراحتك.

حكى لها عن تجربة زواجه الفاشلة. وأكد أنه لن يعيد التجربة، وخصوصًا بعد اتساع أعماله إلى حد كبير، فلم يعد عنده وقت، يتذكر جيدًا ضحكتها العالية وهي تقول:

- أراهنك على أنك ستتزوج للمرة الثالثة.

أمعن النظر في وجهها، وملامحها التي تقطر عذوبة، وقال:

- بشرط، تكون هذه الزوجة هي.. أنتِ.

تلاشت ابتسامتها، وقالت بحروف مترددة:

- وماذا تعرف عني؟
- يقينًا، سأعرف كل شيء عنك.
- ......

يقيننا سيعرف كل شيء.

قال شقيقها:

- لا أتصور أن يكون زوجك بهذه السذاجة.

ردت ألفت متسائلة:

- هل تقصد أنه يعرف بأمر الجريمة التي دبرها وليد للإيقاع بي؟
- ربما يعرف.

قالت ساخرة:

- مستحيل. أنا واثقة من أنه لا يعرف.
- من حقهأن يعرف.
- ستكون صدمة له.
- إنه يملك النفوذ والأموال التي ستخرس وليد إلى الأبد.

** **

انتظرته حتى وقت متأخر من الليل. وعندما دخل عليها، كانت منهكة بعد يوم طويل. ضغطت على أعصابها، كانت كلمات وليد عمارة ترن في أذنيها تطاردها مثل حشرات مقذذة. وهي بالفعل قد رأته في أحد كوابيسها حشرة ضخمة، بشعة، مقرفة.

أعدت له حمامًا سريعًا. وعند خروجه، ضمت جسده المبلل وقالت:

- وحشتني.

ربت على خدها، وهمس:

- وأنتِ أكثر.

وهما في الفراش تأملت عينيه المنطفئتين، وسألته:

- مالك؟
- شركة MTop حصلت على مناقصة مني كنت أثق من الفوز بها.

انتابها شك، وبدت أطلال أحد كوابيسها أمام عينيها.

سألته:

- من صاحب هذه الشركة؟
- شهاب المعصراوي.

أقتربت منه، ضمته إليها تمسكت به هاربة من الأطلال، والحشرات المقذذة، وقالت:

- بيبي، أي خسارة تعوّض.

قال بصوت مهموم:

- الموضوع أبعد من مناقصة خسرتها.

دق قلبها من اللهفة والخوف، وسألته:

- ماذا تقصد؟!
- شهاب المعصراوي مجرد برافان لمسئولين كبار. تحت أيديهم ملفات مهمة وحساسة. تعود إلى أيام عملي مع الوزير حسن البدوي.

أغمضت عينيها، وضمته أكثر لتحميه من رصاصة غادرة انطلقت مثل مفتاح دو اختنقت أوتاره من الرطوبة والغبار.

** **

الفصل الثاني عشر

(١)

عبد الرحمن

وأنا في الطريق إلى الشقة، تذكرت عنان بعدما أرهقتني الممثلة البديلة، كيف أقنعتني عفاف همام من حيث لا أدري بإبعاد ابنتها عن طريق الفن والشهرة والموسيقي، وإبعادها عن طريقي قبل التورط معها في مغامرة جديدة. وهي تدفعني نحوها بكل قوة وإصرار، كنت أدرك أن نزع جرثومة الفن من القلب أشبه بعملية جراحية بدون تخدير، أن تقر بأن أحلامك ما هي إلا وهم، وتعيش بقية حياتك بخيبة أمل. وعقدة فشل لا تبرأ منها.

صرخت في وجهي:

- أنا أعرف لماذا تفعل ذلك بي.
- أنا خائف عليك.
- خائف مني، أم خائف علي!.

كانت جملتها تعني لي أكثر من الفشل في إغوائي، كانت تتعرى أمامي تخلع ملابسها في رقصة استربتيز.. رقصة أقرب لطائر ذبيح أصابته رصاصة وهو يتأهب للطيران. قالت.. هناك من ينتظرني لأقدم له التنازلات ليفتح كل الأبواب الموصدة في وجهي. وأنا لست طفلة ساذجة عبيطة. أنا كبيرة بما يكفي وأعرف تمامًا بأن لكل شيء ثمنًا.

أخرجت الموبايل للاتصال بهند. ولكن ترددت عندما رأيت الساعة قاربت على الثانية صباحًا.

** **

(٢)

عفاف همام الأسواني

"توالت الجلسات، ولم يكن يعنيني ما يحدث فيها؛ فقد تركت الأمر لله، حتى حكم الإعدام الذي ربما يصدر ضدي لم يرهبنيأو يخيفني. وطوال الجلسات كنت أقرأ القرآن وأشعر بطمئنينة، لم أشعر بمثلها من قبل وأنا أقيم الليل، كنت أشعر بالله يقف إلى جواري، يسبل على قلبي الهدوء والسكينة. وبدأت أتخلص من الأحمال الثقيلة التي أربكت حياتي، تخلصت من عقد الخوف التي استقرت في قلبي وقت القصف الأمريكي للعراق. وأنا أعانى من آلام الوضع، هيمن عليَّ شعور بأنني سألفظ أنفاسي، والصواريخ تنهال على المدينة، البيوت، والبشر، وتشعل النار في كل شيء، وأنا بين الأرض والسماء،أصلي وأدعو أن يطيل في عمري لحظات حتى تخرج ابنتي للوجود، مع التضرع إلى الله تراجعت كوابيسي، لم يعد لصوت صدام حسين معنًى، ولا لتحريض جاك دبليو بوش وجود، والشجاعة المصطنعة لمحمد سعيد الصحاف بدت آية من آيات العجز وقلة الحيلة، بدت الحقيقة واضحة، بيضاء، ناصعة، لقد ضاعت العراق.

في نهاية إحدى الجلسات، تقدم مني مصطفى عبد الناصر بصحبة عنان، قال وهو يواري خجله وتردده:

- بعد البراءة إن شاء الله، سأتقدم لطلب يد عنان.
- أنا موافقة.

التفتُّإلى وجه ابنتي، وقلت:

- وهي لا تمانع.

احتوت عنان مصطفى بنظرة جريئة، وقالت:

- طبعًا عنديألف مانع، لا مانعٌ واحد.

ثم نظرت نحوي، واسترسلت:

- كل حاجة مؤجلة لحين خروجك بالسلامة.

وبلهجة مختلفة:

- أولًا.. لازم أجوزك يا عفاف هانم، وأطمئن عليكِ، وبعدها أفكر في الجواز.

ثم تلفتت حولها، وقالت:

- دكتور مختار تأخر.

......"

في زيارة دكتور مختار راضي لعفاف بعد آخر جلسة بيومين، بدت ملامحه مهمومة إلى حد بعيد. حاول بصعوبة كتم حقيقة شعوره بأنه سيء الحظ. وتعقد الشعور حتى اعتبر نفسه وجهشؤم على كل من يعرفهم، تأمل ملامح الرضا البادية

على وجه عفاف فزاد شعوره بالندم والأسف، والخسارة الهائلة من فقد هذه المرأة التي رممت كسر روحه بعد رحلته بدون ابنته "هالة"، والتي ينتابه دومًا شوقٌ لرؤيتها، ويحاول أن يتخيل صورتها الآن. بعدما صارت شابة جميلة، ينظر إلى صورتها داخل البرواز المذهب المستقر على الكومدينو بجوار فراشه، ويغمغم في ألم.. وحشتيني، ووسط شعوره بالألم، ينتابه الغيظ. ويواصل جلد نفسه، نعم تسرعت في الزواج من امرأة مريضة بعُقَد نقص قاتلة. كان اختيارًا مجرمًا لأم ابنتي الوحيدة.. وهو على يقين من أنها زرعت في نفس ابنته هذه العقد، لم يكن قادرًا على تصور ارتكابه لأفظع جريمة، وهي عجزه عن استردادها وها هو يكرر عجزة عن حماية عفاف.

قالت له:

- دكتور، أشكرك على وقوفك إلى جواري.

تأملها بنظرة عامرة بالعجز والندم، وقال:

- عفاف، أنا لو فشلت في إثبات براءتك. سأتهم نفسي بأنني المجرم، أنا ساهمت في القتل.
- دكتور.

قاطعها مواصلًا:

- أنا بالفعل لو استسلمت لهم سأكون قاتلًا.
- وما ذنبك؟

- وما ذنبك أنتِ؟!
- إرادة الله.. قدري.
- ربنا حرم الظلم على نفسه. لن أدعك لهؤلاء المجرمين، لن أدعك فريسة لهم، لن تكوني كبش فداء لفسدة وحراسالنهب والتسيب.
- يكفيني رب العزة.. هو يعرف ببراءتي.
- وأنا وابنتك ومصطفى، حتى المجرمين الحقيقيين والذين يضحون بك، يعرفون.

تأملت وجهه، وسألته:

- قلبي يحدثني بأنك تخفي شيئًا عني.

توارى بعينيه باحثًا عن ملاذ يلهمه الإجابة.

....

كان إصرار النيابة على الاتهام بالقتل يعني الحكم على عفاف بالإعدام، واكتفى وكيل النيابة بالتقرير المبدئي الذي قدمه ضابط المباحث في سراي النيابة، واتهامه وهو يترافع أمام هيئة المحكمة للخبراء الاستشاريين بالمرتزقة الملفقين والذين تقاضوا ثمنًا من المتهمة.

لم يقل لها إنه التقى بوكيل وزارة الصحة المعين حديثاً .. دكتور أبو العز فرحات، واعترف بأنه يعرف الحقيقة، ولكنه عاجز عن البوح بها، عاجز عن كشف بحر

الفساد الذي يرتع فيه اللصوص، وأجبن من المواجهة..أجبن من السير في بحر الألغام خوفًا على منصب.. خوفًا على إكراميات تقدم داخل مظروف سلوفان.. لامع.. مفضض ومعها كلمات شكر، ودعاء بدوام التعاون؛ خوفًا من علاقات نافذة ستطيح به عند أول انحراف أو تهديد.

قال لعفاف معاتبًا:

- لماذا؟
- قدر الله.
- لماذا دخلت برجلك عش الدبابير، والحيات السامة؟
- دكتور، حتى لو حكم علي بالإعدام لن أندم على كل كلمة كتبتها، وكل شكوى رفعتها.

حاول الإمساك بيدها فسحبتها برفق، وقال:

- أنت رومانسية في زمن ابن...

قاطعته محذرة:

- لا تسبوا الدهر.

هتف مختار، وقد غلبته دموعه:

- أنت حلمك مستحيل. المدينة الفاضلة حلم ليس له وجود في عالم تديره مافيا ومصالح ضخمة.
- المهم أنت.. ضميرك.. رضاك عن نفسك.. تقبلك بقضاء الله وقدره.
- عفاف، أنا خائف عليك.
- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

غمغم مختار بصوت مشحون بيأس هائل:

- خسارة.

....

كالعادة أوْلاهُ الحظ ظهرَه. ولكنه أصر أن يصرخ، أصر أن يواجه ويملك الشجاعة على الدخول إلى حقل الألغام، أصر على أن يحترم نفسه.. وشرفه.. وكرامته التي أهدرتها سحر فريد. وهو يقبل الأرض ويقبل حذاءها حتى يستعيد ابنته، ولكنه فشل، واقتاده البوليس. كان يريد أن يصرخ ويرفض عجزه الذي وصل حد استجداء وداع ابنته، التي مكث معها نصف ساعة اعتبرها كل عمره وقبلها لا شيء وبعدها.. لا شيء.

في المحكمة، عندما وقف للشهادة قال:

- لو الحكيمة عفاف متهمة فنحن جميعًا متهمون. لو مجرمة فنحن جميعًا مجرمون، أنا ورئيس القسم ومدير المستشفى والسيد وكيل وزارة الصحة

والوزير، نعم نحن لو عجزنا عن إظهار براءة الحكيمة عفاف الأسواني؛ سنكون مجرمين، لو كانت عفاف همام قاتلة؛ فأنا شريكها في القتل، أنا.........

في نهاية الجلسة، خرج القاضيبعد المداولة وقال:

- حكمت المحكمة حضوريًّا على المتهمة عفاف .....

** **

(٣)

نورا الطبرى

"وأنا في الطريق إلى مكتب دكتور جاك كنت أستحضر سؤال حياتي الذي يشكل ملامحها ومنعطفاتها.. كيف أتخلص من دور الضحية، وأجبر الجلاد على أن يعيش هذا الدور دون أن أرتكب وزرَ أن أكون جلادًا؟. أصُبُّ عقدي وأمراضي على كائن فقد كل عناصر القوة، كنت أقبض على فرصتي النادرة، فرصة مواجهة التنين في عقر داره.

طرقت المكتب ودخلت، خطوت نحوه وهو يرسم ابتسامة، صافحني وجلس قبالتي، وقال:

- دكتورة نورا، عقدك مع الجامعة نصَّ على منحك كل الصلاحيات في حدود المقر الذي...

أسرعت بالقول:

- الموضوع يتعلق بالمؤتمر الصحفي مع روان قيصر؟
- نعم، وهذا لم ينص عليه العقد.
- دكتور جاك، أنا كنت أطبق عمليًّا من المقرر وهذا من صميم عملي، سيدة أعمال تدير مؤسسة مالية ضخمة تعرضت لحملة صحفية من كل وسائل الميديا؛ فكان يجب أن أدرس هذه الحملة لتكون نموذجًا تطبيقيًّا.

- تبرير منطقي.
- وحقيقي.
- ولكن مجلس الجامعة اكتفى بإصدار تنبيه لكِ.
- هل التنبيه يحول بيني وبين إظهار الحقيقة!.
- التنبيه بالفصل بين آرائك خارج الجامعة والتي قد تتعارض مع قيم المجتمع الأمريكي وبين المقرر.
- بهذا أنتم تخرقون العقد، لقد أردتم مقررًا يتعلق بنظرة العرب للأمريكان.
- نعم. وليس نظرتنا لهم.

كاد التناقض في تبريرات دكتور جاك فرصة للهجوم، قلت:

- دكتور جاك أعرف، كما تعرف أنت بأن من يدير الإعلام هم وكلاء الاقتصاد الرأسمالي، ويتواجدون في المكاتب التنفيذية للبيت الأبيض، وفي مكاتب العلاقات العامة، والوكالات الإعلامية بشارع ماديسون، وهذا الحصار لأسر عقول وأرواح البشر، هنا في أمريكا، وفي أي مكان في العالم. وسؤالكم الحقيقي، ليس كما تعتقدون.. لماذا تكرهوننا؟! ولكنه لماذا فشلت سياسة توجيه العقول وتغييب الوعي مع بعض هؤلاء العرب، لماذا فشلت سياسات الصدمة في تغييب بعض العقول ؟! نعم.. نجحتم لبعض الوقت، ولكن لحظة الحقيقة أثبتت أنكم لم تنجحوا، بل فشلتم فشلًا ذريعًا. هل تعرف لماذا؟

تلاشت الابتسامة الوقورة، وقال لي:

- ترون أنتم ذلك؛ لأنكم تعيشون خارج التاريخ.
- الذيأعتبره أحد فلاسفتكم بأنه انتهى في لحظة غرور.
- لماذا فشلت سياستنا معكم؟!
- لأنكم كاذبون.

رانت لحظة صمت. أومأ برأسه، وقال:

- أسمعك..
- من الممكن أن تفكر في اتهامي وتقول لا.. نحن لا نكذب. وهذا لن يفيد النقاش في شيء، المهم الإجابة عن سؤال هام وجوهري، هو.. لماذا تكذبون؟

أومأ الرجل للمرة الثانية، فأجبته:

- الكذب هو سياسة إرجاءٍ لحل مشكلات هائلة في مجتمع معقد تم التحكم في تدفق المعلومات التي تصل إليه، وأنا على يقين من أن محاضراتي تخضع للتحليل للاستفادة في وضع برامج.. توصيات.. الخ...
- أكيد كل المحاضرات تخضع للتحليل.

واستدرك جاك:

- ولماذا يتم إرجاء حل المشكلات الهائلة؟

- لأن لحظة اتخاذ القرار الحاسم ستكون مدوية.
- ستتفكك أمريكا مثل الاتحاد السوفيتي؟!
- بنفس السيناريو.. لا أعتقد. ولكن الشركات الضخمة متعددة الجنسيات والعابرة للقارات ستتراجع أمام شركات أكثر ذكاءٍ، وقادرة على تطوير أدواتها. وربما يكون الحفاظ على أمريكا على رأس العالم ليس من أولوياتها.

احتواني الرجل بنظرة دافئة، وقال:

- أعتقد بأنني كنت على صواب عندما صوت الصالح استمرارك في أداء عملك.

ثم أردف الرجل ناصحًا:

- أتمنى أن تبتعدي عن مؤسسة البارون.
- هل أكتفي بالنصيحة أم أطمع في المزيد؟
- أنت على ثقة أن البارون أحمد قيصرلم يكن فوق مستوى الشبهات.

في المحاضرة التي ألقيتها بعد اجتماعي مع دكتور جاك، كنت في قمة الحماس، وأنا أشرح لهم عملية السيطرة على الشعوب من خلال الميديا،هل تعرفون أن حاملي أعلى الدرجات العلمية يعملون في وكالات الإعلانات؛ لأن مكاتبها في شارِع ماديسون تدفع أضعاف ما تدفعه الجامعات، وعملية السيطرة، والترويض من خلال الصحافة والسينما ودور النشر بطرق ملتوية وآليات دقيقة بحيث تتم من خلال

تدابير اجتماعية وسياسية واقتصادية– اكتسبت مع الوقت شرعية، على مدى سنوات تم تشييد هيكل كامل من التضليل الإعلامي. صنع نظرة إلى العالم مكتفية بذاتها وتمثل انعكاسًا لبنية الاقتصاد الرأسمالي القائم على مجموعة من الأساطير، أسطورة الملكية الخاصة والإنتاج الخاص. ويبتدع المزيد من التفسيرات والمزيد من وسائل نقلها.

كنت أواصل في إلحاح محاضرتي، وقد أيقنت شيئًا فشيئًا بأننيأرفع عصابة سوداء كانت تخفي عن عيونهم النور، وانتابنيإحساس بأنني امتلكت عقولهم للحظة، كما كنت في طفولتي وأنا على أرجوحة شجرة الزيتون في تل الربيع تطير بي. فتحرك كل ما حولي: الأشجار، والبيوت، والبشر،والسماء، والأرض. وأشعر بأن كل شيء ملكي، العالم ملكي، المكان.. الزمان، الآن أمتلك عقولًا كانت عصيّة.."

في نفس الليلة، اتصلت بزوجي وجدني في قمة السعادة لأنني أنجزت شيئًا، حركت ماءً أسنَ أُريدَ له أن يظل على فساده، بدت صورتي في هذا اللقاء كما رأها زوجي منذ سنوات، وهو يقول لي.. صورتك تطاردني أينما ذهبت، في مصر، وفي فلسطين، وفي أمريكا، أراك معي، إلى جواري، من النظرة الأولى أحبني، وجدني ملاذًا أضمد جراحه وأوجاعه، وخيبات أمله التي استمرت منذ زمن.

سألته:

- بماذا تفكر الآن؟

كان في الشرفة، والليل يبدو رقيق الظلمة، والقمر يختفي ويظهر وراء السحب.

قال :

- **أفكر فيكِ.**
- **قل لي، أخرج أفكارك.**
- **مفستوفيلس يطاردني .**

هتفت:

- **أنا واثقة من هزيمته.**
- **بعد نهاية العرض سأجمع رسائلنا وأعدها للطباعة .**
- **بدون موافقتي؟**
- **لن تعترضي.**
- **لِمَ؟!**
- **لأنها جزء من تاريخي وتاريخك.. تاريخ تجربة الحب التي ربطتني بك.**

"كنت أريد أن أعتذر عن خيانتي لها، كنت أريد أن أمهد لما عزمت عليه، أردت أن أقول لها.. هند رغمًا عني تحتل مساحة من قلبي حاولت نسيانها.. محوها، ولكنني عجزت، جاءت لتعيدني إلى الوراء، إلى ثلاثين سنة مضت وانقضى ما فيها من إحساس ورغبة، ولهفة. ولكنها امتلكت القدرة على استعادة نفس البهاء القديم وآيات الأنوثة والإغراء. أردت أن أبحث عن مسار لأقول لها سأتزوج هند المصري مرغمًا، ليسلأنني لم أعد أحبك! لكن هند لها مكانة في قلبي، مساحة نظيفة، طاهرة،

برغم ما حدث.. لم تستطع أن تغير مشاعري نحوك، لم تحول دون أن تظلي حبيبة وزوجة، وتردد صوت في أعماقي.. أنا موافق على الزواج من هند، وأنتِ؟! أنتِ ستغضبين، ستثورين، وتهجرينني، لكن ستعودين لي لأنكِ تعرفين مدى حبي لكِ، ستقولين إنها انتصرت عليكِ في النهاية، نالت منكِ. ما أرادته منذ سنوات، حصلت عليه ، لا.. هند لم تجبرني عل شيء نعم.. لا.. الموضوع صار واضحًا جدًّا الآن، لم تكن معركة مع الحب، بل كانت علاقة شائكة، كان احتياجًا حاولت مرارًا تجاهله أو نسيانه، وعندما عجزت حاولت محو وجوده، ولكنه كان واقعًا قائمًا وملحًّا.

** **

وأنا أدور على المسرح أشرت لهيلانة، وقلت:

- *ها أنتِ تعودين إلى نغمتك القديمة! معك يظل المرء دائمًا في قلق وغموض، أنتِ.*

التفت نحو المقاعد الخالية، فكانت المفاجأة، هتفت:

- عنان؟!

أسرعت نحوي، وقالت وهي على وشك السقوط:

- أمي حكم عليها بالإعدام.

ووقعت مغشيًّا عليها..

** **

(٤)

فرحات أبو العز

"كنت أعرف أن للمال وجهًا آخر، وجه مخيف، وجه شيطاني يغريك للإيقاع بك. طوال رحلتي الوظيفية كنت أتوجس دائمًا من الأموال التي تدخل جيبي، وتوضع في رصيدي، الذي تضخم ولم أسال عنه يومًا، خوفًا من وقوفي على حجم الجرائم التي ارتكبها أبي وحماي الوزير حسن البدوي وشاركتهم بالصمت والعجز.

مع الوقت، تخلصت من عجزي، واستعدت إرادتي، وسلكت مسارًا مختلفًا. قبل حلول الألفية الثانية، لاحت من بعيد بعض المضايقات حاولت التغاضي عنها لصلتها بمسئولين كبار. مافيا الفساد التي عششت في كل القطاعات، حتى أتت عليها ووصلت به إلى صالة مزادات لبيع ما تبقى منها بثمن بخس مقابل إكراميات وهدايا وعمولات مريبة.أنشأت الدولة مكتبًا فنيًّا يتبع وزير قطاع الأعمال العام– رئيس الوزراء– لتسهيل عمليات البيع تحت إشراف صندوق النقد والبنك الدولي.

وأنا في الطريق إلى مكتبي، كنتأقرأ اللائحة التنفيذية لقانون ٢٠٣ لسنة ١٩٩١ الذي سلم الشركات القابضة مفاتيح القطاع العام، كل ما أنجزه الشعب المصري منذ محمد علي، كنتأشتم رائحة الفساد وراء اللغة البراقة، رغم الفساد الذي عاينته بنفسي، كنتأتمنى أن يتم إصلاحٌ حقيقيٌّ. ليس بيعًا لآلاف الشركات والمصانع لأشخاص أنا على يقين من أنهم عملاء ووكلاء لمؤسسات أجنبية حتمًا ستؤول ملكية الشركات والأرضي لها في نهاية المطاف.

في عيادتي للدكتور وحيد فرج الذي يمرّ بوعكة صحية، قلت له:

- مصر تباع يا وحيد!.

قال ساخرًا:

- من زمان، وكان علي يدك .

فتحت له علب العلاج، وناولته كبسولة وأنا أقول:

- يضيقون عليَّ السوق هنا وفي الخليج.
- حاول التفاهم معهم.
- وصل التضييق إلى حد التهديد.

قال آسفًا:

- وانتظرت الخطر حتى وصل إلى تهديدك؟! وأين حكمة الحاج خميس . لماذا لم تبتعد مع أول نذر للخطر؟!
- شغلي سليم، لكن أعرف أنهم سيفتعلون لي مشاكل لا تعد ولا تحصى، سيلفقون لى قضايا لإجباري على شروطهم ومشاركاتهم.
- ....
- ...."

أحب ألفت حبًّا صادقًا، منذ اللقاء الأول في مطار الملك عبد العزيز الدولي شعر بأنها تعيد الحياة إلى وجه مشرق، حالة من الرومانسية التي توارت وراء خشونة صراع السوق والصفقات والمناقصات، جذبه جمالها. ملامحها الرومانسية.. هي التي حركت مشاعره ليتغزل فيها ويقول.. جمالك يغريني بالحديث معك، كانت الجملة مثل سياج من حرير لم يرَ رجل الأعمال فرحات أبوالعز وقعه الحقيقي عليها، وهى التي تعاني من تداعيات تجربة مريرة مع زوج خائن. استدرجها للإتجار بها، كانت تجربة قادرة على الإطاحة بأيإحساس بالثقة في كل الرجال. وهذا كان قرارها، بعدم الزواج مرة أخرى، أرادت أن تحتفظ بجرحها، بالجريمة التي انزلقت إليها.

كان هاجسٌ يملؤها حتى درجة اليقين في أن وليد عمارة يحتفظ بنسخة من أفلام البورنو، وسوف يظهرها في يوم ما. وللهروب من هذا الهاجس اندفعت إلى العمل، انضمت عازفة بيانو إلى أوركسترا القاهرة السيمفوني، طافت بلاد العالم حتى تعافت مع هواجسها وكوابيسها بالموسيقى، ولتأكيد التعافي وفك عقدتها من كل الرجال، نظرت لفرحات وهي لا تطمع في أكثر من إشغال وقت الانتظار في صالة المطار حتى تحين لحظة إقلاع الطائرة إلى القاهرة، وقالت:

- وجمالي يحرضني على عدم إحراجه معك.

كان لجمالها شخصية قوية، ذكية، حاضرة..أعادتها الموسيقى إلى نقاء الروح، طهرتها من شوائب تجربة ظلت كوابيسها تطاردها.. وتنغص حياتها.

بعد عدة لقاءات، قال لها فرحات كل شيء في حياته العاجزة المرتبكة. وهو في سياق الحكاية رأى جانبًاآخر كان غائبًا عنه في زوجته الراحلة هدى البدوي.

أيقنت ألفت بأن زوجها شخصية رحبة، فسيحة، بسيطة برغم اتساعها، سيكون علاجًا لما تبقى من أدران، ولكنها ترددت أمام فكرة ظهور الحقير وليد عمارة ليهددها ويبتزها. ومن قرارها بألا تُحَمل غيرها نتيجة سوء اختيارها، وسرعان ما تبددت الفكرة وتنازلت عن قرارها أمام تودد فرحات وإلحاحه في طلب الزواج.

قالت عندما عجزت عن الهروب من إصراره:

- مُصِرّ تكسب الرهان؟
- مُصر أكثر على تنفيذ الشرط، أن تكوني أنتِ زوجتي.

....

كان حبها المغلف بأجواء الرومانسية قد أطاح بكل الخوف، وتوقفت الكوابيس السوداء عن زيارتها. ومع الأيام اكتشف فرحات الحقيقة الناصعة لزوجته، كانت نموذجًا للزوجة المثالية. عندما كان في رحلة لباكستان، كانت تتصل به في اليوم الواحد عشر مرات، وفي نهاية كل اتصالٍ تقول له: "خلي بالك من نفسك"

كان خوفها عليه وكأنه طفلها، ولا يجب أن تنام قبل الاطمئنان عليه. وعند عودته، أصرت على الذهاب إلى المطار لتكون في استقباله.. أمام صالة الوصول أسرعت نحوه استقرت في أحضانه وهطلت دموعها وهي تردد.. وحشتني.

فور ركوبها السيارة، أخرج لها هدية.. علبة فاخرة بها خاتم من الألماس. وهو يفتحها قبضت على يده، وقالت:

- حبيبي، أنت هديتي.
- ألفت!

قاطعته:

- لا أريد من الدنيا إلا أنت، أنت تكفيني عن كل الهدايا.. أنت أثمن وأغلى ... وأجمل.

داعب خصلات شعرها، فقالت مداعبة:

- "ما تشغلنيش علشان أعرف أسوق"

لم يتوقف الأمر على الهدايا الثمينة؛ فلم يتذكر فرحات أن طلبت منه أية فلوس. وعندما كان يعطيها تقول له:

- حبيبي، معي ما يكفيني.
- احتفظي بها ربما تحتاجينها.
- عندما أحتاج سأطلب منك.

ولم تحتاج.. ولم تطلب.

قالت له ذات ليلة:

- أحبك كما لم ولن تحب امرأة رجلًا في العالم.
- وأنا مهما أحببتك لن أكفيك حقك.

وهي تتعلق بزوجها، وصوت مفتاح "دو" المزعج المختنق من الرطوبة والغبار؛ لتحميه من طلقة يتأهب مجرم كبير لإطلاقها.

** **

شهاب المعصراوي.. احتفظت بالاسم، نقشته بحروف غائرة على ذاكرتها، ورددته سرًّا لحين مواجهته. أخيرًا، عرفت الـ **Top Mam** عرفت الكائن الشاذ، الوقح القذر، النتن. كانت صورته لا تختلف كثيرًا عن صورة وليد عمارة، ولا تختلف أيضًا عن القوة التي يعملان لحسابها.

طاردتها محاولة رسم تصور للتخلص من هذه الحشرة السامة المشاكسة، تواصلت الخطوط عبر مسارات مستقيمة، متعرجة، عشوائية، وانتهت إلى اسكتش سيرياللي، خيالي، رأت أنها انطلقت بسيارتها على الطريق الدائري. وبالقرب من كارفور، كان ينتظرها. هدأت من السرعة وهو يتقدم عدة خطوات نحوها. وفجأة، قفزت بسرعة جنونية فأطاحت به، ودهسته العجلات قبل أن تصطدم السيارة بعامود إنارة.

في الصباح، جلست إلى زوجها، وقالت له:

- أريد أن أعترف لك بسر خطير.

امتلكت الشجاعة لتقول كل شيء. امتلكت الشجاعة لمواجهة الصدمة التي توقعت أن تطيح بزوجها وتهوي به إلى سابع أرض.

وهو لم يفق بعد من الصدمة، قالت:

- الحل الوحيد هو الطلاق، وسوف أهاجر إلى أستراليا.

** **

(٥)

عبد الرحمن

استراحت عنان في مكتبي، وعلى نفس الأريكة التي كانت عليها منذ شهور قليلة، حيث امتدت أصابعي، عبثت بوجهها. وانتفضت لحظتها لتؤكد بأنها ليست عبيطة، بل امرأة تفهم ما باحت به نظرتي من رغبة واشتهاء.

وعندما أفاقت من غيبوبتها، كان الفزع قد نشب بنيرانه في جوفها، قالت وسط بحر من الدموع، أمي انتهت يا عبد الرحمن أنا مرعوبة، خائفة. أشعر الآن بالمعنى الحقيقي للخوف الذي كان يقبض على قلب أمي وهي بين نارين نار الصواريخ الأمريكية المدمرة، ونار جوفها التي كنت سببًا فيها، وأنا أخرج إلى هذا العالم الذي لا أطيقه، أكرهه وأكره كل البشر؛ لأنهم قتلة، مجرمون.

ترددت في تهدئتها. وفضلت أن أدعها تخرج كل ما يعتمل في قلبها من ألم. نظرت إلى وجهي وألقت سؤالها، هل تصدق أن أمي تقتل؟! كانت تعني سؤالًا آخر.. هل أنت معهم؟ مع القتلة والمجرمين الحقيقيين؟

غمغمت رافضًا، مستحيل،هزت رأسها، وقالت: *أعرف أنت صورة منها حنون.. وفنان.. وإنسان و...*، لم تكمل ما قالته من قبل وتقول، ورجل نادر، كانت تخشى فتح باب أغلقته في وجه طموحها.

واصلت حديثها في ألم ودموع لم تنقطع، طوال عمري كان هاجس السقوط من مكان عال فوق السحاب، أخاف من الأماكن العالية. تعرف يا عبد الرحمن، أمي عندها حق هي أيضًا كانت تخشى عليَّ من السقوط من مكان مرتفع، ورأت الفن مكانًا مرتفعًا، شهرة وأموال، خافت منه.. عندها حق، عندها حق.

احتويتها بنفس النظرة الدافئة، وشعرت في هذه اللحظة بأنها ابنتي، كانت هشة ضعيفة تبحث عمن يقبل أن تسكب أمامه دموعها، وما في أعماقها من لوعة، من أثر الصدمة، من الحجم الهائل من الشر الذي يملأ قلوب البشر.

وهي تستعيد وجه القاضي.. وهو يتلو الحكم.. حكمت المحكمة حضوريًّا على المتهمة بتحويل أوراقها إلى فضيلة المفتي، كان وجهه قبيحًا.. قاسيًا، صرخت مثل المجنونة، ظلم، أنتم القتلة، أنتم الشر.

اصطحبها دكتور مختار ومصطفى إلى الخارج، وهي تتلوى وسط النيران التي اشتعلت في جوفها، كانت تخبط بيدها وقدمها كل شيء، حاصرها المصورون وانهالت فلاشات التصوير لتلتقط لها الصور. عندما انفجر جنونها ومزقت ثيابها، أسرع دكتور مختار بخلع الجاكت وستر جسدها العاري، وأخذ مصطفى يمنع المصورين من التقاط الصور.

قالت لي:

- أفقت بعد ساعتين من الانهيار شبه التام. وأنا أواصل الصراخ، وعاودتني حالة الهياج والجنون، ولم يستطع دكتور مختار إعطائي حقنة المهدئ إلا

بمساعدة مصطفى الذي كبّل حركتي تمامًا. ولم يدعني إلا وأنا أنزلق إلى نوم بطئ لثلاثة أيام وربما أربعة. وأنا بين الصحو والغيبوبة حتى وصلت إلى مداها الأخير، صحوت ولم أنتبه إلى القيود التي تقيدني إلا بعد ساعتين أو ربما ثلاثة عندما فكرت في الهبوط من سريري، حاولت الصراخ، ولكنني منهكة القوى تمامًا.. بكيت.

جاء دكتور مختار، وقال مبررًا ما فعله:

- خشيت أن تقدمي على فعل جنوني.
- أنتحر؟!
- كانت أعصابك مرهقة جدًّا.

أعد لي طعامًا بنفسه، وتحدث لى عن ابنته هالة، التي لم يرها منذ عشرين عامًا، تاهت منه في العالم الفسيح وسط ملايين البشر.

قلت له، وأنا أبعد يده في رفق وهو يحاول إطعامي:

- هل تدع أمي حتى يتم تنفيذ الحكم عليها؟
- لا.

كنت في قمة الإقرار بالعجز.. والتلاشي. كانت صورة أمي في الملابس الحمراء تدمي قلبي، وأهرب من صورتها وهم يدفعونها نحو المشنقة.. هل من الممكن أن

يحدث هذا؟! تعدم أمي وأستلم جثتها لأذهب بها إلى أسوان لدفنها، هل هذا حقيقة أم كابوس؟!

قال مختار:

- المحامي واثق من قبول الطعن.
- أنا لم أعد أثق في شيء ولا في أحد.

نظرت إليه معتذرة، وقلت:

- لو لم تقف إلى جواري في هذه المحنة كنت انتحرت.
- أمك بريئة.
- وهذا سبب مقنع للحكم عليها بالإعدام!.

كنت أشعر بقمة المأساة التي تعيشها.

واصل مختار إلحاحه حتى أتناول الطعام، ثم قال لي:

- أنا كتبت طلبًا رسميًّا للقاء الوزير.
- وماذا سيفعل الوزير؟، المجرمون دبسوا أمي بأوراق وشهود زور، وصحافة مريضة أدانت أمي، وأصدرت الحكم بإعدامها قبل أن تدينها المحكمة.

شملتني عنان بذات النظرة القديمة، نظرة امرأة خبيرة بالناس والحياة. كانت تفصح عن الكثير،وكأن الصدمة قد أصقلت خبرتها بالبشر والحياة. كانت نظراتها تحمل الكثير، قلتلها.. إن الضجة التي شنتها الصحافة، وتناولتها برامج التوكشو **Talk**

Shows ما هي إلا ستارة، دخان للتغطية على عملية سرقة ضخمة، لقطعة من لحم البلد الحي، وهي لا يشغلها غير هم واحد، براءة أمها.

** **

قُبِلَ النقض في قضية الحكيمة عفاف همام الأسواني، وألغت الحكم بالإعدام؛ ليصدر الحكم بسبع سنوات مع الأشغال الشاقة في المحاكمة الثانية، ثم طعنت المتهمة في الحكم الثاني، ورُفض.

** **

الفصل الثالث عشر

(١)

روان قيصر

"الفراغ الذي توهمت أنني أعيش فيه لم يكن فراغًا. بل كان سديمًا ممتدًّا مثل كتلة ضباب سوداء ضخمة تحاصرني، والخطوة التي كنت أتحسب مكانها، لم أدر أنها حطت رحالها منذ توقيعي الاتفاق مع قتلة أبي. نعم يا عبد الرحمن، هذه نصيحتك ونصيحة إرخ زيجا خبير الإشتازي.. نعم، أيقنت الآن أنني لن أقدر على التمرد على الآلة التي أعمل لحسابها.. الآلة الضخمة التي تحرك العالم، ولا يصح أن أرتكب أي حماقة تكلفني حياتي. منذ وقف أمامي السؤال الصادم، كيف صورت لي سذاجتي أن في مقدوري مواجهة هذا العالم الضخم، القوي، الشرس، عالم بلا قلب.. لا يرحم!

أرتطم عقلي بهذه الحقيقة صباح اليوم، وأنا في مكتبي عندما قال لي ديكسلر فورد:

- بعد نصف ساعة، سيحضر خبير الشركة الاستشارية الكبرى التي ستتولى إدارة البارون.

جلست في مكتبي وتأهبت لاستقبال مسئول أحد موظفي الكوربورقراطية Corporatocracy الأمريكية، النخبة التي تدير الحكومة والمنظمات المالية، وقد انتهيت للتو من كافة تفاصيل التعاقد، وانفردت بنفسي وأنا أدير فكرة في رأسي

لم أبح بها لأحد حتى لك، فضلت الاحتفاظ بها كارت أخير من الممكن أن أساوم بها خصومي؛ لأنني أعرف هدفهم الأخير والذي لا يريدون الاعتراف به. نعم يا عبد الرحمن، هم يريدون اقتناص تركة البارون، مليارات أبي الضخمة، والتي ترى صفوة الكوربورقراطية أنه لولا الأجهزة والمؤسسات وبيوت الأموال وسماسرة الاقتصاد والسياسة؛ ما كان للبارون وجود بينهم، كان تصريحهم الضمني يحمل وجهًا عنصريًّا بغيضًا، فلا يجب لمثلي أن يزاحمهم ويصل إلى سر صنعتهم في الاستيلاء على المال، ومراقبة حركته، والمشاركة في وضع الخطط ورسم السيناريوهات والخرائط على الأرض.

أبي الحاضر الغائب وضع بصمته، قبلة الحياة على روحي لاستمرار وجوده، وهاهم يتأهبون الآن لإزاحتي، وهذا يقين وجدته ماثلًا أمامي عندما طرق ديكسلر فورد الباب، ودخل الزائر المرترقب، مسئول الكوربورقراطية **Corporatocracy** لتوقيع التعاقد، وما إن رأيته يخطو نحوي، فجأة بدت القارة المجهولة بأصقاعها الشاسعة، والملاك الناصع البياض؛ جبل الثلج الذي رأيته في حلم قديم أراه يقترب. في ذات اللحظة القديمة التي كنت على حدود النهاية ورأيت البارون، لبرهة خاطفة بدا لي ممثلًا خرج للتو من شاشة ثلاثية الأبعاد اقتحم مكتبي. بدا الواقع غريبًا، حق لي أن أنكره لبرهة وإن كانت خاطفة، ولكنني أنكرت الواقع الذي انقضّ أمام عيني كمطرقة عنيفة. أرجوك يا عبد الرحمن، أرجوك لا تدَّعي بأنك صنعت هذا المسار في روايتي قبل أن أخبرك به الآن، نعم يا صديقي، دخل المسئول لينهي الصفقة، واغلاق ملف البارون تمامًا، ارتطم عقلي بالحقيقة الماثلة أمامي، تأملته في ذات البرهة التي

أنكرتها بواقعها الثقيل، وكأنه خرج لتوه من كهف منسي، من مسار أحداث فرضت وجودًا لم أتوقعه، حاولت تجاوز البرهة الخاطفة.. ولكنها ظلت عالقة، مثل الخطوة التي كنت أتحسب مكانها، وتركتها عالقة في الغابة السوداء في سان باولو، عندما زرت أبي في سجنه الحصين قبل إعدامه، نعم يا عبد الرحمن لقد وضعتني منظومة الشركات الكبرى الـ **Corporatocracy** أمام لحظة النهاية، وتأهبوا لإجباري على التوقيع والخروج من المشهد.

تبددت البرهة الخاطفة، وأيقنت هوية الزائر، وأنا أقول له وكأنني أقرأ بطاقته الموجودة في قائمة فريق البحث عن البارون منذ خمس سنوات:

- ألكسندر رودريجو.
- من الممكن أن تعتبريني رودريجو الآن.
- أعرفك جيدًا، واسمك لا يهمني، وبعد قليل سأمحوه من ذاكرتي إلى الأبد.
- وأنا جاهز، للتوقيع.
- قبل أن تقرأ نسخة العقد؟

أخرج رودريجو ملفًا، وطرحه أمامي، وقال:

- قرأته جيدًا.

تولت البرهة الخاطفة، وكأنها ماض سحيق لم يكن له وجود، مجرد لقطة عابرة في مسار معقد اقتربت نهايته، نقشت تفاصيله وسط سديم هائل.

قلت، وأنا أحتويه بنظرة عميقة:

- وأنا لن أحتاج لقراءة ملفك.
- توقعت ذكاءك، وهذا سيختصر الوقت.
- لي شرط وحيد.
- ......
- سيتم التوقيع في وجود المسئول الكبير في الـ Corporatocracy

ابتسم الرجل وأنا أبدي إصرارًا على موقفي، وتتردد ابتسامة على وجهي، فكيف دار بخلدي بأنني قادرة على الثأر لأبي؟! كان عليّ يا صديقي أن أسخر من نفسي لأنني اكتشفت فجأة، جينات القبيلة المطمورة في خلاياي، التي تقتل للشرف والكرامة، أفكار تجاوزها العالم بآلاف السنين. عبد الرحمن، أعرف أن بداخلي شيئًا آخر، ما هو؟ لا أعرف. أرجوك ابحث معي، دلني عليه حتى أستريح، وتهدأ حياتي.

قال ألكسندر رودريجو:

- أنا المسئول الكبير في الـ Corporatocracy .
- أنت من أدرت عملية الاستيلاء على الثروة، وقتلت أبي.
- وما الذي يفيدك لو عرفت اللص القاتل؟
- أعرف لأرتاح.
- معرفة بعض الأمور تجلب متاعب كبيرة.
- لو تمنيت أن أوقع في حضور رئيس العالم.

- من أدراكِ ربما الرئيس مجرد أداة في يد آخرين؟

وتنهد الرجل، وكأنني قد أضعت وقتًا فيما لا طائل منه، وقال:

- لنُنْه الصفقة الآن.

- ....

...... "

أعرف أن الرجل واجهة لفرق ومنظمات، شركات، وعصابات منظمة، رجال يقبضون على مفاصل العالم، وعليَّ أن أنسحب في هدوء من هذا الضباب الذي أحاطني بالعزلة، ولم يعد لي من صديق أثق به.

عبد الرحمن، يوم وصول رسالتك غمرتني السعادة، ولأول مرة أستعيد جزءًا من ذاكرتي المفقودة، عالجت كلماتك بعض مشاكلي وتواصلنا، كانت هذه العزلة سببًا في وهم كبير يعيش داخلي بأنها– العزلة– حالت دون اختراقي، وتغافلت عن الحقيقة الأكيدة بأن هذه الآلة الضخمة لا أستطيع أن أعمل دون أمرها، كنت على قناعة بأن المال يكفيني وإدارتي لمؤسسة البارون ترضي غروري، ولكن بعد انقشاع الضباب الأسود، ولحظة التأهب للخروج من العزلة الخانقة، كانت رؤيتي للعالم ولنفسي تتغير، ووقفت على الحقيقة بأنني أخوض حربًا ذات أبعاد مذهلة، والبحث عن خطة من الممكن أن أستلهمها. وأي فريق سيخوض معي المعركة، هو انتحار بمعنى الكلمة.

في الزيارة الثانية، سألت إرخ زيجا:

- هل تعرف ألكسندر رودريجو؟
- ربما.
- ....؟
- ربما لم يعد له وجود.
- ......؟
- ربما انتهى من أداء دوره.
- قتل؟
- يُقتَل في هذه اللعبة من يخرج على النص المحدد.

كان التهديد واضحًا ومباشرًا، عليَّ أن أتخلص من الأفكار البالية.. أفكار الثأر والدخول في معركة محسومة منذ البداية، نعم يا صديقي يجب أن أنجو بنفسي ولا أفكر في الخروج على النص، فهذه هي فرصتي الوحيدة الباقية...

على فكرة .. اتمنى أن ازور مصر وأشاهد عرضك المسرحي .. "

كان عليها أن تبحث عن مرفئ تستريح فيه، ترسو سفينتها بعد رحلة شاقة جابهت فيها شرورًا لا حصر لها. وفازت في أولى معاركها لتحسن شروط التفاوض، وعليها أن تكتف بذلك. وتحصل على اتفاق لتنجو به من استسلام مهين ومن موت محقق، ومعها من المال ما يكفي لتعيش.. تجد رجلًا حقيقيًّا يملأ فراغ حياتها ويهبها معنى وقيمة بعد كل ما أنجزته في البيزنس. وكل الأرباح الطائلة التي حصلت عليها، كانت

قد استقرت على الاكتفاء والتوقف عن اللعبة التي أنهكتها. واستغرقت أحلى سنوات عمرها، وانتبهت وهي على مشارف الثلاثين من أنها يجب أن تعيش حياتها قبل أن تتسرب من بين أصابعها، عليها أن تتزوج وتعيش في أحضان رجل يملأ عليها فراغها. وينقشع ما تبقى من الضباب الأسود وشوائب تجربة مريرة لترى نفسها.. حقيقتها. ترى العالم كما هو، بقدر ما فيه من شرور.. فيه من قيم تستحق أن تعيش من أجلها.

قالت لي مبتسمة:

- لن أقبل تعييني سفيرة للنوايا الحسنة الذي يقترحه ديفيد بيك.
- ......
- لا أقبل على نفسي بعدما اقتربت من حكومة الظل أن أشارك في تجميل القتلة.

أمسكت بالملف، ووقَّعت على عقود بيع البارون، وفور انصراف الرجل استدعت سكرتيرتها وطالبتها بالإشراف على نقل متعلقاتها الشخصية إلى الفيللا.

** **

(٢)

فرحات أبو العز

"صدقت كل كلمة قالتها. مثلها لا تكذب، لم تختلق قصة زوجها الداعر الذي صورها ليتاجر بلحمها.

في الصباح التالي لعودتي من باكستان، قالت وهي لا تجرؤ على النظر في وجهي:

- زوجي السابق صوّرنا في الفراش أفلامًا ليبتزني بها.

ألقيت عيني على سطح القهوة البني الغامق، مستنكرًا ما سمعته:

- ماذا؟!

تهاوت على فوتيل أحمر قان. وقالت وهي تكبح نار جوفها الحارقة:

- هذا المجرم حطم حياتي ويريد أن يحطمك.

قلت، وقد بدأت أستوعب حجم الكارثة:

- يهددك بنشر اللقطات على شبكة النت؟

- يطمع فيما هو أكثر.

طفرت الدموع الساخنة على وجهها، وهي تقول:

- طلب أن أصورك معي في الفراش ليهددوك بها.

التزمت الصمت أمام الخسارة القادمة التي تتأهب لضربات قوية قاتلة، لم تكن صفقة أموال وأرصدة ومكاسب تبددت في لحظة. كانت ألفت منذ دقائق مضت أعتبرها مكسبي الوحيد في هذه الدنيا، جائزة السماء. والآن، تبدد كل هذا الوهم، تبدد كل شيء، كم كنتَ غبيًّا، ساذجًا يا فرحات، لم تستمع لنصائح ابنك الذي كان يعرف ما لم تعرفه، عرف أشياء هددته لو باح بها، صرخت في وجهه معنفًا.. لا تخض في أعراض الناس.

واصلت ألفت اعترافها:

- وليد عمارة يعمل لحساب شهاب المعصراوي.

دفعت المائدة الواطئة أمامي فأطحت بها نحوها، وقفت مفزوعة، وصرختُ وقد انفجر كل غضبي:

- كفى.. اغربي عن وجهي الآن.
- سأترك الفيللا، وفور حصولي على ورقة الطلاق سأهاجر إلى أستراليا.

أسرعت من أمامي. وبت وحيدًا وسط ثورة، وحريق هائل نشب في عقلي، لم أكن قادرًا على تحمل الصدمة التي اعتبرتها فوق تحمل أي إنسان، كان جرح الكرامة الذي يتأهب خصومي الألداء للنيل منها جرحًا مرعبًا، أرادوا تحطيم عظامي.

بت مستنكرًا لا أصدق أن يحدث ذلك، اتصلت بمكتبي معتذرًا وكلفت مديري الأقسام والفروع بمواصلة أعمالهم دون الرجوع إليَّ، فأنا في أجازة.

غيرت ملابسي، وأمرت سائقي الخاص بالتوجه إلى فيللا دكتور وحيد فرج في التجمع الخامس، طوال الطريق أحرقت عددًا كبيرًا من السيجار الكوبي، كنت أهرب من كل ذكرياتي معها، وصورتها تلاحقني، وصوتها يلحّ على خاطري ما قالته ليلة أمس.. أنت هديتي. تحسست جيب الجاكت، كانت العلبة القطيفة تقبع مكانها، أصابني ملمسها بقشعريرة، أخرجتها. رفعت الغطاء.. تأملت خاتم الألماس، فرأيتها، ألفت بوجهها الهادئ وجمالها الطاغي وابتسامتها، وأيضًا الفزع والخوف الذي كسا ملامحها على إثر صرختي منذ دقائق معدودة، هتفت جروح عميقة في روحي.. آآآآآآه هـ هـ.. لقد نالوا منك يا فرحات، دبروا لهدم الركن الهادئ في حياتك، دبروا لاختطاف امرأة نادرة الوجود، وكأنها كانت تعرف بأن علاقتنا عمرها قصير. لم ترد أن تدين نفسها لي، اكتفت بأن حبي لها كان يكفيها، كادت تطفر دمعة جياشة وصوتها يردد.. *"أحبك كما لم ولن تحب امرأة رجلًا في العالم"* ، واستعدت صورتها وهي تلقي نظرة بها كل حزن العمر.

....

جلست إلى دكتور وحيد فرج، وأنا مقطوع الصلة بالعالم.. سألته، ما الحل؟

تنفس الرجل واستراح على الفوتيل، وقال:

- هي حلت القضية، طلقها.
- لكن.

شملني بنظرة عميقة عامرة بالشفقة:

- عارف، ألفت هانم بريئة. وأنت تحبها جدًّا لكن الحرب التي ستشن ضدك ممكن تدمرك. لازم تضحي بها....."

".........

** **

بعد أسبوعين، ذهب إلى شقتها ومعه ورقة الطلاق، قال لها بوجه محتقن وقلب مرتجف:

- هذه شهادة وفاتي أنا.

اصطحبته إلى الريسبشن، وموسيقى إكسير الحب تتواصل، قالت:

- الزمن كفيل بعلاج الجروح.

مسحت دموعها، وهمت بالهروب من أمامه:

- سأعمل لك فنجال قهوة لتفتكرني به.

قبض على يدها.. جذبها نحوه.. همست:

- فرحات.
- وهل سأنساكِ في يوم من الأيام!
- ولا أنا.
- عندما تهدأ المعارك ضدي أول شيء أفعله.. سأسافر إلى سيدني ونتزوج.

قبلت يده، وقالت:

- ستجدني في انتظارك.

** **

سبع سنوات والمعارك على أشدها وتوالت الخسائر، ولكن ظلت **FAZ** صامدة، متواجدة. ارتضت بحصص محدودة، وأحيانًا كانت تعمل في بعض المشروعات من الباطن، ولم تهدأ إلا عندما تولى دكتور أبو العز فرحات حقيبة وزارة الصحة، وتشعبت علاقاته ووصلت أوامر عليا لشهاب المعصراوي بالابتعاد عن **FAZ** ، قبل ذلك حاول فرحات التواصل عن طريق وسيط مع وليد عمارة، وعرض مبلغًا محترمًا في مقابل أفلام البورنو، واعتراف بأنه قام بتصويرها لابتزاز زوجته وكانت المفاجأة، وليد سافر إلى جنوب أفريقيا وقطعت أخباره، وكلف مكتب **FAZ** في جوهانسبرج بالبحث عنه، ولكن لم يعثر له على أثر، بعد اختفائه بعام، رفعت دعوى من امرأة قالت إنها زوجته تتهم وزارة الداخلية، ووزيرها بصفته بأنه وراء اختفاء زوجها وليد عبد الغفار عمارة، وكما اختفت سحر فريد زوجة دكتور مختار راضي وابنته هالة في زحام الحياة ووسط ملايين البشر.. اختفت ألفت شاكر الباجوري. حاول فرحات أبو العز بعلاقاته والاتصال بوزارة الخارجية، وسفارة مصر في سيدني دون جدوى.

** **

في ليلة خريفية، بعد يوم غائم، هطلت الأمطار. كان فرحات يقضي معظم وقته في روف النادي. وانتظر الجميع في الصالات المغطاة، وبرغم تقدم العمر.. واظب على برنامج غذائي قاسٍ، وممارسة رياضة الاسكواش. فبدا أقل من عمره بكثير. في هذه الليلة، التقى لأول مرة بهند المصري، رآها ملفوفة في فورير ناصع البياض. خطا نحوها وقال:

- مساء الخير.

التفتت نحوه، وردت باقتضاب، فقال:

- هند هانم المصري.
- أيوه.

مد كفه نحوها، وقال:

- فرحات أبو العز.
- أهلًا وسهلًا.

توقف المطر، واصطحبها نحو الباركنج، وقطرات واهنة تتساقط، قالت له:

- على فكرة، أنا أعرفك.
- يشرفني.
- بسم الله ما شاء الله. كل يوم أشوفك تجري حول التراك.

وصلا إلى سيارته السوداء، وقال لها:

- بكره، اجهزي تجري معي حول التراك.

بعد شهر وتعدد اللقاءات، قال لها:

- عندك مانع لو طلبتك للزواج.
- المانع الوحيد أنك فاجأتني.

وهزت رأسها، وقالت:

- أفكر.

تزوج فرحات أبو العز هند المصري، بارك الأهل والأصدقاء الزواج. ومنذ الأيام الأولى، قال لها وقلبه مترعٌ بالنشوة...

- أنا محظوظ في البزنس، لكن حظي الأكبر مع النساء.

قالت له، وهي تقدم له الشاي وقطعة الكيك:

- سيكون حظك معي في السماء.
- كل زوجاتي كانوا هدية من الله إلا واحدة.

رسمت رجفة على ملامحها، وقالت:

- لو كنت أنا هذه الواحدة قلبي سيتوقف فورًا.
- لا. أنت أعظم نعمة.

بعد الزواج بعام، تعرض فرحات لوعكة صحية.. تضخم في البروستاتا. وطالبه الدكتور بالاقتصاد مع زوجته.. وحذره من الاعتماد على المقويات تجنبًا لأضرارها، كان فرحات يلتزم بإرشادات الطبيب التزامًا صارمًا مع زوجته. وقد اكتشف بأنها رغم عقدها الخامس لم تخمد نار رغبتها. حاول أن يرضيها في البداية فعاودته الآلام، فأقر بأن صحته لم تعد تحتمل، وانقطع اتصالهما تقريبًا.

** **

(٣)

عبد الرحمن

" .. طاردتني الظنون في أنها حسمت قرارها، وعليها أن تنسى خطيئتها معي. وتعلن التوبة وتتطهر من حبنا الذي تلاعبنا به ولم نعطه فرصة وحيدة ليعلن عن وجوده، ولكننا أهملناه.. أنكرنا وجوده وركبنا العناد. وأمام إحساس مشوَّه بالكرامة. كان كلّ منّا يتهم الآخر بالخيانة، ويرفض التنازل والاعتراف بالخطأ. اليوم وبعد ثلاثين سنة، التقينا وكلٌّ منّا على استعداد للاعتراف بأنه أخطأ، بأنه خان، بأنه يحتاج إلى الآخر، ولا يستطيع أن يمضي بقية العمر بدونه.

بعد مجهود خرافي من البروفات، وإعداد الديكور والموسيقى؛ اتخذت قرارًا بإعطاء الفرقة أجازة أسبوعًا قبل العرض، أشرفت على وضع أفيشات الدعاية وتم طبع التذاكر، وانطلقت عائدًا إلى القاهرة، وتركت رسالة لهند على هاتفها، أنا في الطريق إلى القاهرة. على مسافة كيلو متر من الرست هاوس، جاء الرد على رسالتي، وأنا في انتظارك في نادي الرماية بعد ساعة.

لم يطل انتظاري، جلست في الكافيه، ورأيتها تدخل من الباب، خطت نحو مائدتي، جلست وهي ترفع نظارتها السوداء وقالت:

- إزيك يا عبد الرحمن؟
- ماذا حدث؟ لم ترد على أي اتصال. خير؟
- استرح الأول من الطريق. الزحام والحر شيء مقرف.

- عندك حق.

وضع العامل العصير المثلج أمامنا، وانصرف.

قالت بلهجة اعتذار:

- طلبت الطلاق.
- عبد الرحمن، أنت.
- أنا حسمت الأمر، سنتزوج.
- ....؟
- أظن ثلاثين عامًا كافية.
- تناسينا أن ثلاثين عامًا تغير فيها الكثير.

كان التردد مثل رائحة نفاذة وهي تخرج كلماتها. قلت لها:

- قد يحدث في أسبوعين أكثر مما حدث في ثلاثين سنة.
- عبد الرحمن، راحت السكرة وجاءت الفكرة.

قلت بلهجة اتهام:

- لِمَ التردد؟
- تعرف أنت الرجل الذي أحببته طوال عمري.
- والآن؟
- الآن.. وغدًا.. وحتى الموت.

صرخت بصوت مكتوم:

- مصرة ندور في نفس الدائرة الفارغة.
- عبد الرحمن، فكر في زوجتك، في جرحها الكبير الذي سأكون أنا السبب فيه.. بيتك.. مستقبلك.
- هند!

قاطعتني وواصلت حديثها:

- أنت معها حققت النجاح، أسست مدرسة جديدة في المسرح، نلت الشهرة التي بحثت عنها طوال عمرك. وأنا لا أريد أن أهدم حياتك.

كان بودي أن أصرخ، أطيح بكل شيء أمامي، ولكنني كظمت ثورتي:

- أنا شفت دكتورة نورا مع ابنتي، جميلة جدًّا، مثقفة وأصغر مني بكثير، وأنت لا تنكر أنك تحبها.

هتفت:

- وأحبك.
- حب ينقصه الكثير ليكتمل، حب غدرت به الظروف. وكنا أول من غدر به أنا وأنت. حب نشأ في جو من التربص. كلٌّ منّا كان يتربص بالآخر ويريد الإيقاع به. تبادلنا الاتهامات بالخيانة وعدم الوفاء. نعم، كانت مشاعرنا صادقة ولكننا أهملناها، كلٌّ منَّا تجاوزها ليصل إلى هدفه الخاص، حبنا قضينا عليه بأنانيتنا اشتركنا في خنقه، تعرف لماذا؟

أجبت بزفرة حارة، فواصلت:

- أنت كنت خارجًا للتوّ من المعتقل، فاقد الثقة في نفسك وخائف من الناس ومن العالم كله. وأنا أيضًا كنت خارجة من تجربة زواجي الأول بعد وفاة زوجي في حادث عارض، والحرب التي شنتها عائلته، وأنا مجروحة.. مصدومة من الحادث ومن فقدان زوجٍ بعد أسبوعٍ واحد. كلانا كان مجروحًا مهانًا، ضائعًا، وعلاج هذه الأمراض لم يكن إلا الحب، كان الحب هو أنت بالنسبة لي. وكنت أنا الحب بالنسبة لك، وكان بالنسبة لنا شاطئ أمان رسوْنا عليه. وتفرقت مساراتنا، باختيارنا.. ربما، مجبرين! ربما، النتيجة أننا افترقنا.
- لم نفترق صدقيني. كنتِ دومًا في قلبي وعقلي، الحب الذي بيننا. برغم كل التجارب التي حاولت تشويهه؛ حبٌّ حقيقي. شكّل جزءًا مهمًّا من حياتي، وفني وفكري. هند، أنتِ قدري. هند......

أومأت برأسها، وقالت:

- مكانتك في قلبي مساحة نظيفة، طاهرة. برغم ما حدث.. النزوات التي انتصرنا عليها. عبده، علاقتنا لم تكن معركة فيها منتصر ومهزوم. نعم، كانت علاقة شائكة، كان احتياجًا، حاولنا تجاهله، نسيانه، حاولنا إنكار وجوده، ولكنه كان موجودًا حتى الآن.

ربتت على يدي في حنان وقالت:

- عبد الرحمن، أنت رجل عاقل ومثقف. أعتبر ما حدث في الاسكندرية نزوة .. وجاءت سليمة .

واحتوتني بنظرة حانية:

- فكر في زوجتك.

قلت في عصبية:

- سأقول لها سأتزوج هند.. ستثور وتغضب، ولكنها ستقبل بالأمر.
- مجبرة. وهذا لا يرضيه شرفك ولا كرامتك أن تجبر إنسانة أحبتك على ما تكره. هذا ابتزاز رخيص، آسفة ولكنه الحقيقة.

سادت لحظات من الصمت:

- عبد الرحمن، سأسألك سؤالًا، وأجبني بصراحة..
- ......
- ماذا تريد مني؟
- أريدك وهذا يكفي.
- تريدني على أطلال علاقة، وأكيد حب حقيقي يربطك بزوجتك، والدليل أنك سترفض أن تطلقها.

لذتُ بالصمت، فواصلتْ:

- هل تريدني للمتعة؟

- هذا ليس حرامًا.
- يكفي أن أرفض علاقة قائمة على المتعة فقط، وهذا حرام من وجهة نظري حتى لو أفتى أعظم الشيوخ بغير ذلك. الزواج حياة كاملة.

احتويتها بنظرة آسفة، وقلت:

- استقر رأيك على..

قاطعتني قائلة:

- لكل الروايات فصل أخير. وروايتنا وصلت إلى فصلها الأخير، وآن لنا أن نفترق وبيننا مشاعر احترام وتقدير.

قلت راجيًا:

- لن نفترق.
- أعرف سأظل في خيالك وعقلك وقلبك. وأنت أيضًا ستظل معي.
- هند.
- لا تنس دعوتي لحضور عرض أوهام فاوست.

** **

(٤)

فرحات أبو العز

" الله ..

لم أشعر بقربة مني إلا في هذه الفترة، في غفواتي القليلة النادرة كنت أشعر بوجوده، أتحدث إليه أن يخفف آلامي وجراحي. واستعدت لحظات الصفاء وصلواتي في الحرم ودعائي ودموعي.

كنت أبحث عن لحظات النوم لأرى نفسي في الروضة الشريفة.. أدعوك، يا رب.. يا رب.

بعد احتجازي في مستشفي وحيد فرج بعشرة أيام، صحوت ذات مساء. كانت هند إلى جواري نائمة على مقعد وفي يدها القرآن الذي لم يفارقها، كان الألم قد تلاشى تمامًا. وشعرت لأول مرة منذ مرضت بأنني لست في حاجة إلى الحقن أو الحبوب، احتواني هدوء تام وسكينة غمرت روحي.

همست:

- هند.

فتحت عينيها، وسألتني في لهفة:

- نعم، في حاجة؟ أنادي الدكتور؟.
- لا. أنا تمام، الحمد لله. ميرفت لم تأت من السفر؟.

- طائرة عمان ستصل غدًا.
- ميرفت، هالكة نفسها في الشغل.
- مثل روان ابنتي، الحمد لله.
- حاسس بأن الألم راح.
- ربنا يشفيك.
- .....
- .....

في أول زيارة للوزير، قلت له:

- عز، وصيتي قبل وفاتي، ميرفت أختك.
- بابا، ميرفت في عيني .

...... "

مساء اليوم حضرت ميرفت من الأردن ، تركت مشروعها تحت إشراف مساعديها. عند وصولها، كان أبوها في النزع الأخير، وامتلأ قلبها حزنًا وألمًا. في اليوم الحادي عشر من نقله إلى المستشفى، لفظ رجل الأعمال فرحات خميس أبو العز أنفاسه الأخيرة بين يدي زوجته وابنته، بعد أن كتب مستشاره القانوني وصيته بتقسيم التركة، وإخراج الزكاة المفروضة و ١٠% تخصص كصدقة جارية على روحه وروح زوجته الأولى هدى النبوي. بعد العزاء، شعرت هند بالتعاسة. أرسلت لها دعوى لحضور عرض " أوهام فاوست " في مسرح سيد درويش ..

والحزن قابعٌ لا يزال في القلب، وجدت هند من يطلب زيارتها، أمرت السفرجي بتقديم القهوة لحين انتهائها من الحديث مع المحامي.

عندما دخلت الصالون، وجدت امرأة تجلس في هدوء.. وعلى الفور نبش شك في قلبها..

قالت السيدة:

- أنا ألفت شاكر الباجوري، طليقة المرحوم فرحات.
- الله يرحمه، أي خدمة؟
- جئت للعزاء.
- شكر الله سعيك.

همَّت ألفت واقفة، وقالت:

- سأعود على نفس الطائرة إلى سيدني، أكرر عزائي.

همَّت بالانصراف، وهي تستدير للخروج توقفت أمام صورة فرحات للحظة، ثم خطت نحو الباب، وخرجت.

** **

في مسرح سيد درويش .. أطفئت الأنوار وصدحت دقات المسرح وفتح الستار .. فور وقوفي على خشبة المسرح ، كانت عنان؛ وطيف زوجتى نورا الطبري؛ وروان

قيصر؛في المقاعد الأمامية ولكنني وطوال العرض لم أر غير هند المصري وأنا أقول لمفستوفيلس :

- ***" فقط هنا وهناك يلمع لألاء أحمر حافل بالمعني ، والأسلحة تلمع بالدماء ، والصخر والغابة والجو والسماء كلها قد أختلط بعضها ببعض ..***

كان فمبيرة (Vampyre) شبح خرج لتوه من المقبرة ، يواجهني بسيفه وأنا أواصل التحدي ..

- ***أيها الشبح الميت ......***
- ....

** **

تمت بحمد الله

عوني عبد صادق

نبذة عن المؤلف

عوني صادق

الدولة: مصر

روائي وسيناريست

الأعمال السابقة:

- **الجولة الاخيرة في مربع الظلمة _ نادي ادب قويسنا**
- **رواية. ثقب أبيض صغير. دلتا للطباعة والنشر**
- **رواية وكأنه.. قد حدث. دار البشير للثقافة والعلوم**
- **رواية توأمي وروابة همس السنين عن دار يسطرون للطباعة والنشر**